حمّام اليهودي

علاء مشذوب



رواية

سطور



حمام اليهودي

حكاية رجل اسمه يعقوب شكر الله

علاء مشذوب

THE JEWISH BATH

Alaa Mashzoub

الطبعة الأولى: 2017

إصدار دار سطور للنشر والتوزيع

بغداد ـ شارع المتنبي ـ مدخل جديد حسن باشا

email: bal - alame@yahoo.com ـ هاتف: 07700492576 - 07711002790

First Published by Dar Sutour For Publishing and Distribution

Baghdad - Iraq - Al Mutnabi street - Jadeed Hasan Basha Entry

ISBN: 978 - 1 - 77322 - 283 - 7

رواية

علاء مشنوب

حمام اليهودي

حكاية رجل اسمه يعقوب شكر الله



لن أكون روائيا طالما أني أخاف المخاطرة، واللعب، والمقامرة... ومن لا يستطيع المغامرة في الحياة لن يستطيع المغامرة في الأدب.

علي بدر
صخب ونساء وكاتب مغمور

هذه الرواية تحكي قصة اليهودي يعقوب شكر الله دانيال وعائلته، وهو الذي فضل الهجرة إلى متصرفية كربلاء بدل اسرائيل أو أية دولة أوربية، بدأت أحداث الحكاية في نهاية عام 1918 وانتهت بعد أكثر من عقدين، تكشف لنا الرواية الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في تلك الفترة الطويلة، كما تكشف لنا الصراع العقائدي، إذ لا تكمن جمالية الرواية في الأحداث الكبيرة وانما بالسرديات الصغيرة، كما وتكمن سرَّة الرواية في افتتاح يعقوب لحمّام وسط المدينة فيدور نزاع نفسي واجتماعي بين المسلمين مفاده هل يجوز ليهودي ان يكون الراعي لنظافتهم، او ان النظافة لا دين لها.

القسم الأول

I

اسباب الهجرة

كانت السيارة تسير بنا وسط المطبات فترج أجساد الركاب مثل مخض اللبن في جلد ماعز بيد فتاة ريفية قوية، فتصدر صرير الخشب الذي يغلفها، تذكرت تقريب البريطانيين لليهود العراقيين لأنهم من ملتهم والأهم انهم يجيدون عدة لغات ما يساعدهم في الترجمة وتسهيل تعاملهم مع الساسة العراقيين، بل ان إطلاق وعد بلفور السيء الصيت جعل الشعور القومي لدى العراقيين يتنامى داخلهم كما شاع ذلك بعض اليهود بين أبناء دينهم، وبأن المسلمين يضمرون العداء لبريطانيا ومن يساعدهم على تسيير امورهم، وفي المقابل كان أغلب اليهود لا يخفون سعادتهم بخروج القوات العثمانية ودخول القوات البريطانية وكانوا مرحبين بهم. وهناك سبب اقتصادي اضافة إلى الأسباب السياسية والنفسية التي أدت إلى هجرتي إلى متصرفية كربلاء، هو ان اليهود بالعموم يبحثون عن أماكن تكون فيها المراكز التجارية نشطة، وكانت متصرفية كربلاء تعد أحدى أهم المدن الإسلامية في العراق وبعض دول الجوار ما يجعلها تموج بالحركة النشطة، ناهيك عن كونها أرضا بكر للتجارة والعمل.

كما تذكرت الصحف التي كنت اقرأها، وخطابات الغرامافون، أو ما يسمى بالصندوق المغني التي اسمعها، وبعض الاجتماعات الحية واللقاءات التي تُعقد في المدارس والكنائس، وبالخصوص عندما أحتل البريطانيون بغداد، كان اليهود فيها يشكلون عنصرا مهما من حيث العدد والثروة، وقد قامت مدرسة (الاليانس) الاسرائيلية في منتصف تشرين الثاني من العام نفسه حفل تكريم للجنرال مود أو كما يطلق عليه (فاتح بغداد) وكان من بين الحاضرين الصحفية الأمريكية (اليانورايفان) التي سجلت ذكريات عن الحفل في كتابها (الحرب في مهد العالم) التي وصفت الاحتفال: ساحة المدرسة مزينة بأبهى زينة، وهي محتشدة بالناس من مختلف الأقوام والطوائف يدل على ذلك ما يلبسونه على رؤوسهم من طرابيش وكوفيات وعمائم وكلاوات فارسية، ولقد لفت نظرها وجود جمع من النساء في وسط الساحة، وقد لبسن العباءات الحريرية البراقة وأسفرن عن وجوههن، فقال رجل في تفسير هذه الظاهرة الاجتماعية: نساؤنا لسن في حاجة إلى حجاب أبدا تحت الحكم البريطاني وبدأت الحفلة بظهور فتاة يهودية صغيرة على المسرح حيث ألقت خطابا مكتوبا في مدح مود والبريطانيين جميعا، وكيف ان بغداد حالفها الحظ أخيرا لأنها صارت تحت هذا الحكم النزيه والشريف.

وكيف ان أحد اليهود من الحاضرين وهو داود سمره هتف بالضد من الجنرال مود ووصفه بالمحتل وان هذا الاحتلال سيعود بالضرر على يهود العراق، وعندما أراد الحرس إخراجه من الساحة رفض الجنرال ذلك وطلب منه الهدوء والحوار وانه جاء لإنقاذ العراق من براثن الإمبراطورية العثمانية العجوز التي حولت العراق إلى ضيعة دون راع

أو بقرة حلوب لا تقوى على المسير وقد اطبق جلدها على عظمها، ثم قال الجنرال مود: نعم أن هناك مصالح عليا للمملكة المتحدة، ولكنها من المؤكد لا تعطي أكثر مما تأخذ، وكذلك لا تأخذ أكثر مما تعطي وهي تعمل ضمن هذا القانون الذي يحقق مصلحتها والدول التي تعمل تحت علمها. لكن داود رد عليه: انكم باحتلالكم العراق ستخلقون فتنة بين العرب انفسهم، وبين المسلمين وغيرهم من الملل الأخرى، لأن الشعب العراقي في عمومه أناس بسطاء ومن السهل التأثير فيهم من بعض المغرضين في ان اليهود موالون للمحتل البريطاني، ولذلك اتمنى عليكم ان تشيعوا مبدأ المواطنة وأن اليهودية دينا ليس لها علاقة بالمحتل بل هي دين مشترك بين كل يهود العالم سواء أكان هذا المسيحي أو اليهودي محتلا أو مواطنا من أبناء هذا الوطن، وان العراق بلدا هو وطن الجميع بغض النظر عن انتماء المواطن الديني، سواء أكان مسلما أم مسيحيا أم يهوديا.

لكنني وجراء شجاعة داود وموقفه أصبحت تربطنا علاقة صداقة قوية في كوننا من مواليد قريبة، حتى اننا اتممنا دراستنا الثانوية في إعدادية العراق السلطانية، ولأن ظروفي كانت صعبة فقد تركت المدرسة والتزمت عمل والدي، حتى انفرجت أمورنا إلى غير ما توقعت فيما بعد، بينما أتم داود دراسته في اسطنبول على نفقة احد أقاربه، ومن ثم عاد إلى العراق في عام 1905، ليرشح لأشغال منصب قضائي في الشام إلا انه رفض العرض وظل في العراق يزاول المحاماة، وعندما تأسست أول محكمة للبداءة في بغداد عين حاكما لها.

* * *

كأرجوحة عيد شعبية كانت تسير بنا السيارة ذات الجسم الخشبي، أو مثل غيمة عرجاء تزحف على الشارع المعبد بالرمل الأحمر، كنت انا وزوجتي ريم وولدانا يسع الذي بلغ من العمر السادسة، ودانيال الذي بلغ من العمر الثالثة، قد قررنا الهرب او الهجرة من العاصمة إلى أطرافها أو أحد متصرفياتها فكانت كربلاء.

كنت متوسط الطول ذا بطن صغيرة، لي حاجبان غليظان وشعر أسود كثيف، البس الزي الأوربي المعتاد في عملي كصاحب دكان لبيع المصوغات الذهبية وتصليحها، أما زوجتي فكانت ترتدي الإيشارب لتغطي أعلى شعر رأسها، المفروق من وسطه وقذاله ظاهر للعيان، تلبس القبوط الأسود الذي يصل حتى ركبتيها، تلبس تحته بنطلونا أزرق حبريا يتسع في أسفله بموديل الجارلس، اما حذاؤها الجلدي المغلق من أمامه فيمتد من أقصى يمينه سير جلد جوزي حتى أقصى يساره، تلبس تحت معطفها قميصا أبيض بياقة مغلقة الأزرار، وتحمل بيدها حقيبة كبيرة بسلسلة حديدية يمكن تعليقها على الكتف.

لقد حجزت قبل ثلاثة أيام في الباص الخشبي على أمل ان يمتلئ بالركاب وكنت امرَّ على سائقها في اليوم الثاني لأتأكد من عدد الركاب ولكني عدت خائبا وفي اليوم الثالث صباحا أخبرني صاحبها انها ستنطلق عصرا بعد ان تم حجز جميع مقاعدها.

استأجرت ربلا بسائق قوي اربعيني العمر، يلف حول رأسه جراوية ويحتزم بحزام جلدي سميك كي يساعدني في حمل أغراضي وبقج الملابس، جلست قربه على تخت القيادة، بينما جلست زوجتي وولداي

تحت السجفة السوداء ووضع الحوذي أغراضنا في الزاوية اليسرى للربل حتى لامست سقفها.

أنطلق الربل بنا قبل العصر إلى الكراج، وركن قرب سيارة الباص وبدأ بإنزال البقج وبعض الصناديق الصغيرة، ومن ثم أخذ الحوذي بدوره تصعيدها إلى الشخص الموجود فوق الباص الخشبي كي يرزمها قرب اغراض المسافرين الآخرين، واعطيته أجرته مع زيادة وعاد أدراجه، بينما صعدت العائلة إلى السيارة بعد ان جلسنا على الكراسي التي حجزتها، وحشرت في أقصى الكرسي الفارغ بعض أغراضنا الثمينة.

انطلقت السيارة إلى حيث متصرفية كربلاء، بعد ان ضغط السائق على دواسة الكاز لأكثر من مرة مخلفا سحابة سوداء من الدخان، وكنت وزوجتي تحمل عينا كل منا نظرة ذابلة مثل قصة عشق فاشلة، بينما كان يسع ودانيال في غاية الفرح، وهما يحلقان بنظريهما من الشباك الخشبي وزجاجته المترجرجة المفتوحة حول الأماكن الزاحفة عكس سير سيارة الباص.

أخرجت ريم من حقيبتها الجلدية منديلا أبيض تتوسطه بعض الورود المطرزة بخيوط من الحرير الملونة وراحت تكفكف دموعها التي حاولت قدر الإمكان الحفاظ عليها داخل مقلتيها لكنها كانت أكبر من الموقف والمقل فانهارت مثل سيول جارفة في غير أوانها، بينما تجلدت وطفقت اطبطب على كتفها دون ان انبس ببنت شفة.

بعد أكثر من ساعة ونصف من السير المتعكر وكأن السيارة مثل ظهر بعير في كل نقلة قدم تتحرك أجسادنا إلى الأمام والخلف، وقف الباص

في منطقة تسمى الحصوة في مكان فيه بعض الدكاكين والحوانيت البسيطة والمبنية من القوق والمغطاة بقصب البردي، نزل بعض الركاب مسرعين إلى حيث الأباريق النحاسية المربوطة في مؤخرة الباص وعلى السلم الحديدي الذي يؤدي إلى سطحها، وكان السِكن ـ مساعد السائق، قد سبقهم اليها وفتح القفل وأزاح السلسلة الحديدية التي تطوق ايادي الأباريق النحاسية والتي تمتد من ظهره وحتى فوهته المتعرجة على شكل موجة بحر، اتجه بعض الركاب إلى المنطقة المظلمة وراح يريق مائيته بعد ان ملأ ابريقه بمياه النهر القريب إلى الدكاكين الجوالة.

اتجه بغض الركاب إلى القهوخانة البسيطة بشكلها وتختها دون أذرع أو متكأ بينما فضل البعض شرب الشاي من وقوف، كان أغلب الركاب يرتدون الدشاديش والكوفية والعقال، باستثناء شخصين أو ثلاثة كنت من ضمنهم نرتدي البدلة، فضّلت النزول من السيارة لأمطي جسدي ولكي يسري الدم في عروقي ولكن قرب زجاج شباك عائلتي.

كانت القهوخانة الشعبية متداعية وأباريق الشاي والماء الحار يعلوها السخام من كل جانب كانت عروة كل ابريق ملفوفة بقطعة قماش بيضاء تحولت إلى سمراء مائلة للسواد بفعل الاستخدام، أما أبريق الماء الحار الكبير فهو عبارة عن قطعة سوداء من السخام وقربه دلة قهوة يضوع عطرها المكان، كل هذه الأباريق ترقد على نار لاهثة من الجمر وكأنها أضواء فرح تتقد لتخفت وتعود لتتقد بفعل الهواء المنجذب خلف السيارات العابرة.

ركن باص خشبي آخر خلف باصنا وكان متجها إلى كربلاء أيضا،

وجلس السائقان معا، بينما طفق السِكن إلى تفقد إطارات السيارة ومن ثم أخرج الدلو الخاص بتنظيف زجاج السيارة الأمامي وراح يرمي عليها مياه النهر ويعود ليمسحها بقطعة قماش من التترون المقلمة الذي يمتص الماء دون ان يترك خطوطا أو تشويها على الزجاج، بينما طفق السائق يحتسي أكثر من استكان شاي ثم ختمها بفنجان قهوة، قبل ان يخرج من جيبه علبة التبغ المعدنية المطرزة على صفحتها بعض النقش على شكل فراشة، فتحها وأخرج دفترا ورقيا خفيفا شفافا من خلف العتلة المعدنية وسحب ورقة مستطيلة وبدأ يوزع التبغ على طولها وراح يلف السجائر ويضعها داخل العلبة وبعد ان أتم لف أكثر من خمس سجائر ألقم فمه واحدة وأخرج الزناد من جيبه الأيمن وقدح رأسها، وأخذ نفسا عميقا ونفث دخانها الذي علا في الفضاء المفتوح مثل مؤخرة باصه.

بدأ السِكن أو مساعد السائق بالصراخ مناديا الركاب الالتحاق بالسيارة لأنها ستنطلق من جديد، وأعاد صراخه بصوت أعلى مرة أخرى ومن ثم سأل الركاب ان كان من يجلس قربه لا زال غائبا وعندما أجاب بعضهم ان عددهم كامل طلب من السائق الانطلاق، أعاد السائق من جديد الضغط على دواسة الكاز ليخرج سحابة سوداء من خلف السيارة وكأنها الثور الذي يبحث بالأرض لأكثر من مرة كي ينطلق بسرعة، وهكذا تحركت السيارة بعد ان إضاءت مصباحيها الأماميين.

سجى الليل وهدأت الشوارع، فأشعل السائق المصابيح الصغيرة المزروعة في سقف الباص من الداخل، والتي كانت أسلاكها ظاهرة للعيان، بينما غط البعض في نومه ومنهم زوجتي ريم وولدانا بقيت مستيقظا مستحضرا الماضي وأسباب نزوحي وبعدي عن أهلي

وأصدقائي، عندما وصلنا إلى منطقة المسيب وبالتحديد قرب مرقد الإمام (أبو الجاسم) طلب أحد الركاب من السائق التوقف والزيارة، لكن السائق رفض طلبه وأيده في ذلك بعض الركاب الذين لم يداعب النوم أجفانهم، وعندما ألتفتُ إلى المرقد من بعيد وجدت بعض الشعلات النارية متوهجة تبعث دخانا أسود كثيفا لم اتبين ملامحه، بل انني لم اسمع بمثل هذا الإمام من قبل.

عدت من جديد اسرح بذاكرتي إلى تلك الأيام التي كنت انبه فيها أقربائي وأصدقائي مما تقوم به الصهيونية ستعود علينا بالضرر الكبير، وانه من الأفضل ان نكون عراقيين فقط ننتمي للوطن حسب، دون غيره، وما الدين إلا معتقد شخصي، ولكن وان سمعه القليل، إلا ان الظروف المحيطة كانت أكبر من المحيطين بي، وقد غرر بهم، بل ان الأخبار المتداولة في الكنيس الذي نقيم فيه صلواتنا والأندية التي نجتمع فيها تروج الإشاعات المغرضة وبالخصوص محاولات (تيودور هرتزل) الذي حاول إيجاد مستعمرات يهودية في العراق سنة 1903، اثناء اتصالاته برجالات الدولة العثمانية، ولكن السلطان عبد الحميد رفض ذلك.

بدأ النعاس يجاذب جفوني فطلبت من السائق اطفاء المصابيح الداخلية، وذهبت في غفوة بعد أن ألقمت فتحات سترتي أزرارها وشابكتُ أصابع كفيَ على صدري. كانت بعض الاهتزازات توقظني من غفوتي فأفتح عيني لأرى من في داخل السيارة غارقا في ظلمته وكل ما يحيطها من الخارج غارقا في ظلام دامس مخيف يشق سكونه أصوات كلاب نابحة وعواء ذئاب تأتي من بعيد. بينما ارى على أضواء مصباحي

السيارة الأماميين بعض أشجار النخيل على جانبي الطريق لأعود إلى غفوتي من جديد.

كان مساعد السائق الذي يجلس قربه يسهب بالكلام وفي بعض الأحيان يغني له، ليبعد عنه الملل والنعاس الذي يغالبه نتيجة الرتابة والخدر الذي يدب في أوصال السائق لينعكس على شكل نعاس فتتولد مادة لزجة تطبق على جفني السائق، وبين الحين والآخر يسأله ان كان يريد ان يلف له سيجارة، لكن السائق كان يرفض حتى الإجابة عليه، فيعيد السِكن من جديد سؤاله ان كان يحتاج ان يشرب ماء، أو يغسل وجهه ويخرج شربة الماء بعد ان ينيط قطعة القماش الملفوفة عن رأسها ليقدمها له، فيتناولها السائق منه ويتجرع منها القليل.

تغير الجو داخل السيارة، وشعرت بانتعاش بعد ان دخلت السيارة إلى منطقة الحسينية ببساتينها الكثيفة وبالخصوص أشجار النخيل وعبق أشجار البرتقال، وكان شارعها الترابي الملتوي كالأفعى يمتد بالقرب من نهر الحسينية ليسير داخل مركز المتصرفية.

أضاء السائق المصابيح الصغيرة الداخلية المعلقة بالسقف، وبدأ السِكن إيقاظ الركاب بينما اجتمع بعض أصحاب عربات الدفع والسحب وأصحاب الربلات قرب السيارة، بقيت جالسا في مكاني بعد ان أيقظت زوجتي وولدينا من نومهما، بدأ الركاب بالنزول، بينما انقسم بعضهم بين منتظر في داخلها وبين من نزل ليستلم الأغراض. بعدها ترجلت من السيارة بينما بقيت زوجتي لتعطيني الأغراض المهمة والثمينة من شباكها، وقد رفضت حزمها مع الأغراض فوق سطح

السيارة، ألتف حولي بعض أصحاب العربات لكنني استأجرت ربلا وطلبت من الحوذي أن يضع الأغراض في المقعد الخلفي، وبعدها نزلت زوجتي وولدانا فركبوا في العربة بعد ان ركنوا الأغراض في الجهة اليسرى، ومن ثم طلبتُ من الحوذي استقبال أغراضي من السِكن الذي صعد فوق سطح السيارة وبدأ بفك الحبال التي كانت مثل شبكة صيد تمسك الأغراض دون السماح لها الطيران في الهواء بفعل المطبات والعكر والمسافة الطويلة التي قطعتها السيارة.

كان الحوذي بكرشه الكبير وعمره الخمسيني، وشاربه الأبيض المصفر من وسطه جراء دخان السجائر، ورائحته المضمخة، يسحب النفس بجهد، يرتدي أسمالا تثير الشفقة، فجراويته التي يلفها حول رأسه متهرئة الأطراف، وسترته المتهدلة الجيوب محكوكة عند كوعيه تدل على انها منذ زمن طويل لم تفارقه، ودشداشته الوسخة عند صدرها بعض الثقوب من شرارات السجائر، اما سير نعاله فقد أعيد خياطته لأكثر من مرة، وكأنه يلهث تحت قدميه.

أنطلق الحوذي بنا إلى مركز المتصرفية ليبحث لنا عن حجرة في خان كي نبيت ليلتنا، فقد كانت كربلاء القديمة والتي لا يتجاوز نفوسها الثلاثين ألف نسمة، هي عبارة عن مرقدي الإمامين الحسين والعباس وحائرهما وبعض المناطق البسيطة محاطة بسور كبير وعال وعند كل منطقة من المناطق توجد باب خشبية عملاقة مطعمة بمسامير سوداء على طول وعرض الباب لتعطيها قوة ومنعة، تغلق عند آذان المغرب وبعض الأحيان عند آذان العشاء ما يضطر المتأخر من أهل المدينة الرجوع إلى بستانه أو المبيت في عربته صيفا أو في أحد الخانات شتاءً.

بدأت سنابك الخيل تتراقص على ظهر الشارع وقد أضاء الحوذي فانوسي الربل الكيروسين، وأجراس الخيل تعزف ألحانها الرتيبة، شعرت بالارتياح بعد ان وجدت زوجتي وقد انفرجت سرائر وجهها وبدت تتطلع بالطريق بنوع من الارتياح ومثلها ولداي، الكبير يسع الذي ترجل من مكانه ووقف ما بيني والحوذي، ينظر إلى الطريق ويتجرع الهواء البارد بملء رئتيه ومن ثم سألني متى نصل إلى سكننا الجديد؟ عما قليل سنصل اجبته ومن ثم طلبت من الحوذي الذهاب بنا إلى خان نظيف وأمين، تقطنه العوائل المحترمة، بينما اكتفى دانيال بالنظر إلى الأمام.

لم يطل الطريق فسرعان ما وصلنا إلى خان الجندرمة الذي شاع فيما بعد تحت اسم خان الشرطة، والذي يقع عند رأس شارع العلقمي الذي يبعد أكثر من مائة متر عن صحن العباس، على بعد خمسين متر من باب السور، كان هذا الخان فيما سبق بمثابة وحدة عسكرية يتجمع فيه الجيش العثماني ومن ثم شرطة المتصرفية، يتكون الخان من أربعة طوابق خصص صاحبه الطابقين العلويين للعزاب، والطابقين الأرضيين للعوائل.

عندما وصل الربل إلى خان الشرطة ترجل الحوذي وتبعته، كانت باب الخان الخشبية مسمرة بمسامير نحاسية ومحززة بشرائح من الخشب المواربة، عندما دفعها الحوذي أصدرت مفاصلها صريرا مزعجا، دخلنا إلى الحُجْرَة القريبة من الباب، ووجدنا صاحب الخان أو من ينوب عنه ممددا على سريره خلف المنضدة المصنوعة من الصاج القديم، يعلوها سجل كبير مغلف بجلد أسود وقربه فانوس تتراقص داخل زجاجته النار مثل راقصة بالية لا تتقن حركاتها، نهض من سريره مرحبا بنا، سألته:

- هل توجد حجرة فارغة؟
- نعم في الطابق الثاني.
- أريدها في الطابق الأرضي، لأنه عندي صبيان وأخاف عليهما ان يقعا.
- سعرها مختلف.
- أريدها بالسعر نفسه.
- لا يمكن لأن سعر حجرة الطابق الأرضي أغلى من الطابق الأول.
- لكنني وجدت في الخان المجاور لكم، الأسعار متساوية بل وأقل منكم، ولكني استقربت المكان لقربه من باب السور، وشعرت بالارتياح أول ما دخلت للخان.
- لكل خان أسعاره وانت حر في السكن من عدمه.

عندها طلبت من الحوذي العودة بنا إلى الخان المجاور، كان ينظر بوجهي دون ان ينبس ببنت شفة وهو ساهما يتساءل مع نفسه عن أي خان اتكلم، عندما شعر صاحب المسافر خانة انني اهم بالخروج نزل عند طلبي وأعطاني حجرة في الطابق الأرضي، عندها سحبت الحوذي من يده وشكرته لأنه أكتفى بالصمت، وإلا كان أمري قد أفتضح، وطفقنا ننزل الأغراض إلى حيث الحُجْرَة التي سبقنا اليها صاحب الخان ليوقظ النار في المشعل الخارجي، بقيت ريم في العربة حتى آخر بقجة، بينما ركض كل من يسع ودانيال إلى الحُجْرَة لاحقين بي وحجز كل منهما سريره فرحا، بعدها دخلت ريم إلى الحُجْرَة وقد أنهكها الحرص والتعب ومثلها انا.

II

من داخل كربلاء

استيقظت متأخرا بعض الشيء عن موعد صحوتي، بينما بقي اولادي وزوجتي مستغرقين في النوم، استبدلت منامتي وخرجت من غير ان اوقظهم إلى باحة الخان الذي تتوسطه حنفيتان من خزان نحاسي بُنِيَ على حوض مستطيل، قرب بئر الخان المغلف بمشبك حديدي ودلوه المربوط بالحبل، جلست على الدكة ورحت انهل من ماء الصنبور واغسل به وجهي وانا اتطلع إلى المكان حتى رست عيناي على المراحيض فاتجهت نحوها، بدأت استشعر رائحة المكان، إذ لا زالت بقايا زيت السلاح ورائحة البارود تضوع فيه، كما كانت رائحة روث الخيول وبولها في أقصى الخان مستوطنة، رجعت إلى الصنبور لاغتسل مرة أخرى رفعت رأسي لاكتشف المكان، كان كل طابق يتكون من ليوان يتقدم الحُجْرَة على شكل قوس بني باحترافية عالية بحيث كانت أقواس الليوانات تشكل نسقا معماريا بجمالية رائعة وعند نهاية كل أيوان محجر حديدي على شكل أميال حديدية يتحلق حولها أوراد على شكل قلب الحب تلتف حول الميل، يغلف كل محجر بخشب جام مصقول وناعم، عند الطابق الرابع الذي يحيطه المحجر بشكل مستطيل نشرت ملابس

بعض مستأجري الغرف ممدودة على طوله، بينما كانت بعض أدوات الطبخ ظاهرة من خلف محجرات الطوابق الأخرى.

رجعت برأسي إلى فناء الخان رأيت في الجهة المقابلة لحجرة صاحب الخان، السلم الذي يؤدي إلى الطوابق العليا وكان محصورا بين الحُجْرَة الأولى وحائط الحُجْرَة من الجهة الثانية، لم اتوقف عند ذلك وانما اتجهت نحو باب الخان لأسلم على صاحبه الذي كان يحتسي الشاي خلف مكتبه الصاجي وانا في طريقي للخروج.

الحياة نشطة خارج الخان وعند بوابة السور، فعربات اصحاب البساتين التي تجرها الحمير البيض بالعموم بين داخلة وهي محملة بالفاكهة الطازجة وقد أفرغت سلالها وأكياسها، قررت الدخول إلى مركز المدينة، رأيت بعض النسوة يفترشن الأرض ببضاعتهن من الخضروات، وبعضهن يفترشن الأرض بالحليب والبيض وصينية القيمر والجبن، بعضهن كن يبعن الخبز، بينما كانت السلال والزنابيل التي تتربع الفاكهة وسطها تضوع في السوق فتعطر الجو بها، والتي لا زالت تحمل غبار الهواء وبعضها لا زال سرّته ناصعة البياض وقد قدت من أغصانها للتو.

وقفت أمام المسافرخانة اتطلع فيها، كانت عبارة عن بناية بسيطة في طرازها المعماري، هكذا هي أغلب الثكنات العسكرية في الألوية تحت الاحتلال العثماني، واجهة الخان مبنية بطابوق محلي مكحلة بالجص، وقد حفر المطر بعضه من الجهة اليسرى بينما بقيت الجهة اليمنى دون أثر للمطر ربما لأنه ينزل بصورة مائلة على البنايات، أما الشبابيك

بدرفاتها الخشبية فكانت عبارة عن وحدات متكررة ومتشابهة، بعضها كان المشبك الحديدي أو التور الذي يمنع الذباب والحشرات الأخرى قد مُزق إلى الخارج وبعضها خلع نهائيا بينما البعض الآخر على حاله وقد تحول إلى اللون الأسود فبدت بعض الشبابيك عوراء وبعضها مغلق بالتور وبعضها بين بين.

دخلت للمسافرخانة محملا بأكياس الكاغد المعبأة بالفاكهة والخبز واحمل بيدي الأخرى القيمر والجبن فوجدت يسع عند صنبور الماء، وعندما وصلت إلى الغرفة وجدت زوجتي قد استيقظت من نومها، تبسمت بوجهي وأخذت مني الأغراض ومن ثم بدأت بإخراجها وتوزيعها على كيس خيش مخطط بقلم أحمر وجدته في الحُجْرَة، لكنها طلبت مني أن آتيها بأبريق شاي كونها معتادة على تناول فطورها مع أستكان الشاي، عدت من جديد إلى صاحب الخان طالبا منه أبريق شاي فارغا كي املأه من أقرب قهوخانة، لكن صاحب الخان أخبرني ان شاي الصباح لهذا اليوم سيكون من ضيافته، ومن ثم صاح على صانعه طالبا منه إعداد أبريق الشاي لي وعائلتي.

أكلنا بشهية كبيرة، فقد نمنا دون عشاء وقد أنهكنا التعب، بينما أخذ يسع يتلمظ بثمرة فاكهة، شعر دانيال بشبع كبير، وفضل التراخي على سريره من جديد، أما ريم فكانت ترتشف الشاي وهي تتبحر بمستقبل عائلتها وكيف لها أن تبدأ من جديد، وأبنها الكبير على أبواب دخول المدرسة، بينما أبنها الآخر على أبواب الدخول إلى رياض الأطفال، خاصة واننا كيهود نهتم بموضوع الدراسة وباللغات الثلاثة ما يعطينا صفة التفوق والتكلم بأكثر من لغة.

طافت ريم بعينيها حيطان الحُجْرَة الجاردة السقف والمغلفة بالنايلون المزركش بالأوراد والمثبت بمسامير نحاسية ذات قبعات كبيرة، وزواياها التي استوطنتها بيوت العنكبوت، قرب باب الحُجْرَة كانت مرآة متوسطة الحجم محاطة بإطار خشبي ورف عند أسفلها وضعت عليه ريم مشطها وبعض أدوات تجميلها كانت المرآة عتيقة تساقط زئبقها فتعكس صورة مشوهة، ومن الجهة الثانية للمرآة يوجد شباك ذو درفات خشبية أربعة محكم الإغلاق يتراكم على زجاجه بعض النقاط السوداء من بقايا الذباب ويعلو نافذته المستطيلة العليا بعض الأوساخ.

اتفقت مع زوجتي على الخروج لأستكشف المدينة واعود لهم بالغداء، عدت من جديد إلى بوابة السوق وقد خف تزاحم عربات الفلاحين التي تسحبها حمير الحساوي، وبدأت حركة السوق نشطة في البيع والشراء، الفاكهة بمختلف أنواعها تطرز سلال البقالين الذين يفترشون الأرض وبعض واجهات الدكاكين، والسلال المغطاة بالحشائش الخضراء كفرشة ندية للفاكهة تترك لدى المشتري نوعا من الارتياح ان الفاكهة طازجة، التين والمشمش والبرقوق والخوخ.

توغلت أكثر في الأزقة الملتوية والمتعرجة، إذ لم يكن في المدينة القديمة شارع مستقيم، وانما أفرع وأزقة بعضها نهايته مغلقة، وبعضها يؤدي إلى زقاق أضيق، وكأن البيوت تربطها علاقة حميمية حتى يكاد يتكئ أحدهما على الآخر، وصلت إلى زقاق يكاد يكون مختصا بصناعة السلال الخاصة بالفواكه والخضروات، بعض الدكاكين مختصة ببيع أغصان الرمان والخيزران، وبعضها مختص ببيع أغصان الصفصاف والقصب والسنديان والخوص، بينما الدكاكين الأخرى

مختصة بتصنيعها وبأحجام مختلفة لأغراض وضع الفاكهة فيها، وكان بعضها معلقة بحبال نازلة من السقف على شكل سلال زينة بعد ان صبغت اغصانها بألوان مختلفة. بينما الدكاكين الأخرى مختصة ببيع أكياس التمن ـ الكواني ـ الفارغة، وكلمة التمن التي هي عراقية خالصة ولها رمزية الرفض والثورة للاحتلال البريطاني، لها قصة تعود إلى أيام الحرب العالمية الأولى عندما رفض أهل البصرة الوطنيون أن يمولوا قطعات الجيش البريطاني في البصرة بكميات من الرز تكفي لسد حاجة الجنوداً عندها كتب المارشال البريطاني إلى وزارة الدفاع في إنكلترا أن يزودوهم بالرز. وفعلا تم ارسال كميات كبيرة من الرز الفاخر المسمى بسمتي معبأ في اكياس (كونية) يتوسطها خط احمر مرسوم عليه شكل كارتوني لعشرة رجال يمسك احدهم بيد الأخر وكتب تحت الرسم (Ten Men) كان الجندي الانكليزي يقول للحمال العراقي عندما يطلب تفريغ الحمولة من الباخرة (Come on bring Ten Men) وكانت لغته مدمجة فتقع بأذن العراقي (تمن) فظن العراقي ان هذه الكلمة معناها رز ومنذ ذلك اليوم وجميع العراقيين اصبحوا يطلقون اسم الـ(تمن) على الرز.

تتجاذبني الحيرة والأسئلة، ما المجهول؟ هذا السؤال يرافقني وانا اتجول وسط الأسواق وقرب الخانات، ربما هو عكس المعلوم الذي كان مجهولا وأصبح معلوما، ربما هو أسطورة تقشرت أطرافها وأنكشف أمرها، ربما المجهول هو الحقيقة التي لم تنكشف بعد، ومتى ما انكشفت اصبحت من يوميات الحياة الاعتيادية، واذا لم تنكشف بعد كانت من الأساطير القديمة الغارقة بالخوف والاشتياق، أو بالتفاؤل

والرفض، ما هو المجهول؟ ربما كان الإنسان مجبولا على المغامرة والاكتشاف، ومتى ما تكشف له المجهول وأصبح من انماط الحياة رفضه، ليبحث من جديد عن كل ما هو مجهول، هل أنا من هذا النوع الذي أبحث عن كل ما هو مجهول؟ ومتى ما تكشف لي أمرها تحولتُ إلى مجهول جديد، أو ان من أسباب هجرتي إلى متصرفية كربلاء هو البحث عن الطمأنينة والأمان وسط ناس لا يحلمون بغير هذا المكان بلدا لهم، وحتى ان حلموا بآخر لم يكن سوى مكان غيبي أسمه الجنة الذي تشترك به كل الأديان السماوية.

أي عبث هذا الذي أعيشه؟ هل أكون بخطوتي هذه قد جنيت على عائلتي وبالخصوص ولديَّ يسع ودانيال، وكيف لهما أن يعيشا وسط واقع جديد في مدينة لم تكن يوما اعتيادية بل غارقة بالقدسية والقدم، مدينة لم تفارقها الأحداث والنوائب يوما، ولم تغب عن بال المسلمين، فهي مرتع للتكفير عن خطيئتهم الكبرى، مدينة تطوقها أكف الدين من كل جانب، يقصدها القاصي قبل الداني.

عدت أدراجي من جديد إلى المسافرخانة، محملا بالغداء والفاكهة، وبعد قيلولة مضطربة عدت من جديد للخروج إلى المدينة، وهذه المرّة دخلت إلى سوق جديدة تدعى سوق الدباغين، وقد سبقت رائحة الجلود مدخل السوق، وأكياس وأكوام الملح تتقدم الدكاكين والحوانيت، بينما تتراكم جلود الخرفان والماعز والأبقار كل حسب نوعه، وكان الأسطوات وحسب نوع عمله يلبس الجراوية ويحتزم بحزام يعلق طرف ثوبه عند جانبه الأيمن، بينما يقوم الصبيان بدبغ الجلد وتهيئته للأسطوات لعمله على شكل حزام أو نعال أو سرج للخيول وما تقتضيه الحاجة، وبعضها

يدبغ بصوفه ويفرش في مضيف استقبال الشيوخ والوجهاء، بينما يجمع في أقصى المكان وعلى جنب أكوام الصوف والوبر تعلو.

عند صلاة العشاء تتزاحم الجموع قرب باب السور الكبيرة المصنوعة من الخشب وترسم على وجهها المسامير النحاسية التي أصبحت صدئة سوداء بمزاليجها الحديدة الضخمة، والخشب المتقاطع في ظهرها لتقويتها على شكل علامة أكس، أما السور الذي يتراوح ارتفاعه من ثلاثة امتار إلى خمسة، فيحيط بالمرقدين والأحياء السكنية المحيطة بهما. أما عرضه فيتجاوز المتر، بحيث يتيح للحراس المشي عليه دون خوف، وأضواء المشاعل على مسافات متقاربة لتترك أكبر مساحة من الضوء.

استمررت على هذا الحال لمدة أسبوع وانا في كل يوم اخرج إلى المدينة القديمة استطلع أسواقها، وفي الوقت نفسه ابحث عن بيت للإيجار، عرجت على أسواق بيع الأقمشة والأحجار الكريمة والعطور، كما عرجت على الأسواق التي تزدهر بالصناعات البدائية مثل صناعة الأواني النحاسية ونسج الأقمشة، مررت على خانات الطعام من الحنطة والشعير، كانت المدينة تعج بالعمال والأسطوات والصناع، وهم يشتغلون أما بالأجور اليومية أو على القطعة، كما تعج بالحمالين والمكادية من النساء والرجال والصبية والحوذية وعربات الدفع والربلات، حصلت على بيت إيجار في منطقة وسط المدينة ما بين الامامين تسمى باب النجف، والتي تزدهر فيها الخانات وتسمى أيضا (العلاوي) لكثرتها والتي تستقبل التمور والحنطة والشعير من أرياف كربلاء والأقضية التابعة لها.

III

بين الأقمشة والصياغة

احكمت القفل الحديدي على المزلاج الخارجي لباب الحُجْرَة، وأخذت زوجتي ريم وأولادي إلى البيت الذي استأجرته لتعطي رأيها النهائي بالقبول أو الرفض، لم تشعر ريم بأي نوع من الاغتراب وهي تسير وسط المدينة المزدحمة والتي يقصدها كثير من فئات المسلمين من مختلف الدول الإسلامية وبالخصوص إيران وباكستان وافغانستان والهند، وكان ذلك ينعكس جليا من خلال أزيائهم وبالخصوص القبعات الصوفية الأفغانية، كما كانت المدينة تغص برجال الدين بلباسهم التقليدي من العمامة والجبة والعباءة الخفيفة ويحتذون في اقدامهم المداس أو البابوج، ويعتمرون على رؤوسهم الكشيدة لمن يعمل في المرقدين، والعمامة السوداء للسادة الهاشميين، والعمامة البيضاء للشيوخ، أما عوام الناس من الميسورين فيرتدون الزي العربي المكون من ثوب طويل فوقه الصاية يتوسطها حزام مصنوع من الجلد أو المطاط أو القماش ومن ثم العباءة ويلبسون على رؤوسهم الكوفية والعقال العادي أو المقصب، وأما البسطاء والفقراء فيكتفون بالدشداشة والجاكيت ويلفون رؤوسهم بالجراوية وهم في العموم مهمومون بلقمة العيش والتي تنعكس جليا على أزيائهم غير المرتبة والبالية.

اما النساء فتلبس العباءة الصوفية والتي تصنع محليا ويضعن على رؤوسهن غطاءا كل حسب عمرها، منها ما يعرف بالشال أو الفوطة، بعضهن يغطين وجوههن بالحجاب أو البوشي ويرتدين بأقدامهن جوارب خاصة تسمى بالمَحَس، وهو بالعموم خاص بالعجم بينما كانت النساء العربيات من الكربلائيات يكتفين بالعباءة والكبيرات منهن يلبسن الشيلة كغطاء للرأس وجوارب عادية.

اثناء مسيرتي وعائلتي باتجاه باب النجف كانت بعض النعوش المحمولة على أكتاف أهل الميت يتقدمهم الناعي الذي يكبّر باسم الله ملفتة للانتباه، وعندما دخلنا إلى منطقة العلاوي وجدنا كثير من السيارات المحملة بالطعام من الحنطة والشعير والحبوب الأخرى تركن أمام الخانات على طول الطريق بمختلف ماركاتها العالمية ومنها سيارات انديانا والدوج والدزته، شعرت ريم بالحياة، عندما وجدت المجتمع الكربلائي يتمتع بحركة نشطة، لم يكن البيت يبعد كثيرا عن الشارع الرئيس.

أشرت لزوجتي على البيت أو بيت الطارمة كما يسمى، يحتوي من الخارج على نافذتين عاليتين يتوسطهما باب البيت الخشبي بمصراعين مغلفة بالصاج ومنقوش عليها ما يشبه الوردة بأوراقها الخمسة بشكل دقيق، تتوسطها ألواح خشبية متينة تثبت إلى بعضها بواسطة قطع خشبية رابطة تثبت عرضيا في الجبهة الداخلية بالمسامير على شكل صليبين الواحد فوق الآخر على امتداد طول الباب من وسطها، لتعطي متانة لها من الخارج، يتوسط المصراع الأيمن مدق على شكل رأس طاووس، يعلو الباب رأس ماعز بري مزود بعيون زجاجية زرقاء اللون، أما الطابق

العلوي فيحتوي على بروزات كثيرة مكللة بالنوافذ الملونة ومشكلة بما يسمى بالشناشيل.

عندما فتحت الباب، دخلت ريم وسبقها يسع ودانيال إلى الداخل راكضين، كان البيت منقسم إلى قسمين: السلامليك للضيوف والزوار، والحرم الخاص بأفراد العائلة، يتوسط الحوش حوض ثماني الأضلاع تغسل فيه الملابس وأدوات المطبخ والطعام وغيرها من أغراض البيت، في أقصى اليسار توجد البئر الذي تغطي فوهته مشبك خشبي يعلو عن الأرض بحدود النصف متر مغلق من جهات ثلاثة أما الجهة الرابعة فيستخرج عن طريقها الماء حيث يوجد قضبان حديدي ودلو تعلوه بكرة يلتف حولها حبل. ويوجد قربها زيران فخاريان موضوعان في منطقة ظليلة على قاعدة خشبية ترفعهما عن الأرض لتتوسط أسفل كل منهما طاسة من الفافون.احدهما ممتلئ والآخر في نهايته وفي أقصى اليمين يوجد المرحاض الذي تبعث منه رائحة عطنة كونه قليل الاستعمال وفيه ابريق نحاسي، ومن ثم الحمام وقربهما التنور وقربه بعض الحطب من السعف.

في أقصى بيت الطارمة كان الليوان يتوسط الغرفتين، واجهته مفتوحة قوسية الشكل، وعند صعود الدرج إلى الطابق الثاني كانت الطارمة التي تتقدم الغرف والطالار يتوسط الغرفتين تتقدمه الأعمدة، وعندما تدور حول الطارمة إلى مقدمة البيت التي تبرز باتجاه الشارع مارا بدرابزين خشبي والذي تتخلله عرانيص مثبتة من الأسفل بممسك خشبي بازي، ومن الأعلى معشقة بقطع خشبية مبرومة، تصل إلى الحُجْرَة الوسطى وتسمى (أورسي) تحتوي على شباك منزلق باتجاه الطارمة، ومن الجهة

الثانية المطلة على الشارع تكون فيه قطعة جدارية على جانبي النافذة تفتح فيها الأبواب ذات الدرفتين، أما الغرفتان التي يتوسطها الأرسي فهما يمتلكان شباكا منزلقا أو شناشيل، وهذه الكلمة المشتقة من (شاه نشين) والتي تعني مقر الملك. يتخلل حُجرة الأرسي (الكبشكان) وهو طابق نصفي يمكن الوصول إليه عن طريق سلم في الجدار الخلفي للإيوانجي وهو ممر عازل أو مسلك بين الغرف المجاورة ويغطى من جهة الطارمة بنوافذ جارورية أو شبكية، والكبشكان مكان لوضع الأحذية لأن الكلمة من أصل فارسي فمفردة كفش تعني حذاء، كما ويستعمل في الأفراح بعد فتح كبشكانات الغرف بواسطة شبابيك جارورية لكي تستطيع النساء في الحرم أو الأرسي المشاركة في الاحتفال دون ان يراهن أحد، كما ويمكن أن يستعمل كغرف صغيرة لنوم الأولاد.

عند نزول عائلتي من الدرج الفرعي المؤدي إلى أرضية البيت والقريب من حُجرة السلامليك، سمعت طرقا على الباب، وقد كنت على اتفاق مسبق مع صاحب البيت الذي جعله خاصا بالزيارات في مواسم احتفالات محرم وصفر وشعبان، وأكبر صادقي ايراني الجنسية، قصير القامة، وجهه مستطيل زحف الصلع إلى أقصى رأسه حتى بانت عروق صدغيه وتحيط به ذؤابات شعر وخطها الشيب، شاربه كثيف تتخلله بعض الشعرات البيض، يرتدي بدلة زرقاء غامقة وقميصا بياقة دون ربطة عنق، طلبت منه الدخول إلى حُجرة السلامليك وجاءت زوجتي لتسلم عليه ومن ثم جلست على مقربة مني، سألني أكبر صادقي وزوجتي:

- هل أعجبكم البيت؟

صمت منتظرا زوجتي ان ترد عليه، فالبيت للزوجة وهي ملكته، فردت بالقول:

- نعم.
- الحمد لله، ولكن أود أن تعرفي شرطي الذي شرطته على زوجك.
- تفضل.
- أنني وعالتي نأتي في شهر محرم لأكثر من شهر من مقتل الحسين وحتى أربعينيته من شهر صفر، وسأستغل حُجرة السلامليك فقط مع منافع البيت وان رفضتما شرطي فأنني مضطر لتركه فارغا ولن أؤجره.

نظرت ريم لي بعين غاضبة، كوني لم افتح معها موضوع الشرط الذي وضعه صاحب البيت، ولكن البيت قد أعجبها جدا، واصبحت بين نار ترك البيت والبحث عن آخر، وقد ملّت الطعام السفري وعدم الاطمئنان في الخان الذي يضم أناسا من أشكال وألوان وأقطار مختلفة، ونار قبول شرط صاحب البيت. ولكن عندما وجد صاحب البيت ان زوجتي ساهية تفكر في شرطه أعقب كلامه بالقول:

- وتعد هذه الفترة مجانا لكم، كوننا سنزاحمكم في البيت.

تبسمت ريم عندما وجدت ان صاحب البيت قد ابحر في صمتها، واكتشف انها مترددة بين القبول أو الرفض. ومن ثم تبع كلامه:

- كما انني سأترك لكم التأثيث البسيط للبيت تستخدمونه بما يرضيكم، والأغراض التي لا تعجبكم يمكنكم ان تجمعوها في الحُجْرَة العلوية، حتى أعود في المرة المقبلة وأبيعها في سوق هرج.

كانت تنازلات أكبر صادقي مغرية، لم تدع لريم أية حجة في الرفض،

وعندها وافقت دون ان تظهر علامات الرضا على وجهها، وأرادت مفاوضته على سعر الإيجار فسألته:

- ولكن النقطة الرئيسة التي لم تضعها في عين الاعتبار هو قيمة الإيجار المرتفعة، وارجو ان تتم فضلك بأن تخفض السعر.

غشي الحياء وجه أكبر صادقي، وبالخصوص ان الشعب الإيراني للمرأة سطوة فيه أكبر على الرجل، فلم يطل جدالها، وكان لها ما أرادت. وهكذا تم الاتفاق، فأخرجت من جيبي محفظتي الجلدية وسلمته قيمة الإيجار بعد ان طلبت منه التوقيع على عقد الإيجار الذي جهزته من قبل. فسلمني أكبر صادقي نسخة المفتاح الثانية واستأذن بالخروج، بينما اعتذرت منه لأنني لم احسن ضيافته لعدم استعدادنا أو معرفة زوجتي بأغراض الشاي أو صحون الفاكهة، لكنه تبسم بوجهي لعلمه ذلك، ثم ودعنا على أمل اللقاء في موسم محرم القادم.

أغلقت الباب خلفه، سحبت زوجتي الشال من على رأسها فاتحة ذراعيها وملتفة راقصة حول نفسها فرحة ومن ثم هرعت نحوي وحضنتني مقبلة خدّيّ امتنانا وتعبيرا عن سعادتها بالبيت الجديد الذي تمنت لو كان مُلكها أو يمكنهما شراؤه، فموقعه في وسط السوق بمعنى قمة الأمان لهم في كوننا أغرابا، والغريب أول شيء يبحث عنه هو الأمان.

يحتوي البيت على فراش بسيط في حجرتي السلامليك والحرم، كما يحتوي على بعض الأغراض البسيطة الخاصة بالطبخ، وبعض الأحذية المتروكة وسطل زبالة مملوء بأكياس الكاغد وبعض الأوساخ.

طلبت زوجتي مني الذهاب بسرعة إلى المسافرخانة، لنعود بأغراضنا

إلى بيتنا الجديد الذي يحتاج إلى تنظيف، ذهبنا جميعا إلى الخان واستأجرنا عربة سحب ونقلنا أغراضنا إلى بيتنا الجديد، وفي الطريق طلبت ريم مني ان نشتري فرشا جديدا للجلوس وللنوم، لأنها كانت مرغمة من قبل النوم على أسرة قديمة بالرغم من أنها غلفتها بملاءات جديدة، وان ما فيه يؤدي الغرض مؤقتا.

كانت زوجتي تحب المرايا بشكل مثير للانتباه ولذلك طلبت مني أن اشتري لها خمس مرايا بأحجام مختلفة ومحاطة بإطارات مختلفة، وعندما عدت بها طلبت مني هذه المرة شراء صندقجة لخزن الأكل، وكنت كلما اعود ترسلني بطلب جديد، حتى إذا ما حلَّ المغرب وقد عدت لاهثا تذكرت انني داخل أسوار المدينة وانه لا باب تغلق لتمنعني من الدخول أو الخروج خررتُ على الأرض تعبا ضاحكا.

قررت ريم ان تعيش ليلتها معي بعد أسبوع من الارتباك والخوف غير الظاهر ومزاحمة الأولاد لها في الحُجْرَة، أول شيء عملته هو سخنت الماء قليلا بعد ان وجدته باردا بعد ان سحبته من البئر، ومن ثم غسلت لولديها واتمت غسلها وتبعتها، ذهبت بولدينا إلى حُجرة السلامليك وفرشت لهم الفرش الجديدة وغطتهما بملاءات جديدة، ومن ثم جلست أمام المرآة التي علقتها في حُجرة الحرم لتلبس حلتها، فريم امرأة ثلاثينية العمر، ومن ثم ارتدت ملابس مغرية ومثيرة، تكشف عن صدرها الذي ظمأه الشوق، ونهدان رفضا البقاء ساكنين فنفرا من محجريهما، انساب شعرها الكستنائي على ظهرها وبعض خصلاته على كتفيها وصدرها، بينما أعادت صبغ أظافرها بمنيكير وردي يشبه روج شفتيها، ومن ثم أعادت تكحيل عينيها بكحل أسود تجاوز جفنيها إلى خارجهما حتى

بدت كبنات الليل، نظرت لي بنظرة جنسية شبقة تطلبني للفراش وكانت تضوع برائحة عطر جنسية كأنها زهرة تفوح في اوج الربيع.

عدت سيرتي الأولى اخرج إلى وسط الأسواق والخانات، ادرس ما يمكن أن ينفعني من المهن، بحثت عن سوق الصاغة، ووجدته في أحد الأزقة القريبة من الإمام الحسين، كانت عارضاتهم الزجاجية فقيرة بالذهب، وبعضها قد اختص ببيع الفضة والبلاتين، كانت شرائح خشب الصاج التي تتقدم العارضات باهتة اللون وقد غادر رونقها، والقناديل التي تعمل على الشحم والزيت قد أصابها الشيخوخة، لكنني فضلت التريث في البحث في هذه السوق عن دكان، وانقلبت إلى الأسواق الأخرى، استمريت على هذا الحال لأكثر من شهر، حتى تناهى إلى سمعي ان بعض اليهود يسكنون المدينة وان لهم سوقا خاصة بهم، وكنت اتصور انني الوحيد من يقطن هذه المدينة ذات الرمزية الإسلامية العالية، كما علمت ان بعض المسيحيين يسكنونها أيضا.

وجدت ان مهنة بيع الأقمشة هي أفضل المهن التي يمكن ان اعمل فيها مؤقتا وكنت من قبل قد عملت بها ولي خبرة متوسطة فيها حتى اعود إلى مهنتي الأصلية كصائغ ذهب، وبدأت التقي عند بعض أصحاب دكاكين الجملة والمفرد، واسأل عن دكان للإيجار أو البيع، عرض عليّ بعض التجار ان يعطوني قماشا لأطوف به وسط الأزقة لأبيعه على الأهالي لكنني رفضت، ومن ثم بدأت التقي في مقهى قريبة من السوق وقد أشعت في السوق انني ابحث عن دكان للإيجار أو البيع.

فكرت ان اذهب إلى خارج سور المدينة عسى ان اجد لي دكانا، في

منطقة العباسية التي تفاجأت بشوارعها المستقيمة الواسعة والمتعامدة وطراز عمارتها الهندسي البديع، هذه المنطقة التي استحدثها الوالي مدحت باشا بعد زيارته لكربلاء، بعد تجاوله في المدينة فوجدها صغيرة وشوارعها ضيقة ومزدحمة بالزائرين، فأمر بإعادة تصميم المدينة وهدم قسم من سورها من الجهة الجنوبية الغربية، وتوسيع المدينة بإضافة محلة جديدة حملت اسم العباسية وقد قسمت إلى شرقية وغربية، ومن ثم أمر الوالي بتوزيع الدور على أهالي المدينة وكذلك أمر بإنشاء سوق في العباسية الشرقية وتشييد خان عند مدخل العباسية الغربية. لكنني وجدتها سكنية أكثر من كونها تجارية، ولذلك عدت إلى بيتي مخذولا بعد ان طال انتظاري لأكثر من شهرين دون ان احقق رغبتي في إيجاد دكان يلبي رغبتي في العمل.

كنت اخرج بعد الظهر ولا اعود حتى تودع الشمس نهارها كانت الكلاب السائبة تملأ مركز المدينة، وبالخصوص قرب أماكن رمي الفضلات، وفي الليل تدخل في معارك شرسة مع بعضها فيتصاعد صوت النباح مزمجرا، في احدى المرات شهدت معركة شرسة لمجموعة من الكلاب، بعضها كانت تصر على أسنانها فترتجف شواربها بينما أسنانها القواطع تنكشف بعد ان تنسحب براطمها للخلف، تقف أذانها منتصبة كأنها صحون رادار لينتصب شعرها على طول ظهرها، بينما أذنابها تهتز تحذيرا، بعض الأحيان تدخل في معارك فرعية مع كلب تائه دخل المنطقة بالغلط، الكلاب المهزومة تنوص منسحبة مهزومة من عدم تكافؤ المعركة، بينما المنتصرة تلهث زافرة أنفاسها وألسنتها متدلية.

في أحد الأيام وأنا جالس في قهوخانة صغير من سوق التجار لبيع

الأقمشة، وإذا بصاحب دكان يرسل بطلبي عن طريق صبيها، وعندما ذهبت إليه، سألني:

- هل لا زالت عندك رغبة في الحصول على دكان لبيع القماش؟
- نعم، بل أنني يئست من ذلك.
- عندي رغبة في تحويل عملي إلى شورجة بغداد، فأن ساعدتني في الحصول على دكان هناك بوصفك من أهالي بغداد ويهودي، وأعلم ان اليهود هم من يمسكون زمام العمل هناك فأنني سأترك لك دكاني هذا مقابل حصولي على مثله هناك.
- لا بد من الذهاب إلى الشورجة اولا وأسأل ان كان بإمكاني ذلك وأعود لأخبرك، لأنني لا أريد أن أغشك، بل أريد أن أبدأ بداية صحيحة في هذه المدينة.
- لك أسبوع، أذهب إلى شورجة بغداد وعد لي بالأخبار، وسأكون بانتظارك.

عدت إلى بيتي فرحا، وأنا احمل أكياس الفاكهة والخضروات، وكنت من قبل قد أتممت تجهيز البيت بكل ما ينقصه، اخبرت زوجتي بما دار بيني وبين تاجر القماش الذي يود تحويل عمله إلى بغداد، وكان موقع دكانه يتوسط السوق وفيه ضلفتان، وله عمق جيد بما يجعله مخزنا ودكانا لبيع المفرد والجملة كذلك.

شجعتني ريم على الذهاب مسرعا إلى أقاربي وأصدقائي من الذين يعملون في الشورجة على أمل الحصول على دكان من أجل اتمام عملية التبادل وان وجد فرق هو من يدفعه، بت ليلتي قلقا احسب الحسابات وتعصف به الظنون.

بدأ الصباح يتعالى من أقصى الأرض شيئا فشيئا، وكانت الشاحنات المرهقة تئن بأحمالها تقف امام العلاوي تنتظر اصحابها، بينما تجمّع الحمالون قرب كل شاحنة، والنساء يضعن على رؤوسهن صينية فوقها معجنة مملوءة بالفاكهة. وأشعة الشمس تخترق الثقوب في مظلات العلاوي على طول السوق مثل اوتار العود لتعزف ألوان من قوس القزح في صباحات المدينة الهادئة والعاملة مثل مستعمرة دبابير. توجهت إلى كراج السيارات ووجدت ان سيارة الباص لم تستوف بعد ركابها، عدت إلى البيت وانتظرت حتى العصر ودفعت أجرة راكبين من أجل أن تنطلق السيارة، وكان لي ما أردت، احسست ان الطريق طالت أكثر من المرة السابقة، ذهبت إلى السائق وطلبت منه زيادة السرعة، وعدت إلى مقعدي الخشبي المنجد بالجلد ومثله مسنده، بينما غط بعض الركاب بالنوم بقيت أفكر بالأمر واقلبه يمينا ويسارا، لم ابدِ لهفتي أمام صاحب الدكان لكني في داخلي كنت اتحرق للحصول عليه، الذي سيكتب تاريخي من جديد، كوني سأشتريه بزبائنه وعلاقاته، وبدل من أن اؤسس من جديد في كل شيء، سأحصل على كل ذلك جاهزا، بمعنى انه بمجرد ان امسك الدكان فأن الأرباح ستدر علي في اليوم نفسه.

IV

الشورجة واليهود

وصلت متأخرا إلى بيت عمي، الذين التقوني بالترحاب والأحضان، وظن الجميع ان هناك حادثا مؤسفا وخطبا كبيرا أصاب عائلتي كوني عدت من غيرهم، لكني طمأنتهم بأن وضعهم جيد بعد ان قرأت وجوههم التي كانت تشبه علامات الاستفهام دون أن تنطق، ومن ثم قصصّت عليهم السبب من وراء عودتي، فأخبرني ابن عمي ان هناك بعض الدكاكين التي أوكلت إدارتها إلى بعض يهود السوق لأن أصحابها قد هاجروا إلى إسرائيل وانه من الممكن الحصول على احداها، ولكن بدل من أن تجده للقمّاش الكربلائي، من الأولى ان تعود بعائلتك إلى بغداد وسط أهلك وتحصل انت عليه لتباشر عمل بيع وشراء القماش ان أردت، لكنني رفضت عرضه ومن أنني مرتاح في مدينة كربلاء لما وجدته في أهلها من المحبة والترحاب، بل وبدأت اشرح لهم كيف أنها متصرفية متسامح ففيها يعيش خليط من شتى الجنسيات وان تشابهت عقيدتهم الإسلامية، وان بعض اليهود والمسيح يعيشون فيها دون أية مضايقة.

تناولت عشاءً خفيفا، واستأذنتهم في النوم لأن الرحلة قد سببت

لي التعب الشديد، والصحيح هو القلق الذي زحف إلى ذهني وخوفي من عدم حصولي على الدكان قد يطيح بأحلامي، ولكن ما ان أخبرني بنيامين بوجود بعض الدكاكين حتى شعرت بالطمأنينة فصعدت حاجتي إلى النوم وغلب سلطانها على باقي الحواس.

كان تجار شورجة الأقمشة على عكس التجار الآخرين يفتحون أبواب دكاكينهم ومخازنهم مبكرين، فهم يتعاملون مع تجار المتصرفية والأقضية الذين يبيتون يومهم في الخانات القريبة ويبكرون في الشراء من أجل توفير وقت النقل ورجوعهم إلى محال سكناهم، وكان تجار الأقمشة القطنية والصوفية والحريرية أغلبهم من اليهود.

أثناء سيري مع ابن عمي بنيامين إلى شورجة الأقمشة، سألته عن سبب هجرة اليهود إلى اسرائيل، والعراق بلدهم منذ آلاف السنين وان اختلفوا مع المسلمين بالدين، في الوقت الذي لم يفكر المسيحون بالهجرة إلى اوروبا ومثلهم الصابئة أو أي مكون آخر من مكونات المجتمع العراقي، رد عليّ بنيامين بامتعاض بالقول:

- لا بد ان تعرف انني مع الهجرة، وعندما أحسم أمري وأقضي على التردد داخلي فسأهاجر إلى بلدي الأم...

قاطعته قبل ان يتم كلامه.

- بلدنا هو العراق منذ آلاف السنين هو أبونا وأمنا.

لكن بنيامين رد بصوت عال:

- بل اسرائيل هي بلدنا، ولا بلد غيره يجمعنا.

لكنني رددت بصوت عال وحازم.

- بل العراق ولا بد ان تعرف اننا عرب قبل ان نكون يهودا، والمسلمون أولاد عمومتنا قبل ان يصبحوا مسلمين.

توقف بنيامين عن المسير، ونظر بوجهي وتبحر في عيوني وسألني.

- هل تحولت من ديانتك اليهودية إلى الإسلام؟

ضحكت هازئا وقلت:

- أنا مخلص لديانتي أكثر من أي يهودي.

أعاد بنيامين سؤاله بطريقة استفهامية:

- إذا لماذا تدافع عن المسلمين والإسلام؟
- بل أدافع عن بلدي العراق وأدافع عن أبناء عمومتي وشعبي بمختلف طوائفه.
- العراق ليس بلدنا بل جئنا له أسرى مرغمين منذ السبي البابلي؟
- لكن كورش ترك لأجدادنا حرية البقاء أو العودة إلى فلسطين، وأختار بعضهم الرحيل، بينما فضل أجدادنا البقاء وها نحن بعد أكثر من ألفين وخمسمائة عام في هذا البلد معززون مكرمون... ألا تكفي هذه المدة لنكون عراقيين؟
- الحنين إلى بلدنا الأم والحلم لنمارس طقوسنا وديننا بحرية هو الغاية والمبتغى.
- وهل منعنا أحد هنا من ممارسة طقوسنا وديننا، عبادتنا بصورة عامة؟
- لا أضمن الظروف... فالعراق مقبل على تحولات كبيرة.
- ماذا تقصد؟

- سأكون معك واضحا وموضوعيا، لأنني لا أخفيك شعوري الوطني المنقسم بين العراق البلد الذي ولدت وترعرعت فيه وبين بلدي الحلم.
- فسر ماذا تريد قوله؟
- منذ وعد بلفور، وهناك عداء خفي لدى العراقيين المسلمين اتجاهنا نحن اليهود، عداء أحسه في عيونهم وتصرفاتهم.
- لكنني لم أشعر بهذا الشعور منهم، بل أنني أعيش أكثر من ثلاثة أشهر في أقدس مدينة اسلامية ولم يظهر هذا الشعور عندهم اتجاهي، لماذا لا تقول الحقيقة.
- وما هي الحقيقة في نظرك؟
- هناء وأهلها الذين رفضوا زواجك منها، إلا بشرط ان تتحول إلى الديانة الإسلامية، او تصرف نظر عن الارتباط بها.
- ربما هو أحد الأسباب، وليس السبب الرئيس.
- وهناك سبب آخر.
- وما هو؟
- جمعية الاتحاد الإسرائيلي أو مدارس الأليانس كما يطلق عليها هي من تغذي هذا الشعور عند اليهود العراقيين بالحنين إلى أرض الميعاد وتدعوهم إلى الهجرة.

كان عددنا مطلع القرن العشرين في العراق دون التسعين ألف نسمة بقليل توزعنا على جغرافية وتاريخ العراق دون تمييز، ولكن أكثر اليهود تركزوا في بغداد والموصل والبصرة، وكانوا يمثلون نسغ العراق الاقتصادي والمالي والتجاري، كما كان لهم دور مهم في سياسة العراق

منذ عهد الاحتلال العثماني وحتى الاحتلال البريطاني وانتدابه حتى وصوله إلى مملكة مستقلة فيما بعد.

لكن هذه الصفة لم تكن لتميزنا، بل ان ما يميزنا هو مدارسنا الخاصة التي تسمى بالأليانس والتي لعبت دورا كبيرا في تعليم اللغة الفرنسية والإنكليزية والعبرية كما تعلمنا العلوم التجارية وأصول المحاسبة، كانت هذه المدارس تتألف من ثلاثة أقسام، يدرس القسم الأول التلمود، أما القسم الثاني فيدرس التوراة، بينما اهتم القسم الثالث باللغة العبرية، وكانت كل هذه المواد الدراسية تهدف إلى احياء حلم العودة إلى فلسطين أو أرض الميعاد.

منذ تأسيس جمعية الاتحاد والتي سعت في البداية على الإنفاق على المدرسة التي تؤسسها ثم تلقي بعد ذلك بتبعية النفقات على عاتق الطائفة اليهودية بصورة تدريجية، ثم تزداد مساهمة الطائفة في تمويل هذه المدارس سنة بعد أخرى إلى ان تشمل القسم الأعظم من نفقات المدرسة، كان العبء الأكبر في تقديم المساعدات المالية لهذه المدارس على عاتق المجلس الجسماني للطائفة الذي يشرف على ادارة وتمويل هذه المدارس، وصولا إلى طمع القائمين عليها في ان تقدم لهم الحكومة المساعدات المقررة للمدارس الأهلية.

لقد لعبت المدارس اليهودية في العراق، خلال الفترة الماضية، دورا كبيرا في تخريج دفعات من الشباب اليهود المتمرسين بمعرفة اللغات الأجنبية والدراسات التجارية والعلوم الاجتماعية والفنون المختلفة، وأمن بعضهم مواصلة دراساته العليا في الجامعات الاوربية والامريكية،

حتى إذا ما عاد بعضهم إلى إسرائيل احتلوا مراكز مرموقة، أما من عاد إلى المملكة العراقية فكان أيضا يتبوأ أماكن مهمة.

لم اشعر وبنيامين بطول الطريق من منطقة باب الأغا وحتى شورجة القماش ونحن نتجاذب أطراف الحديث بين شد ورخو، عندما وصلنا إلى دكان منشي خضوري انهينا موضوع نقاشنا، وتبسمنا بوجهه ونحن نتجه للسلام عليه، الذي قام بدوره من خلف منضدته مرحبا، جلسنا متقابلين امام المنضدة الخشبية التي تغلفها زجاجة على طولها، على يمينها توجد سجلات ضخمة مغلفة بالجلد وبألوان مختلفة، الأحمر للديون والأسود للخارج والجوزي للداخل، ومنشي افندي رجل ستيني يرتدي العقال والكوفية، كما يرتدي الصاية التي يتوسطها حزام جلد جوزي اللون، وجهه دائري، عيناه كحيلتان من الولادة، له شارب مهذب وخفيف، يدخن النرجيلة، قليل الكلام إلا بما ينفع، عندما اتم بنيامين شايه، وقد طاف بنظره في المكان، رأى خلف رأس منشي افندي صورة لوالده بالأبيض والأسود، يحيطها أطار جوزي غامق، وعلى يمينها صورة للمرقدين الكاظمين، وعلى يسارها لكفّة وسط دجلة يرمي صاحبها بشبكة صيد، سأله منشي افندي أية خدمة من الممكن أن يقدمها لنا، عندها بدأ بنيامين حديثه:

- أقدم لك أبن عمي يعقوب شكر الله.
- أتشرف به.
- يعقوب واقع في مأزق ويحتاج مساعدتك.
- ان كان باستطاعتي فانا بالخدمة.
- يعقوب لم تعجبه الحياة في بغداد، فهاجر إلى متصرفية كربلاء.

خالط السيد منشي شعور هو مزيج ما بين الضحك والتعجب، فأعاد كلام بنيامين...

- الى كربلاء؟ لقد سمعت عن وجود بعض اليهود فيها، ولكن هل تستحق هذه المدينة الهجرة إليها من قبلهم؟

عندها قلت:

- نعم لقد تعرفت على أكثر من عائلة يهودية هناك، والذي أخبرني بعضهم انه يوجد أكثر من مائة وخمسين فردا في المتصرفية بمعنى أكثر من ستة عشر عائلة.

عندها رد السيد منشي وعلامات التعجب بدت أكثر وضوحا عليه:

- لكن اليهود يهاجرون إلى اسرائيل... وليس إلى عمق العراق؟
- أنا عراقي قبل ان اكون يهوديا وأحب بلدي ومتمسك به.
- انت يهودي عجيب... ولكن القرار يعود لك، وانت حر فيما تختار، ولكن كيف وافقت زوجتك على ذلك؟
- بل هي من شجعتني على اتخاذ القرار الصائب.
- انتم عائلة غريبة؟

شعر بنيامين ان الموضوع الذي أتينا من أجله أخذ مسارا آخر، ولا بد ان يكون محور الحديث ليس موضوع هجرتي إلى متصرفية كربلاء، فسأله بالقول:

- عفوا منشي افندي لم تسألني ما هو المأزق الذي أحرج ابن عمي.

فتنبه لحديث بنيامين وقال معتذرا وبطريقة استفهامية:

- ما هو المأزق؟

- يعقوب يريد ان يبيع القماش في متصرفية كربلاء، ووجد دكانا وسط السوق هناك، إلا ان صاحبه شرط عليه أن يحصل على دكان في سوق الجملة هنا في بغداد مقابل أخلاء دكانه. وانت كبير السوق ومحط احترام وتقدير الجميع، ونريدك ان تساعده في إيجاد دكان له هنا، وكما تعرف ان بعض تجار اليهود قد هاجروا إلى اسرائيل ووضعوا مفاتيح دكاكينهم عندك كي تبيعها أو تؤجرها لمن تجده محط ثقتك.

صمت منشي افندي قليلا يتفكر بالأمر... لم يكن لديه حجة الرفض أو المراوغة، لأن بنيامين على دراية ان تجار اليهود في مختلف الأعمال يفكرون بالهجرة، وبعضهم كان قد هاجر إلى اسرائيل عن طريق ايران وسوريا ليتفقد الوضع الاقتصادي والمالي داخل اسرائيل وعاد ليصفي أعماله. بل ان بعضهم اشترى الأراضي والبساتين والعمارات هناك.

- يوجد دكان في وسط السوق، لكن صاحبه يريد فيه مبلغا عاليا.
- نريد دكانا مبلغه مقبول، حتى يشجع صاحب يعقوب على البيع هناك والشراء هنا. قال بنيامين كلامه بصيغة سؤال؟
- أعطني وقت... كي أجد ما هو مناسب ليعقوب.
- لكنه ترك زوجته وولدين صغيرين في متصرفية كربلاء، وهو مشغول البال عليهم ويريد الرجوع بسرعة لهم... سيد منشي نحن أبناء كنيس واحد وأول مرة أقصدك بخدمة وأرجو ان لا تخذلني بطلبي.
- طيب أرجعا لي بعد الساعة الثانية ظهرا، وستكون الأمور بما تشتهيان.

- أتفقنا.

كان الوقت الذي طلبه منشي افندي بالنسبة لي فرصة ذهبية لأقضي بعض أعمالي، فطلبت من بنيامين ان نذهب إلى محل عملي الواقع في شارع النهر لأرى شريكي ولأعرف أخر أخبار الذهب، كما انني اريد ان امر على بيتي في منطقة باب الأغا لأسلم على أصحاب الدكاكين الخارجة منه، اضافة إلى انني اريد رؤيته.

سألت بنيامين عن هناء، وكأنني نكأت جرحا لم يندمل بعد، وسألته ان كان لازال يلتقي بها، فقال:

- نعم... لا زلت ألتقي بها.
- وماذا بعد اللقاء؟
- في الحب لا يوجد ما بعد، ولا ما قبل، الحب حالة آنية تبتعد عن كل الفروض والاحتمالات.
- ولكن زواجكما مستحيل، بعد محاولاتك المتكررة.
- الزواج نهاية قصة حب، يرفض أهلها ان يتموها، فأنت تعرف شرطهم، والذي لا يمكن أن أطبقه.
- اترك الفتاة في حال سبيلها.
- أخبرتها بذلك، لكنها متمسكة بي، رغم تعدد الخطّاب الذين طرقوا بابها.
- وما الحل في رأيك.
- تقول هناء: انها لا تتزوج غيري، حتى أتزوج أولا، أو أهاجر إلى إسرائيل.
- ولكن وضع الرجل، يختلف عن وضع المرأة.

- أخبرتها بذلك، ولكنها تصر، على أن حياتها مع غيري مستحيلة، لا بد ان ترى نهايتي، قبل ان تقرر نهايتها.
- وماذا قررت ان تكون نهايتك؟
- أنا لم ولن أتزوج غيرها، ما دمت في العراق، ولكن عندما أهاجر إلى إسرائيل، فربما أفكر بغيرها، وربما أتزوج.
- وهل هذا هو الحل في رأيك؟
- من الأفضل لها، ان أبتعد عنها، كي تتزوج من غيري، وكذلك من أجل نفسي ان أبدأ حياتي هناك من جديد.

عند الساعة الواحدة ظهرا دخلنا إلى مطعم يبيع الكباب والتكة وبيض الغنم، أكلنا بشهية، فالأوضاع على ما يرام وقد امتلأت جيوبي بالمال، بعد ان أخذت حسابي من شريكي في الدكان، كما استلمت إيجار الدكانين للشهور الثلاث المنصرمة، وكان صاحب الدكان القريب إلى باب البيت قد طلب مني استئجاره لكني رفضت الفكرة لأنني اريد بيعه دون ان اخبره بذلك، وانتظر الظرف المناسب.

عدنا إلى منشي أفندي في الوقت المحدد، والقلق مسيطر عليّ، عندما وصلنا إلى دكانه وجدناه داخل الأوفيس ينتظرنا، فاتجهنا نحوه مباشرة، كانت جدران الأوفيس مغلفة بطبقات من الصاج الأصفر الفاتح، يجلس على كرسي ذي مساند يتوسطها تغليف من جلد الغنم، ويعلوه زخرفة على شكل نصف تاج، يتقدمه منضدة تعلوها السجلات، وعلى جهته اليمنى توجد قاصة حديدية بماركتها الألمانية الصنع وهي تتوسط ثقب المفتاح ومن غير مقدمات أخبرنا:

- يوجد دكان في آخر السوق يشترط صاحبه بيعه مع البضاعة، وسعره

مناسب وكذلك بضاعته، لأنه يريد الهجرة إلى إسرائيل ولكن لا أريد أحدا يعرف بذلك، مثلما لا أريدك يا يعقوب افندي ان تخبر صاحبك الكربلائي بموضوع الهجرة.

- سأقول لصاحبي أنه يوجد دكان ببضاعته لأن صاحبه يريد ان يفتح شركة صيرفة لذلك هو يريد بيعه ببضاعته، ويجب ان يكون كلامنا واحدا عندما يأتيك لأنه من المؤكد يعرفك.
- اكيد انه يعرفني، ولكنني أتعامل مع أغلب تجار ألوية العراق، وربما عندما أراه اتذكره... أتفقنا، سأرسله لك في الأسبوع القادم.

نهضت وبنيامين من كرسيينا، لكن منشي افندي وهو ينهض من كرسيه قال:

- اتفقنا... ولكن لا بد ان تتناولا الغداء معي، ثم صاح على أحد عماله.

لكنني قلت معتذرا من أننا تناولنا الغداء في أحد المطاعم، ولا بد لي من الرجوع إلى المتصرفية قبل سجى الليل، رافقنا منشي افندي حتى باب الأوفيس، وعند رأس السوق ودعت بنيامين مؤقتا، لأنني لا اعرف ظروف السيارة التي سأستقلها ان كان الركاب قد حجزوا كل مقاعدها، ام مازال بعضها فارغا.

وصلت إلى كربلاء قبل آذان الغروب، وكانت الناس في عجلة من أمرها بين الدخول والخروج قبل ان تغلق باب السور، ثم تبضعت ببعض أنواع الفاكهة، واتجهت نحو البيت يحفني الشوق لعائلتي.

V

طقوس محرم وصفر

ذهبت مع صاحب الدكان الحاج ضعن من أجل دفع ما بذمته إلى دائرة الضريبة وتصفير حسابه، ومن ثم عدت مرة أخرى مع صاحب الملك الحاج شلال من أجل تسجيل عقد الإيجار وفتح صفحة في سجل الضرائب باسمي، وقد تفاجأ صاحب الملك باسمي الثلاثي امام دفتردار التسجيل ولكنه أضمر سؤاله حتى خرجنا من الدائرة وعندها سألني ان كانت ديانتي مسيحية كما دل على ذلك اسمي، اخبرته بأنني عراقي الجنسية يهودي الديانة، فعرف الحاج ضعن من ردي انني متهيئ لمثل هذا السؤال من الآخرين، وبأني عراقي قبل ان اكون يهوديا أو مسيحيا، فرحب بي وشد على يدي متمنيا لي التوفيق والنجاح في عملي وبأنه مستعد لتقديم خدماته لي ان احتجتها أمام أية صعوبة تواجهني.

كان الحاج ضعن ينتظرني والحاج شلال ليسلمني مفاتيح الدكان ببضاعته وسجلاته وديونه وعماله، وقد اتفقنا على موضوع الديون بأن اكون محصلا أو جابيا لها وليس من ضمن الصفقة التي تم على أساسها الشراء، بينما استقبلت البضاعة الباقية بأسعار متفاوتة وبالخصوص الشتوية المكدسة بالمخزن الخلفي للدكان بموديلاتها القديمة فكانت

بنصف السعر، أما الأقمشة القطنية والحريرية فبقيت بأسعارها وحسب قوائم شورجة بغداد، وبعد أن تم جردها بسجلات جديدة، كانت الرفوف الخشبية ذات الواجهات المغلفة بالصاج، وفرش الأرض من السجاد الفارسي والقاصة الألمانية وكل التجهيزات الأخرى إضافة إلى إخلاء طرفه من الدكان من ضمن صفقة البيع بنظام السرقفلية.

عندما وصلنا انا والحاج شلال إلى الدكان نهض الحاج ضعن من مكانه مستقبلا لنا، وطلب مني الجلوس على الكرسي الخاص به خلف المنضدة المغلفة بقطعة قماش من الصوف، لكنني رفضت ذلك وطلبت من الحاج شلال الجلوس على الكرسي، ولكنه رفض بدوره، وفضل الجميع الجلوس أمام المنضدة على شكل مثلث، طلب الحاج جودي من فاضل أن يأتينا بطاسات الماء ومن ثم يذهب إلى مرهون صاحب القهوخانة القريبة ليأتينا بالشاي أو القهوة بعد ان سألتهم ذلك وفضلوا الشاي.

يتوسد وجه العاملان الحاج جودي وفاضل الحزن الشديد وبالخصوص الحاج جودي الذي يعمل في الدكان منذ أكثر من خمسة عشر عاما، اما فاضل فيعمل فيه لأكثر من خمسة أعوام، جاء بعض أصحاب الدكاكين المجاورة لدكاني الجديد ليسلموا على الحاج شلال صاحب الملك، وفي الوقت نفسه ليسلموا عليّ كتاجر جديد وسط السوق، ويودعوا الحاج ضعن على أمل لقائه في شورجة القماش في بغداد.

لم يطل الحاج شلال بقاءه، واستأذن بالذهاب فنهض الجميع لوداعه،

وبعدها ودع من حضر من التجار الحاج ضعن الذي طلب الاستئذان وقد سلمني المفاتيح، وكان الحاج جودي يقف على مقربة منه، فتقدم نحوه وأخذه بالحضن، وهو يمسك نفسه عنوة، ومثله فعل فاضل الذي كان يلفه الحزن.

الحاج جودي خمسيني العمر، أفطس الأنف له شفتان منفوختان، يتدلى أسفل حنكه لغد، له جفنان مفتوحان وكأن فصّا عينيه يندلقان إلى الأمام يريدان السقوط، يرتدي العقال والكوفية كما يرتدي الصاية المصنوعة من الصوف المتوسط النوعية، كان عندما يصل إلى الدكان ينزع كوفيته بعد ان يقلبها على عقاله ويبقي طاقيته البيضاء المخرمة فقط، شاربه خفيف يرتسم على شفته العليا، يتقن اللغة الفارسية والتركية والأوردية، كما يحسن التعامل مع النساء وبالخصوص الفارسيات، له طريقته الخاصة في جذب الزبائن، فهو بعد أن ينهي المعاملة ويقص القماش ويضعه في أكياس الكاغد يهدي الزبون (تربة للصلاة) وسبحة للتسبيح، وإذا اشترى الزبون أكثر من قطعة لجهاز العرس على سبيل المثال فأنه يهديه سجادة للصلاة، وكان أسلوب الترغيب الذي يتبعه يتكتم عليه حتى لا يشاع في السوق ويفسد، لذلك كان الدكان مقصدا للكثير من الزبائن الدائمين والطارئين الذين يرونه ممتلئا بالزبائن وبالخصوص نساء الشيوخ ووجهاء المتصرفية.

اما فاضل فهو ثلاثيني العمر، أو يزيد قليلا، قوي البنية، وجهه دائري أحمر البشرة يفيض دما، أذناه صغيرتان ومثلهما أنفه وفمه، حليق الشارب مدقوق الحنك، يرتدي البنطلون والقميص، وظيفته إعادة أطوال القماش بعد لفها إلى مكانها بعد فتحها من لفتها لترغيب

المشتري، كما يعمل على تنظيف سجاد المحل، وعندما يزدحم الدكان يقوم بمساعدة الحاج جودي بقص القماش.

جلست على الكرسي خلف المنضدة، وسرحت قليلا في أرجاء المكان، وانتابني شعور بأنني أميره، وبأن تصرفي هذا هو الخطوة الأولى في الطريق الصحيح، بينما دخل بعض المشترين وطفقوا يتفرجون على الأقمشة في رفوفها، أنزل الحاج جودي لهم بعض الأطوال منها وراح يفترشها، ومن ثم يستبدل طول قماش بآخر مع اختلاف نقشته، حتى أقنع المشتري بالشراء، فقص له ما أراد وطلب من فاضل أن يأتيه بكيس كاغد بعد أن لف القماش بمهارة، وأهدى كل من قص له تربة وسبحة بعد أن وضعهما بكيس صغير، ثم تقدم بهم نحوي ليدفعوا الحساب الذي اخبره به.

طلبت من الحاج جودي وفاضل أن يغلقا المحل علينا من الداخل ويجلسا أمامي، كانت علامات الحزن لا زالت بادية عليهما، سألت الحاج جودي:

- كم أجرتك الشهرية؟

تلعثم الحاج جودي بالجواب، وأخذته الظنون والسبب من وراء سؤالي، فرد بنوع من الارتباك.

- ديناران.

ومن ثم ألتفتُ إلى فاضل وسأله عن أجرته الشهرية أيضا؟

- دينار وربع.
- من اليوم فصاعدا، ستزيد أجرة الحاج جودي نصف دينار، وأجرتك يا فاضل ستزيد ربع دينار.

تغيرت محيا كل منهما وبانت ملامح الفرح عليهما، إذ ان زيادة الأجرة بما يوازي خمسها يعد مبالغة ما بعدها مبالغة، لكنني كنت اقصد كل فعل اقوم به، بل انني لا اعتمد في تصرفاتي على الارتجال ابدا، وكنت استشير زوجتي في أغلب تصرفاتي، لم يغب عن بالي انني غريب في هذه المتصرفية ولا يمكن ان تكون لي عزوة وجاه إلا إذا أحسنت الخلق وزهدتُ بالمال، اما الرجال فكان لزاما أن ابدأ بالمحيطين بي وهما عمالي ومن ثم عوائلهم، وبالخصوص بعد أن شاع انني يهودي وهو أمر لا يمكن إضماره لفترة طويلة، وبالتالي لا بد أن اجمع حولي من يدافعون عني في السر والعلن عند أي طارئ، ومن ثم أتممت كلامي:

- لكما ولعائلتيكما عند بداية الموسم الشتوي كسوة، ومثلها في الصيف.

عندما أنبرى الحاج جودي بالكلام، بينما فضل فاضل السكوت:

- لكن يا يعقوب افندي هذا كرم من جنابك لم يفعله الحاج ضعن معنا وقد قضينا معه فترة طويلة.

تبسمت ومن ثم قلت:

- نحن نعيش في مكان واحد، ونأكل في صحن واحد، ولزاما أن يخدمنا كما نخدمه، وانتما مثلي، فهل يجوز أن أشترى قماشا لعائلتي وأنا أبيعه؟

فردا كلاهما بالرفض. عندها أتممت كلامي:

- وانتما كذلك لا يمكنكما شراؤه وانتما تبيعانه، وفي المقابل عندي طلب منكما.

فرد كلاهما وبخضوع تام:

- انت تأمر يعقوب أفندي.
- لا أريد لأسرار العمل ان تخرج من عتبة باب الدكان هذا أولا، كما أريد منكما مهما بلغت الاختلافات بيننا، أن تنتهي بانتهاء اليوم لنبدأ من جديد في اليوم الثاني وكأن شيئا لم يكن، والشيء المهم هو أنني أريد الأمانة وعدم الخيانة وأنا متأكد أنكما أهل لها.

فرد كلاهما بالموافقة، عندها سألتهما من جديد:

- كم الساعة تفتحون الدكان كل يوم؟

رد الحاج جودي:

- عند الساعة الثامنة صباحا.

عندها رفعت رأسي متبسما وقلت:

- لا بد أن يفتح الدكان بعد صلاة الصبح مع فتح أبواب سور المدينة.

فرد الحاج جودي، بينما ظل فاضل على صمته:

- عفوا يعقوب افندي، ولكننا لا نغلق الدكان حتى آذان المغرب، ونذهب منهكي القوى كل يوم، باستثناء يوم الجمعة الذي هو عطلتنا، بل عطلة السوق كله.
- يمكن أن نصل إلى حل وسط هو ان تفتحا الدكان بعد فتح أبواب سور المدينة وآذان الصبح بساعة في الشتاء وبعد ساعتين في الصيف.

فوافق الأثنان على طلبي.

دارت حركة العمل وبدأت ملامح تشرين الثاني من عام 1918، تلوح

بالأفق، وبدأ الحاج جودي يخرج صفّات الأقمشة الشتوية من المخزن ويعرضها على الطاولة المستطيلة التي تتقدم الرفوف وجزء من واجهة الدكان، ولم تكن الشهور الماضية تخلو من المنغصات وبالخصوص بعد أن شاع بالسوق في كوني من الديانة اليهودية حتى أصبح يعرف دكاني بدكان اليهودي، فقد حاول بعض التجار استمالة الحاج جودي وفاضل بترك العمل عندي والالتحاق بالعمل عندهم، إلا أنهما رفضا تلك العروض، كما حاول بعض التجار جلب أقمشة مشابهة لأقمشتي وبيعها بأسعار منخفضة وفشلت محاولتهم أيضا في إضعاف عملي.

مال نحو دكاني بعض الباعة المتجولين من اليهود وكذلك العرب، ففتحت لهم سجلا خاصا بهم، وأبرمت معهم اتفاقا مغريا هو إرجاع غير المباع من بضاعتهم حتى لو كانت مترا واحدا، وعلى العكس من يسحب بضاعة أكثر يكون له خصم أكبر، كما كنت اقرض من يحتاج منهم للمال على أن يزكيه الحاج جودي، كما بدأت بعض النسوة من اليهوديات الخياطات يقصدن دكاني للتسوق وكنت ابيعهن بعض الأحيان بسعر الشراء من أجل تصريف البضاعة وجمع المال لجلب بضاعة جديدة بنقشات مختلفة.

كنت قد حسبت حسابا أغلب المنغصات التي من الممكن أن تعترض عملي، ولذلك زدت أجرة العمال بشكل غير اعتيادي، كما فعلت مع الچرخچي وهو الحارس الليلي الذي تناط بمسؤوليته منطقة محدد من الدكاكين لحراستها ليلا ولا يملك الا بزته الرسمية التي تشبه بزة الشرطة وغطاء رأس من الكوفية والعقال وبندقية قديمة من مخلفات الحرب العالمية الاولى تسمى (سمينوف) ذات الخمس إطلاقات

وصافره، عندما كنت أتأخر حتى المغرب لأعيد حساباتي، فيطلب مني الچرخچي اغلاق الدكان والذهاب إلى البيت، فلم يكن مني إلا نزول عند رغبته، ولكن بعد ان اقص له قطعة قماش أو لزوجته أو أبنائه، فيكون ممتنا مني، بل ويواظب أمام دكاني طول الليل وأن غادره فلأمتار قليلة ليعود من جديد الوقوف أمامه. بينما كان اللمبجي يسير بعصاه الطويلة ودلوه المسود ليضيء قناديل الزيت.

كما وبدأت عائلة جودي تزور عائلتي وأصبحت علاقاتنا الاجتماعية تتوطد أكثر، وكذلك مع بعض جيراننا، وكانت زوجتي ريم في كل مرة تحمل زوجة جودي ببعض الأغراض أو الطعام، وهي بدورها تقدم المساعدة لها أما في الطبخ أو الخبز أو تنظيف البيت، وتدعوها لبعض المناسبات الاجتماعية وهكذا انصهرت ريم في عادات وتقاليد المجتمع الكربلائي ولم تكن لتفوت فرصة أو مناسبة دون أن تقدم هدية في الأفراح وتعزي في الأحزان، وكان ينظر اليها على أنها من البيوتات الراقية تحترم عادات وتقاليد المجتمع وان اختلفت ديانتها، وأهم خدمة قدمتها زوجة جودي لزوجتي التي كانت بمثابة العين التي ترى بها المجتمع الكربلائي هو تعريفها ببعض اليهود الذين سكنوا في محلة باب النجف، في زقاق (حلّومة الخبازة)، عندها فرحت أيما فرح، وأعادت سؤالها هل يوجد يهود هنا، وقد سمعت مني عن وجودهم في المدينة، ولكنها لم تكن تعرف كيف تصل اليهم، فأكدت زوجة الحاج جودي كلامها وزادت عليه بالقول: بأنه يوجد زقاق باسمهم يسمى بـ(عگد اليهود) والذي يضمّ بيوت اليهود ودكاكينهم التجارية التي تنوّعت بين بيع الأقمشة والذهب والعطور ومواد الزينة والبضائع الغذائية الجافة.

كان عمل بيع القماش في الشتاء أكثر قوة منه في الصيف، وقد أستطاع الدكان تصريف أغلب البضاعة الشتوية التي أخذتها بنصف القيمة، نظرت إلى الحاج جودي الذي يجلس على الكرسي قبالتي ومتهيأ لإستقبال أي زبون فسألته:

- اين تقضي جمعتك يا حاج جودي؟
- أذهب للحمام العمومي.
- لماذا؟
- لأن حمام البيت لا يفي بالغرض بالرغم من أنني أغتسل فيه كل ثلاثاء وعندما اعاشر زوجتي.
- واين يقع هذا الحمام العمومي وما اسمه؟
- اسمه حمام القبلة، وهو لا يبعد كثيرا عن الدكان وأشار بيده إليه.
- وبعدها إلى أين تذهب؟
- أعود للبيت وعند العصر ألتقي في مقهى علي هدلة.
- هل يمكن أن آتي معكما هذه الجمعة.
- على الرحب والسعة، ولكن يجب أن تأتي بملابس داخلية وبشْكِيرْ خاص بك.
- سآتي بها ولكن بشرط.
- نحن بخدمتك يعقوب أفندي.
- أن يكون حمامكما على حسابي.

تبسم الحاج جودي ومثله فاضل، معلنين موافقتهما على طلبي، ورد الحاج جودي عليه:

- ولكن الدارسين على حسابي.

وافقته مبتسما على مجاملته. وعاد كل منهما إلى عمله بعد دخول أحد الزبائن مع زوجته وأبنتهما.

عند الساعة التاسعة من صباح يوم الجمعة، جاء جودي وفاضل وكل منهما يحمل بقجة ملابسه معهما ادوات الغسل من الليفة والحَجَرَة السوداء وكيس الحك إلى بيتي وكنت انتظرهما وانطلقنا إلى حمام القبلة العمومي.

عندما وصلنا إليه، كانت بابه الخشبية محكمة الإغلاق، والنقش الكربلائي يحيط بالباب الخشبية التي خط وسطها حمام القبلة وسنة تأسيه في عام 1890، وتحته حديث نبوي يقول: (تنظفوا فأن الإسلام نظيف) وزخارف حتى الأرض. أدار الحاج جودي عروة الباب للأسفل ودخلنا اليه، فاستنشقنا رائحة الحمام التي هي خليط من بخار الماء المخلوط بالصابون، بعدها دخلنا إلى باحته التي تحيطها المقاعد المبنية من الآجر بالقرب من الحيطان وتعلوها مشاجب لتعليق الملابس، وعند السقف القبة الكروية التي تحتوي على فتحات صغيرة التي تسمح بتبدل الهواء وإدخال ضوء الشمس، إضافة إلى ان الماء الذي يتكثف عليها تجعله ينزلق إلى الأطراف مع ميلانها، فيكون المستحمون في مأمن من قطرات الماء البارد، أما الأغراض والفلوس فتوضع عند صاحب الحمام، بعدها ائتزر كل منا بإزاره المقلم ونزع لباسه الداخلي، بينما فضل فاضل البقاء به والذي سيستبدله بآخر عندما ينتهي من غسله، بعدها دخلنا إلى ساحة الحمام والتي تحتوي على عدة أركان، يعلوها أيضا قبة كروية كبيرة لإدخال الضوء، أما أرضية الحمام فكانت مبلطة بالحصى المصقول منعا للانزلاق ومن ثم حُجرة البخار التي يتوسطها

حوض كبير يملأ بالماء الساخن، والذي يسخن بخزانات خارجية تسمى (الطمة) والتي تستعمل فضلات الحيوانات لتسخينها إضافة للحطب.

استمر استحمامنا لأكثر من ساعتين، شعرت لأول مرة بأنني اغتسل في حياتي مثل هذه الغسلة التي أرخت عظامي كلها، طلب جودي مني التمدد على وجهي على مصطبة مبنية وسط الحمام، ومن ثم لبس بيده كيسا خشنا أعد لهذا الغرض، وبدأ ينزل من ظهري حتى نهاية قدمي لأكثر من مرة، ومن ثم طلب مني ان استلقي على وجهي وأعاد تمرير كيسه الخشن على رقبتي ووجهي وكل أجزاء جسدي لأكثر من مرة، ومن ثم بدأ يدلق عليّ الماء الدافئ.

طلبت من جودي أن يستلقي على وجهه هو الآخر لكنه رفض ذلك، إلا انني أصريت على كلامي ولم يكن له إلا أن يطيعني، وبدأت امرر الكيس الخشن على جسده كما فعل هو، وكذلك فعل جودي لفاضل الذي يعده بمثابة أبنه، ومن ثم دخل كل منا إلى الحمامات الفردية وحلقنا عاناتنا، وتشطفنا من جديد، وخرجنا ثلاثتنا إلى باحة الحمام لاستنشاق هواء شبه نقي خال من بخار الماء والمعبأ برائحة الصابون التي تضوع في المكان.

جاءنا عامل الحمام بأستكانات الدارسين، وطلبت استكانا آخر، وكنت اجول بنظري بالمكان، كان كل خطوة اخطوها تجعلني انغرس في المجتمع الكربلائي وتشعرني بالفرح، ولذلك كنت مثل الطفل اكتشف الأشياء لأول مرة، وسرعان ما اعتاد عليها لأطلب من جديد أماكن جديدة لاكتشافها. ومن ثم أخرج كل منا بشكيره لينشف شعره

وجسده وبعدها لبس كل منا ملابسه الداخلية الجديدة، وفي داخلي كنت اشعر بالامتنان لجودي.

عند العصر مرّ جودي على بيتي وذهبنا معا إلى قهوخانة علي هدلة، وكان لصاحبها حكاية تتناقلها الأجيال مفادها: انه كان لمأمور الحكومة العثمانية مجموعة من الجنود يجْبون الضرائب على الخضروات، يقفون بالقرب من مقهى علي هدلة لاستيفاء الرسوم من الفلاحين، فقام أحدهم بتفتيش امرأة ظنا منه أنها تخبئ الخضروات في ثيابها، فما كان من المرأة إلا أن صرخت واستنجدت بأهالي المدينة، فقام علي هدلة وزبائنه الجالسون في القهوخانة بالرد على هؤلاء بكل قوة، وردا لهذا الفعل قرروا إعلان العصيان على الحكومة، ثم تجمع الأهالي لنصرة هذه المرأة ومساندة علي هدلة في عصيانهم حتى وصل الأمر إلى الهجوم على الجيش العثماني في المدينة فوصل الخبر إلى الأستانة وأقلق السلطان، فأصدر إرادة بإرسال جيش لهدم كربلاء وقتل أهلها، وعند وصول الجيش إلى كربلاء بقيادة عاكف باشا والي بغداد إلى كربلاء لم يجدوا أثرا للعصيان، ثم صدر عفو عام عن الأهالي باستثناء مثيري الفتنة واعتقال بعض رجال المدينة.

تتكون القهوخانة من فناء واسع محاط بجدار تتخلله الشبابيك، وفي داخل فنائها يوجد الوجاغ أو الوجاق لتحضير الشاي والقهوة، وقربه تسكاة لغسل التبغ الخاص بالنرجيلة، وفي أحدى زواياها يوجد حب ماء، فضلا عن الجرار والأقداح والطاسات النحاسية. كانت القهوخانة مكانا مزدحما، يرتاده كثير من أهالي المدينة يتداولون الأمور الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يمر بها البلد، جاءنا القهوخانجي الذي

يرتدي الدشداشة ويتوسطها حزام جلدي تآكلت بعض أطرافه، وعند حلقته الحديدية بعض ثقوبه أكبر من حجمها الطبيعي، قدم لنا طاستين من ماء الحب، وسألنا عن طلبنا، فطلبت الشاي، بينما طلب جودي قهوة، ونرجيلة بالتنباك، فتعجبت من طلبه وسألته عنه؟ فقال: انه يشربها منذ سنين ولكن في البيت أو هنا. صاح رجل يلبس العقال والكوفية على الحاج جودي مخبرا اياه بأن شايه وصاحبه قد وصل حسابهما، فتشكر جودي منه، ومن ثم بدأ حديث مختلق بينا، فنحن نلتقي بالدكان ويرى أحدنا الآخر أكثر مما يرى زوجته، لكن جودي كان يشعر بالارتياح عندما يعود للقهوخانة ويختلط بالناس ويجاملهم، لأنه مقطوع عنهم طيلة الأسبوع.

تعج القهوخانة بالجالسين من مختلف الشرائح، الأفندية وهم يلبسون البدلات، واصحاب الجراويات والعقل، طيلة الجلسة كان جودي لا يكف عن رد السلام على البعض من الذين يمرون أمام القهوخانة، وبعض الزبائن الذين يرتادونها، فطلبت منه أن يخبرهم بأن شايهم واصل، فضحك جودي عندها، وأخبرني أنهم أصدقاؤه وهو أولى بدفع شايهم، لكنني طلبت منه أن يعطيني فرصة لأتعرف على المجتمع الكربلائي، عندها صاح جودي على أصدقائه الذين دخلوا للتو بأن شايهم واصل من يعقوب افندي، فرد بعضهم بكلمة (جَبَ) وبعضهم قال و(النعم) بينما اكتفى البعض بالشكر.

امام القهوخانة من الجانب الآخر موقف الربلات، تقف العربات أحدهما خلف الآخر، أقرب إلى الاستعراض في جمالها من وقوفها في انتظار أحد أن يستأجرها، بعضها ملونة بالأخضر أسفل نهاية السجفة

السوداء الملمعة بالزيت، وبعضها مصبوغ باللون الأحمر وآخر بالأصفر، وفي المكان الذي يجلس عليه الحوذي، كان تخت بعض العربات منجدا بجلد غنم بلون أبيض وأسود، أما من داخل العربة فالمقعد منجد بالمخمل الأسود، بينما مسند الظهر منجد بالأحمر وبخيوط حريرية ناعمة، على جانبي التخت فانوسان يضيؤهما في الليل، كما يوجد بيت السوط بعصاه الطويلة، كي يصل إلى آخر السجفة، حيث يعلق بعض الأطفال في مؤخرة الربل عندما يستأجره أحدهم اليها فيلسعهم بسوطه، بينما يكتفي بعض الحوذيين التلويح به، بعضهم يضع كيس الكلأ في عنق الحصان. وبين الحين والآخر يرفع الخيل أحدى قوائمه ليهش الذباب عن بطنه مرة، وبذيله الطويل مرة أخرى. والسرجين يخرج منه بخار متقهقر بعد ان يرتطم بالأرض مثل سيجارة في آخر أنفاسها وقد ضغطت داخل منفضة.

بعض الخيول كانت مثل مزهرية ملونة يحيط رقبتها مجموعة من الأجراس الصغيرة مصنوعة من النحاس الأصفر أو البرونز التي تهلهل عند المشي أو عندما يهز الحصان رأسه طاردا الذباب، تحيط عيني الحصان سير جلد تمنعه من الرؤية يمينا أو يسارا حتى لا يفزع عند السير، بعض الخيول يصل طول ذيلها حتى حوافره، وبعضها حتى كوع قدميه، على ظهر كل حصان سرج فيه عدة حلقات حديدية يمر من خلالها الحبل الذي يمتد ما بين الحوذي وحتى لجام الحصانيين. يمتد اللجام من رأس الحصان ليلتقي عند حديدة داخل فم الحصان ليتحكم الحوذي به. للحصان منخران كبيران ينفثان الهواء مثل بخار الماء في شتاء منجمد أو دخان ابيض لحريق تم اخماده للتو. عندما كان الربل

يسير كانت سنابك الخيل تنقر الشارع وكأنها أيدي طبال ماهر ترقص على أنغامه راقصة محترفة.

استمرت جلستنا حتى بعد آذان المغرب عندما قام البعض إلى الجامع القريب، وذهب البعض الآخر إلى بيته، ومثلهم فضل جودي الذي طلب مني النهوض والذهاب للبيت لأن الليل من حصة العائلة وينتظرنا عمل بداية الأسبوع واستحصال ديون الباعة الجوالة. وافقته على ذلك ولكن طلبت منه أن نمر على بقال قرب القهوخانة لنشتري بعض الفاكهة، لكن جودي رفض ذلك ومن أنه لا يستطيع رد أفضاله، لكنني كنت حازما بقولي من أننا نأكل في صحن واحد داخل دكان واحد وطلبت منه أن لا يضع هذه الفوارق المصطنعة بيننا، فوافقني جودي على مضض.

كان صباح يوم السبت يختلف عن كل ما سبقه من أيام الأسبوع الأولى، فالجميع على مستوى من النشاط والحيوية، ويحمل كل من جودي وفاضل اللهفة والشوق للعمل، هذا ما شعرت به وانا أراهما على هذا الحال ولم الحظ ذلك من قبل، وربما لم يلفت انتباهي ذلك، بعدها طلبت من جودي أن يجلس مكاني لمشوار حتى (عگد اليهود) واعود من جديد، وكان أصحاب هذا السوق من اليهود متآلفون فيما بينهم، ويرتدي رجالهم لباس الجراوية والدشداشة العريضة، ويلفّون على وسطهم حزاما، والبعض الآخر يلبس الصاية أو الزبون إضافة إلى الجراوية، وهم يتعاطون المهن الحرة رغم وجود عدد منهم كدفترارية في دوائر الدولة، منهم من يبيع القماش في الدكاكين، ومنهم من يحملها على كتفه ويدور بها في الأزقة كبائعين متجولين للقماش، وفريق آخر يبيع البقوليات اليابسة في سوق العلاوي، ومنهم من يصلّح الساعات

وأواني الفافون. وكان من بين أصحاب السوق السيد اسحاق وهو من باعة المشروبات الكحولية، أغلب زبائنه من الموظفين الأتراك العاملين في دوائر الدولة، وحتى بعد طردهم من العراق، ظل يبيعه على الموظفين البريطانيين.

كثيرا ما كنت أجلس معه، يحدثني عن يهود كربلاء والمسيب وطويريج وعين التمر، كما كان يحدثني عن حلمه بأن يذهب إلى حج بيت المقدس، ولكنه يخاف ان يترك دكانه مغلقا طيلة هذه الفترة فيسارع يهودي آخر ليماثله بمهنته، فقد كان زبائنه محدودي العدد، سألته لماذا لم تتزوج حتى الآن فأجاب:

- أنا أحب حلومة بائعة الخبز، وهي امرأة مطلقة، فقد كان زوجها يرفض العمل، ويطلب منها أن تقوم هي بالمعيشة، بعد ان تبين أنها عاقر، وافقت على طلبه، وأصبحت كل يوم تفترش الأرض لتبيع الخبز، وتأتي بلقمة العيش له، لكنه لم يكتف بذلك، بل تزوج عليها، عندها رفضت الاستمرار وطلبت منه الطلاق، لكنه لم يطلقها، إلا بعد ان أخذ كل مالها وذهبها البسيط، لم تعد إلى أهلها في ريف المدينة، بل استأجرت غرفة صغيرة في احد الخانات، وأصبحت معيلة لنفسها، تعرفت عليها من خلال شرائي لخبزها، ومن ثم طلبت منها الزواج، لكنها رفضت بعد ان سألت أحد الشيوخ، وفضلت ان تنام معي، على الزواج، وكنت أتألم من هذا الوضع الشاذ، فلا هي تقبل بالزواج مني، ولا أنا أستطيع الاستغناء عنها، وهكذا بقيت علاقتنا الجنسية مستمرة، الجميع يعلم هذه العلاقة، ويعدونها طبيعية، رغم شذوذها، بينما الزواج يعد مخالفا للشرع الإسلامي.

- وكيف تقضي طقوس العبادة، إذا لم تساعدك الظروف بالحج؟
- في الأعياد اذهب مع مجموعة من يهود السوق وبعض المسلمين إلى مرقد النبي حزقيال، للزيارة والتبرك.
- إذا حدث مثل هذا الجمع مرة أخرى، أرجو أن تخبرني كي أذهب وعائلتي معكم.
- أتفقنا.

طلبت منه أن يلف لي بعض قناني العرق والويسكي والبيرة، ثم عرجت على بيتي وأودعت ما اشتريته لريم وعدت إلى الدكان.

اصبحنا نذهب إلى الحمام العمومي من كل يوم جمعة، وطلبت منهما أن نغير اغتسالنا من حمام لآخر حتى نعرف الفرق بينها، كما وطلبت منهما الذهاب إلى أقدم حمام في المدينة، وكان حمام الكبيسي الذي يقع في محلة باب الطاق وعرف بهذا الاسم نسبة إلى عشيرة الكبيسات، ولم يكن يختلف كثيرا عن حمام القبلة، من ناحية القبب الموجودة في السقف لإدخال الضوء، والخزينة والطمة، وكذلك باقي الحمامات التي اغتسلنا فيها فيما بعد وهي حمام المالح والشاخة والمخيم والسعادة الموزعات على مساحة المدينة، باستثناء حجمها ومداخلها، فبعضها عبارة عن دهليز خلف الباب الرئيسة ويعقبها باب خشبية سائبة تشبه أبواب البارات التي كانت تظهر في أفلام الوسترن الامريكية، ويتبعها المنزع الذي يحتوي على مساطب خشبية للجلوس، وشذر وان تتوسط المكان، ولكنها تشترك في هندسة البناء المتميزة والنقوش البديعة والزخارف الجميلة، كما وتشترك في تقديم الخدمات المتشابهة ومنها الغُسل للعريس قبل زفافه، أو أخذ

الأهالي أطفالهم اليها قبل عملية الختان، كما وتستعمل الحمامات كأماكن صحية للتخلص من بعض الأمراض.

كنت أثناء ذهابي إلى الحمام امر بأسواق مختلفة المهن، آخرها سوق الجللجية أو السراجة، الذين يصنعون السروج للحمير التي تجر عربات الفلاحين، وكذلك لخيول الربلات، كانت الشوارع الرئيسة تموج بالجنائز بعد ان يتم غُسلها بالمغتسلات لتتجه نحو مرقد الإمام الحسين واخيه العباس، بينما كانت النسوة يحملن على رؤوسهن صواني الجبن والقيمر لأكثر من طابق، في أحدى المرات دخلنا إلى سوق الصفافير، رأيت أحدهم يقف وسط طشت نحاسي بعد ان وضع الرمل المبلل وفوقه كونية وراح يميل بجسده يمينا ويسارا مثل راقص في حفلة ليخرج لمعته المختبئة تحت النيكل الذي يغلف نحاس الطشت.

كوّنت فكرة كاملة عن الحمامات في ذهني، واستسغت فكرتها، ووجدتها مجدية، فالماء شبه مجان باستثناء أجرة من يجلبونه من نهر الحسينية الذي يخترق المتصرفية، إضافة إلى وقود الموقد الذي يسخن ماء الخزينة والذي يسمى الطمة، بل انني الاحظ الحمالين الذين يعملون في شحن وتفريغ الطعام القادم من أقضية كربلاء ومثلهم العمال الذين يعملون في البزارات التي تعصر التمر وتحوله إلى دبس، يقطعون مسافات إلى حيث تلك الحمامات، إضافة إلى التجار واصحاب الحرف الأخرى، واختمرت ببالي فكرة ان افتح حماما قريبا من سوق العلاوي الذي اقطنه، كونه المركز الرئيس لتسويق الطعام، وأحد أهم الأسواق فيها لما يحتويه من علاوي وخانات سكنية للغرباء، والأهم انني كنت اعتقد ان صاحب الحمام يشبه صاحب القهوخانة فكلاهما شريك النهر في مائه.

بدأت السماء تنزل غيثها، وأخذت حبات المطر تتراقص على أسطح المظلات التي تتقدم الدكاكين مثل عازف غير محترف، بينما ينزل إلى الشارع من خلال الثقوب والنهايات مثل خيط رفيع لا ينقطع، وكذلك من مزاريب سطوح البيوت، بينما جفلت العصافير والحمام في أعشاشها وهي ترقد على بيضها، كانت اشجار النخيل التي تطل من بعض البيوت واشجار النارنج التي تتكئ على جدارها تغسل أوراقها بمرح كبير.

غطت الأزقة والشوارع الفرعية بالأمطار وراحت تنساب إلى الأماكن المنخفضة، بينما يبحث الحمالون واصحاب عربات الدفع عن أية مظلة يختبؤون تحتها من دفق السماء المستمر. والنساء يرفعن ذيل العباءة لتجنب طين الأرض، هرع الأطفال وسط المطر يتقافزون، فيسيل على وجوههم الماء مثل ليل مقمر بنجومه. تحولت الشوارع الفرعية إلى دروب موحلة، وترع صغيرة غير متصلة، والأزقة وقد فاضت بمياه الأمطار بعد ان تحولت إلى برك من الوحل، اصبحت الأرض زلقة والرطوبة تتسلق الجدران.

كانت حركة العمل طبيعية، إلا ان جودي طلب مني الذهاب إلى شورجة بغداد لشراء أطوال من القماش الأسود لأن محرم على الأبواب والدكان ليس فيه منه إلا أطوال معدودة وبالخصوص الأقمشة النسائية. وما ان بتُ ليلتي حتى بكرت صباحا إلى كراج السيارات، الذي بدأ نظامها يتغير بتسيير السيارات صباحا ان امتلأت كراسيها، عندما وصلت ظهرا إلى بغداد استأجرت ربلا وطلبت من الحوذي ان يحمل عني كيس التمن ذو الجودة العالية وعلبة دبس من النوع الفاخر إلى شورجة الأقمشة وما ان وصلت طلبت منه حملهما خلفي إلى حيث منشي

خضوري الذي استقبلني بالأحضان، وعندما رأى الهدية التي قدمت بها علم أن وراءها قصد، فهو يهودي ويعرف أساليب اليهودي، ومن ثم طلب مني اتباعه إلى حيث الأوفيس، كان الحديث وديا في بادئ الأمر حتى تحول إلى العمل، فقد طلبت منه بضاعة تكون ماركتها خاصة بي، أو على أقل تقدير أن لا يبيعها لتجار متصرفية كربلاء وانما احتكرها دون غيري، فتبسم لطلبي، وأخبرني بوصول ماركة تدعى (الطف) وهي خاصة بمحرم وصفر، وسيحكرها عليّ ولكن هذا سيضر بعمله، ولذلك يجب زيادة سعرها، لم امانع ذلك ولكن اشترطت عليه الالتزام بشرطي.

حلَّ الأول من محرم، بدت بعض ملامح الحزن تلف المدينة، البعض من وجهاء المدينة وشيوخها يلبسون الأسود، أما النساء فأغلبهن لبسن السواد وتحولت بعض المجالس الاجتماعية التي تشبه الأندية السياسية وتعد المتنفس الكبير للتعبير عن الأماني الوطنية والقومية وأبوابها المفتوحة لعامة الناس على مختلف فئاتهم الاجتماعية ومستوياتهم الثقافية إلى مجالس دينية تتوشح جدرانها بالسواد، وينصب وسطها المنبر الحسيني، فتنعقد الجلسات من أجل العظات والاستفادة من معركة الطف كعبرة ومن الإمام الحسين كقدوة حسنة في جهاده ضد الطغيان. وكان شغل الروضخون على أشده في اعتلائه المنابر.

استطعت وبمساعدة منشي خضوري احتكار نوعية من السواد الخاص بمحرم والذي يحمل ماركة الطف، حتى شاع صيته بين النساء، وكن يسألن التجار الآخرين عنه دون الأنواع الأخرى ما زادهم حرقة، تجرأ بعض التجار المجيء والطلب مني شراء بعض الكميات منه، وتفاجؤوا عندما وجدوني فاتحا ذراعيّ لهم، وطلبت من جودي أن يزود

كل تاجر بخمسة أطوال، انتشر الموضوع بين التجار، فجاء بعضهم إليّ وأخذوا حصتهم، بينما رفض البعض الآخر المجيء، وهكذا كسبت أغلب تجار السوق.

ما ان حلَّ السادس من محرم حتى طرق بابي اكبر صادقي مع أمه وابنتيه، وكنت قد نسيت الشرط الذي ابرمه معي، وعندما فتحت الباب كان بمواجهتي عندها تذكرت الشرط، رحبت بهم وأدخلتهم إلى حُجرة السلامليك، ومن ثم افترقت النساء إلى حُجرة الحرم، بينما بقينا وحدنا.

في صباح اليوم التالي وبعد ان أتممنا فطورنا، خرجنا معا إلى الدكان وافترقنا عنده، فذهب أكبر صادقي إلى مرقد الامام الحسين من أجل الزيارة، بينما دخلت إلى محل عملي، بعد آذان الظهر بقليل عاد وجلس قليلا ثم نهضنا إلى حيث البيت.

دارت أحاديث مختلفة بين ريم وأم أكبر صادقي وزوجته، وقد رأت أم أكبر ان البيت قد أختلف نهائيا عن قبل، فأشياؤه جديدة وفرشه نظيفة، ولم يبق من أثاثهم إلا السجاد المعلق على الحيطان، وبعض الأغراض البسيطة، شكت ريم إلى أم أكبر صادقي عن ضعف مياه البئر بالقول:

- مياه البئر جدا ضعيفة، هل يجوز أن نحفر بئرا بدلها؟

تبسمت أم أكبر، وقد علمت السبب من وراء ضعف البئر فردت بالقول:

- ان البئر يحتاج إلى طماس البير.

فردت ريم ببلاهة بالقول:

- وأين يبيعونه حتى أشتريه؟

عندها ضحكت أم أكبر وزوجة أبنها من كل قلبيهما وردت:

- هو ليس غرض أو شيء يباع في الدكاكين، انما هو رجل مهنته تنظيف الآبار مما يسقط فيها من الأواني والأباريق مقابل أجر معلوم.

عندها ضحكت ريم على نفسها، ومن ثم ضحك الجميع معا، ثم قالت ريم:

- وكيف أتصل به؟
- أنا أستقدمه لك. سأوصي العطار المجاور للبيت ان يرسل بطلبه.

ثم نهضت من مكانها ولفت نفسها بالعباءة بعد ان أنزلت البوشي على وجهها، وخرجت إلى حيث العطار الذي عرفها من صوتها وسلم عليها بحرارة، فطلبت منه ان رأى طماس البير ان يأتي به للبيت، أو يرسل بطلبه ان كان يعرف مكانه أو اين يلتقي، فرد عليها بالقول بالخدمة خاتون.

خرجت من جديد مع أكبر عصرا إلى الدكان وافترقنا عنده، فذهب هو إلى تكية التجار ليلتقي أصدقاءه الذي تربطه بهم علاقة وطيدة وكذلك بعض أقربائه فيها، لم تكن تبعد التكية عن نهاية السوق كثيرا، بعد آذان العشاء أجتمع أغلب التجار عندها ليصطفوا فيها وليؤمهم احد سادة السوق، وما ان انتهوا من صلاتهم، حتى أوقد بعض الشباب النار في المشاعل التي تتقدم موكب العزاء، وتبعهم شابان يحملان لافتة سوداء مطرزة بخيوط من الحرير تحمل اسم (موكب عزاء التجار) فالتحقت به بعد ان ألتقيت أكبر، تحرك العزاء باتجاه شارع العباس وقد تقدمه بعض مواكب العزاء الأخرى من الحرفيين والصاغة والحمالين.

كنت اتمنى مشاركة الآخرين أحزانهم وأفراحهم، ولكنني أشعر بحرج كبير، حتى توفرت الفرصة الذهبية حين دعاني أكبر صادقي للمشاركة بالعزاء، ولم اجد ممانعة من الآخرين، بل كنت محط ترحيب، باستثناء البعض الذي يرسل لي نظرات غضب فسرتها على ان احتكاري لماركة الطف هي السبب من وراء هذه النظرات ولا تحمل أكثر من هذا البعد في كوني من الديانة اليهودية.

عندما وصل العزاء إلى باب قبلة العباس تتقدمه المشاعل وقد ألتهبت مشاعر العزاء وهم يرددون الشعارات، فضلت عدم الدخول إلى الحضرة وتجنب نفسي وموكب العزاء الإحراج، وفضلت ان التقيهم عند باب الخروج من الجهة الأخرى، كانت باب الإمام العباس عالية لأول مرة اراها عن قرب، وعندما نظرت إلى داخل الحضرة وجدت بعض النخيل الباسقة وسطه، وكذلك بعض شواخص القبور لرجال الدين والمؤثرين في المجتمع الإسلامي.

ذهبت إلى باب العباس المقابلة للسوق الذي يليه مرقد الأمام الحسين، وكانت الدكاكين لم تغلق أبوابها بعد، كان الجو باردا، والنساء يتوسطن طرفي الشارع الترابي، بعضهن تحمل طفلا، بينما البعض منهن يضعن البوشي فلم استطع أن اميز وجوههن.

التحقت من جديد بالعزاء، وكنت أكثر حماسة دون أن اظهرها، التقيت من جديد بأكبر صادقي وهو يهتف بقوة داخل العزاء، كانت السوق الممتدة بين الإمامين مليئة بالخانات والقيصريات، والبيوت، بينما تنظر النساء من شناشيل الطابق الثاني بعد ان فتحت درفاتها،

البعض منهن يقفن عند الباب ليلطمن أو يبكين، بعض البيوت توشحت بقطعة صغيرة سوداء، وبعضهن كن يضعن عند الشباك العالي من الطابق الأول، أو من شناشيل البيت الرايات السود والخضر والحمر.

عندما وصل موكب العزاء إلى باب الإمام الحسين، انسللت على جنب، ومن ثم تحركت إلى باب الخروج من الجهة الثانية المقابلة لشارع العادلي، لكن العزاء تأخر أكثر مما تأخر داخل الامام العباس، وعندما خرج العزاء، سألت اكبر صادقي عن سبب تأخرهم، فرد عليّ: بأن قارئ الموكب يصعد المنبر ويقرأ قصيدته لنلطم تحت منبره، وبعدها نخرج من جديد، لم يكن سؤالي عن خبث وانما عن حب استطلاع، والآن أصبحت الصورة واضحة عندي عن سير المواكب كلها، ثم أتجه الموكب إلى نقطة انطلاقه الأولى داخل السوق إلى حيث التكية.

ودع أكبر الموكب على أمل اللقاء في اليوم التالي وتبعته، كنت فرحا بما قدمته اليوم لنفسي ولمعرفتي بأسرار العزاء الحسيني، وأسباب خروجهم في اليوم السابع وحتى التاسع، وصلنا إلى البيت، عندما طُرقت الباب، هرعت ريم لفتحها، ولم تنتظر أبنها يسع ليقوم هو بذلك، وعندما وجدتني على الباب مع أكبر أخذتني بالحضن دون أن ترعى وجود أكبر كغريب، وجدت لهفتها وتوترها مشروعا فطمأنتها أنني بخير وقد خرجت بالعزاء مع موكب التجار مع أكبر صادقي وان الأمور على ما يرام.

كانت ريم مشغولة البال عليّ، وما سأتعرض له ان شاركت في العزاء، مع أن زوجة أكبر سعت إلى طمأنتها من ان المجتمع الكربلائي مجتمع

يتقبل الغريب والمختلف، وكيف أنهم كمهاجرين ايرانيين سكنوا كربلاء من قبل دون أن تحصل معهم أية مشاكل باستثناء الطبيعية التي تحصل في أي مجتمع، لكن ريم لم تكن تقنع بكلامها، لأنها تتكلم على أساس أنهم من دين ومذهب واحد، أما هي وزوجها فهما مختلفان تماما عن المجتمع الكربلائي في الدين ومتشابهان في الانتماء للوطن.

في ضحى اليوم التالي، خرجت مع صادقي وقد أخبرني ان الجالية الهندية لديها موكب عزاء كبير سيخرج مبكرا تشارك فيه أميرة ويجب ان نشاركهم العزاء، فوافقته الرأي على أن يسرد لي ما يدور داخل الصحن الشريف بعد ان أقف بانتظاره، فلم يمانع في ذلك وتوجهنا نحوه، كان عزاء الهنود يخرج من بهو (الإمام باره) في فيض حسيني ويرفعون هيكلا مشابها، ومهدا رمزيا، ويسيرون خلفهما حصانا خاصا ابيض اللون ملطخا بالدماء كانوا قد اعدوه من قبل لهذه الغاية، ويعرف هذا الحصان عند الهنود بـ(ذي الجناح) وعليه وضع السرج الفضي وفي مقدمة الحصان يسير شخص يحمل مظلة كبيرة مصنوعة من الذهب المطرز بالحرير والديباج يقي الحصان من حرارة الشمس، يتقدم هذا الموكب حملة الصولجانات الذهبية والفضية بشكل منسق ويحيط بموكب ذي الجناح (السبايا) العزاء حاملين تلك الرايات المزركشة وعلى بعد مسافة قليلة من موكب ذي الجناح يسير موكب الطبالة، وأصحاب الصنوج المطلية أيضا بالذهب والفضة وخلفهم موكب عزاء السيدة (تاج دار باهو) يحف بها الخدم والحشم من النساء والرجال لاطمين على الوجوه والصدور، وبين حين وآخر ينادي النائح (يا حسين يا حسين) بينما يقوم جماعة آخرون منهم بضرب ظهورهم يمنيا ويسارا بسلاسل الحديد ذات الرؤوس التي تحمل

سكاكين صغيرة، فيسير موكب عزاء الأميرة الهندية على هذا المنوال من بهو (الإمام باره) فيقصدون الصحن الشريف بين زغاريد النساء الهنديات الباكيات النائحات اللاطمات على الخدود الناثرات الشعور تتوسطهن الأميرة وهي مجللة بالسواد حافية القدمين تنثر على رأسها التبن والتراب وتنشد الترانيم الهندية الشجية، فيسير الموكب على هذا النحو حتى مشبك المذبح الواقع في الزاوية الغربية من الصحن، فيضع هذا الحيوان ذو الجناح المدرب تدريبا خاصا رأسه على المشبك ويذرف الدموع، ثم يرتقي المنبر أحد الخطباء من الروضخان الهندي وينشد الترانيم الشجية التي تثير أعمق الأثر في نفوس السامعين، وبعدما ينتهي الخطيب من قراءة نوائحه تتقدم الأميرة وبيدها قدح مملوء بالحليب الممزوج بالزعفران فتسقي ذا الجناح وعندما يكرع هذا الحيوان الخليط تنتقل الأميرة القدح لتسقي الناس المجتمعين مما فيه تيمنا وتبركا. ثم يسير هذا الموكب بهذا الشكل ويطوف بشوارع كربلاء حتى يصل المخيم فالروضة العباسية، ثم يعود إلى بهو (الأمام بارة).

بينما اتفقت ريم وبضغط مني ان تخرج وأولادها مع أم أكبر صادقي وزوجته وأبنتيها، إلى حيث تقف النساء تواسي وتعزي الامام الحسين وتشارك المجتمع أحزانه، لأنني اخبرتها بأنني سأتأخر كما الامس، لم تعتد ريم الخروج من البيت طيلة الفترة الماضية، كانت تعدها مغامرة غير محسوبة العواقب، صادفت أثناء مسيرها نحو باب الإمام العباس زوجة الحاج جودي وابنتها التي تبلغ الخامسة عشرة أو تزيد قليلا، شعرت ريم بفرحة غامرة رغم الحزن الذي يحيط بالمكان، فهناك فرق بين أم أكبر كضيفة مفروضة عليها، وزوجة جودي كصديقه تختارها،

وتقضي معها بعض الأيام الجميلة، أصبحت تمشي بأريحية أكبر، كانت مشاهد العزاء وأفواج المعزين تترى نحو الباب، وكل عزاء يحمل اسما خاصا بمنطقته، والمشاعل التي تنير المكان، واللطم على الصدور يثير الشجون في قلوب النساء، فيلطمن هن كذلك.

في ليلة التاسع من محرم، كانت ريم تسمع مصطلح لم يخطر على اذنها من قبل وهو (الحجة) وعندما سألت ام أكبر عنها، أجابتها بأن الناس لا تنام في هذا اليوم، وبالخصوص المعزين للإمام لأنه سيقتل في يوم العاشر من محرم، فتحج الناس ليلا في التكايا وبعضهم يضرب رأسه بسكين كبير يدعى (التطبير) وجه الصباح، ومن ثم يذهبون إلى الحمامات العمومية ليغتسلوا ويذهبوا لبيوتهم وليناموا لأنه بعد صلاة الظهر سيخرجون من جديد في عزاء كبير تجتمع فيه كل مواكب أطراف المدينة الثمانية ومن لم يشترك معهم من الأجانب والأغراب تحت اسم (ركضة طويريج).

كنت مع ضيفي أكبر صادقي قد قررنا ان نبيت ليلتنا في التكية ومن ثم سألته عن ركضة طويريج فأجابني: ركضة طويريج هي ركضة أنشأها العلامة السيد صالح ابن الامام فقيه عصره السيد مهدي الشهير بالقزويني، والميرزا صالح القزويني وهو ثاني أنجال الامام السيد مهدي الحسيني القزويني وأحد اقطاب النهضة العلمية والادبية بالحلة. ففي طويريج وهو أحد ألأقضيه التابعة لمتصرفية كربلاء بدأت الركضة يوم العاشر من محرم، وذلك عندما كان الناس يستمعون إلى قراءة المقتل الحسيني في الدار الكبيرة للسيد القزويني ومع نهاية المقتل ضجَّ الناس بالبكاء والعويل والنحيب بشكل لا ارادي حتى فقدوا مشاعرهم لهذه

الفاجعة وطلبوا من السيد صالح القزويني بالذهاب إلى المرقد المقدس لسيد الشهداء لتقديم العزاء، وفعلاً استجاب السيد لطلب الناس حيث اركبوا السيد على ظهر الفرس ثم تقدمهم بالمسير وهم يسيرون خلفه وفي الطريق انضم اليهم جموع من المعزين، واصبح الموكب هذا أشهر المواكب الحسينية على الإطلاق إذ يمتاز بالركضة ولان غرضه التعبير عن الاستجابة لقول الامام الحسين وهو الا من ناصر ينصرني... فتخرج الآلاف تعبيرا عن تلبيتها لندائه، وفي كل عام تبدأ الركضة من قنطرة السلام التي تقع على طريق طويريج فسميت الممارسة بركضة طويريج، تبدأ بعد أذان الظهر بالضبط وهو الوقت الذي يسقط فيه الامام صريعاً على رمضاء كربلاء وتتقدم الجموع البشرية وهم يلطمون على الرؤوس وينادون يا حسين يا حسين فينطلقون من القنطرة مروراً بشارع الرئيسي وصولا إلى شارع الامام الحسين ثم يدخلون إلى الضريح الشريف من باب قاضي الحوائج ويخرجون من الباب المقابل لمرقد ابي الفضل العباس فيجتازون منطقة بين الحرمين إلى ضريح ابي الفضل العباس وعند خروجهم تكون قد انتهت هذه الممارسة الدينية، كنت وانا استمع لأكبر اهز رأسي موافقا ما يقوله.

كانت ريم في كل يوم تكتشف سرا من أسرار المدينة، وعلى ما يبدو ان الحياة تنبعث من جديد فيها عند كل بداية محرم، فالناس بمختلف مشاربهم يتوحدون في هذا الشهر، لا فرق بين شيخ العشيرة أو وجيه من وجهاء المدينة وبين عامل بسيط، إلا ويخرج في عزاء الطرف الذي ينتمي إليه سكنه أو عمله، كما يشاع إخراج أزوار الماء وطاساته النحاسية إلى الشوارع تحت اسم (السبيل) بالرغم من ان الناس تشتري الماء بالفلوس

ولكن تعطيه مجانا لمن يشرب. كما لاحظت ريم ان البعض ينصب القدور الكبيرة السوداء ليطبخ الطعام للجميع دون تمييز.

في يوم العاشر خرجت وزوجتي إلى بداية الشارع حيث تتجمع الأهالي لمشاهدة اضخم عزاء في المدينة، بينما فضل أكبر صادقي أن يأخذ أهله إلى حيث قبلة الإمام الحسين لينتظر العزاء هو كذلك دون ان يشارك فيه كما إعتاد أهل التكايا، عندما ارتفع صوت أذان الظهر، نهض بعض الأهالي بعد ان كانوا جالسين، وبدا من بعيد يتقدم صوت لم اسمعه من قبل وكذلك زوجتي. يرج أزيزه الشارع وكأنه يرتعد تحت أقدام المنتظرين قدومه.

على جانبي الشارع كان الأهالي وأغلبهم من النساء على استعداد نفسي كبير لاستقبال العزاء والراكضين والمعزين، بعض الأهالي يجلسون على سطوح البيوت والمباني والخانات، هم أول الناس الذين نهضوا من أماكنهم، وبدأت النسوة تلطم على رؤوسهن وهن يصرخن (يا حسين) فنهض من كان على طرفي الشارع استقبالا للقادمين بالبكاء واللطم على الرأس وهن يصرخن (يا حسين)، تقدم الركب سيد هاشمي يرتدي عمامة سوداء ويلف رقبته وكتفيه بشال أخضر وهو راكب على حصان أبيض ويحمل راية رسول الله، فأرتج المكان بالصياح والنواح والبكاء، وتوحد الصوت بالصراخ (يا حسين).

شعرت ريم برجفة تخترق جسدها دون وعي منها، بدأت تهتز وهي تحاول ان تتمالك أعصابها، شعرت بها والعاطفة تخترقها من مفرق رأسها وحتى أخمص قدميها، فأخذت يسع ودانيال بيدي، وهما

يصيحان (يا حسين) دون وعي منهما، وانما وجدا الجميع يصيح الهتاف فهتفوا مثلهم.

بانت الرايات الكبيرة الخضر والسود والحمر، وهي تحيط بالسيد الذي يركب الحصان، وجموع الشباب تلطم الرؤوس والصدور، وهي تصرخ (يا حسين) تقدم الركب حتى وصل مشارف المدينة القديمة فبان حجمه الكبير قياسا للشارع غير المعبد وقد ازدحم بالأهالي وهم يبكون وينوحون ويلطمون على الرأس، لم تتمالك ريم نفسها، فأخذت تبكي وتصيح مع النساء (يا حسين) وعندما وجد يسع ودانيال أمهم تبكي وتلطم، أخذا يبكيان هما الآخران ويصيحان (يا حسين) كان موقفا رهيبا تقشعر له الأبدان، والحشود تتقدم باتجاه الشارع المؤدي إلى الامام الحسين وهي تصيح وتندب تخاذلها عن نصرته.

ارتج المكان، ورفرفت الرايات، وطار الحمام الأزرق الذي كان ينظر من أعشاشه المعلقة على الشناشيل والأراسي وفوق المزاريب وعند طلعات البيوت، تلبدت السماء بالغيوم السوداء مواسية ومعزية، اختمر الجو بالحزن وكأنه مُعباً قبل عام لينفجر في مثل هذا اليوم.

توقفت الحياة نهائيا، واشرأبت الأعناق باتجاه موكب العزاء الجرّار، ارتجفت الحيطان، وسيل الأصوات يخترق آذان كل شيء حي، لم يعد من صوت سوى صوت (يا حسين) يخترق كل مكان في أزقة كربلاء القديمة، استمر العزاء لأكثر من ساعة، والجموع على المستوى الواحد من الحماسة والهتاف.

* * *

عم سوق القماش كساد كبير، فلا أعراس تعقد، ولا ختان، حتى من تلد الولد بعد انتظار طويل تكتم فرحتها، النساء تتوشح بالسواد مثل أشجار الخريف، بينما مجالس العزاء التي تعقد في الأسواق والخانات وبعض البيوت التي تقدم الشاي والجرك، تنوح بالبكاء، كان أكبر صادقي على منهاج واحد يخرج معي ونفترق عند الدكان ليعود بعد اذان الظهر واصطحبه إلى البيت لنعود ونخرج عصرا ونعود قبل آذان العشاء للبيت.

بدأت طلائع أصحاب المواكب من خارج المدينة، تلوح في الأسواق وهم يبحثون عن أماكن لاستئجارها كي ينصبوا مواكبهم فيها لتقديم عزاء الأربعينية الذي يُعد من أكبر احتفالات المدينة، وبعضهم يشارك أصحاب البيوت بيوتهم ليقيموا طقوس العزاء والحزن والزيارة، يقدم إلى المتصرفية كثير من المواكب الحسينية والتي تحمل أما أسماء عشائرهم أو حرفهم أو اسماء آل بيت النبي، وهذا تقليد اتبعه أتباع المذهب الأثنى عشري تأسيا بجابر بن عبد الله الانصاري وهو أحد أصحاب الحسين الذي تجاوز عمره المائة عام وجاء لزيارته وأهل بيته وأصحابه بعد أربعين يوما على مقتله حتى أصبحت سنّة وجزءا من عقيدة المذهب، وأصبح الفقهاء يثقفون لهذا اليوم.

حمل أكبر صادقي معه من ايران بعض التبرعات من أجل نحر الخراف والعجول ونصب موكب يقدم الخدمات للزائرين في يوم الأربعينية، عندها سألته ان كان بإمكاني التبرع بمبلغ مساهمة في إحياء هذه المناسبة وتقربا لرب موسى الذي هو إله الجميع، لم يمانع أكبر ذلك بل فرح كثيرا، وزاد على ذلك أنه أشاع بين التجار انني تبرعت

بمبلغ مالي من أجل إحياء المناسبة، لكني أنّبته على تصرفه، وفي سرّي كنت ممتن وفرح لتصرفه.

في المناسبات الدينية كانت تتزاحم الأسواق بالعمائم السود والبيض، والسداري بألوانها الغامقة، والطاقيات الأفغانية المفتوحة من الأمام، والطاقيات الهندية المزركشة والمفتوحة من الخلف، والكلاوات، والعرقجينات، والعكل المتربعة على الغتر البيضاء واليشماغات، وتتزاحم أكثر في المرقدين الشريفين.

قبل ثلاثة أيام من المناسبة كانت الأسواق قد ازدحمت والخانات قد امتلأت بالناس من الأعراب والأرياف من مختلف الألوية والأقضية العراقية، وكذلك بعض المسافرين من الأجانب من الدول الإسلامية والمناطق العربية، ولأول مرة شاهدت ريم الجمل، الذي أثار فضولها، بينما كانت بعض المواكب التي نصبت خيامها عند رأس سوق العلاوي قد جلبت جاموسا اسود ضخمة الجسم، كان مروعا بحجمه، حتى ان ريم وقفت على جنب من حجمه الضخم، وراحت تتبحر بجسمه الضخم، ثم هرعت للبيت مرتبكة، وأخبرت أم أكبر عن الذي رأته فضحكت الأخيرة من تعجبها بمظاهر الحزن ومراسيم الطقوس التي يقدمها هؤلاء الناس البسطاء في محبتهم للحسين وللدين ولله أصلا.

انتهت طقوس الزيارة وكنت قد ساهمت بالطبخ مع أكبر صادقي في تكية التجار، وأصبحت علاقتي أقوى من قبل وأصبحت اعرف أسرار جديدة عن الأربعينية وطقوسها، كما أصبحت اعرف العشائر القاطنة في المدينة من المسعود والسلالمة واليسار والطهامزة وغيرهم من القبائل

والعشائر الأخرى كما تعرفت على بعض البيوتات الكربلائية ومجالسهم مثل بيت كمونة وآل النقيب.

ودعني صاحب البيت أكبر صادقي وأهل بيته، بينما انعصرت ريم وتمسكت بأمهم وطلبت منها البقاء معهم لشهر آخر، لكنها شكرتها لشجاعة كرمها، وحسن معاملتها وتمنت لها الصحة والسلامة، عادت ريم إلى بيتها حزينة مكسورة الخاطر بعد اصرارها على إيصالهم حتى نهاية سوق العلاوي، بينما ودعت صاحبي بالأحضان والقبل متمنيا له عودة سالمة على أمل لقائه في محرم المقبل.

عم الصمت البيت بشكل مريب، فبعد ان كان ممتلئا بالحركة والطبخ والنفخ، أصبح جثة هامدة، فطلبت ريم مني اخراجهم إلى الأسواق وحول الإمامين، عسى ان تسكن مهجتها، وتعود إلى حياتها الاعتيادية بعد ان شعرت بوحدة قاتلة من غير ان تخبرني، رغم ان زوجة جودي كانت تأتيها أكثر من مرة في الأسبوع، لكن وجود عائلة أكبر صادقي قد منحتها الحياة من جديد، فبقاؤهم معها لأكثر من أربعين يوما جعلها تعتاد عليهم، والأهم أنها كانت تعتقد ان المسلمين يصنعون حواجز نفسية واجتماعية مع اليهود، ولكنها وجدت عكس ذلك، فهم على نفس المستوى من الاحترام مع الآخرين دون تمييز في عرق أو دين أو طائفة، ما جعلها تحب كربلاء وتتمسك بها.

VI

شراء البيت

لم يمض على مغادرة أكبر صادقي شهران، حتى عاد مع امه من جديد، وتفاجأت بعودته من جديد، دخل إلى حُجرة السلامليك وعلامات الحزن تتصدر وجهه بينما ذهبت امه إلى حُجرة الحرم، كانت الساعة الواحدة ظهرا، جاءت ريم لتسلم عليه، وتسأله عن زوجته وتعاتبه كونه أتى من غيرها، رد عليها أكبر بحزن واقتضاب بأنه معذور في ذلك لظرف طارئ ألم به، فشعرتُ ان أكبر تحصره غصة ولا يريد الكلام، عندها طلبت من زوجتي إعداد الغداء، وقصدتُ أن تتركه، وان يتكلم متى أراد ذلك، لكن أكبر لم يطل صمته، فقال:

- ان والدي توفى أثناء وجودنا في كربلاء، وحصلت مشاكل مع أخوتي وأخواتي في موضوع الارث، فقد أصروا على بيع التركة كلها وتقاسمها حسب الشرع، وأنني خجل إذ أخبرك ان أخوتي يريدون بيع هذا البيت، بالرغم من معارضتي وأمي لهذا الموضوع.
- هذا حقكم وانتم أحرار في بيعه من عدمه.

جاءت ريم بصينية الغداء، وأخذتها منها، ووضعتها أمام أكبر، ثم ذهبت خلفها لآتي بطاسة الماء واللبن، وأخبرتها ان أكبر جاء ليبيع

البيت، فهل لك رغبة في شرائه، ردت علي السؤال نفسه ان كان لدي رغبة في شرائه، كنت رغم بقائي لأكثر من ثمانية شهور في المدينة، ومعرفتي لأغلب أسرارها، ونجاحي في العمل وتميزي عن التجار الآخرين، إلا انني لم اكن ارتكز على قاعدة حقيقية وهو امتلاكي لشيء استند عليه في ضعفي، وكثيرا ما فكرت بشراء عرصة فارغة لأبنيها، بعد ان راقت لي احداها وكانت مساحتها مائة متر توجد امام دار أسحاق صاحب المخزن الذي يبيع فيه الخمور، لكني لم اكن متأكدا من رأي زوجتي في ذلك، لذلك تركتُ الأمر داخلي دون الافصاح عنه امامها.

- متى تريدوني ان أخلي البيت، حتى أخرج غدا لأبحث عن بيت للإيجار بدلا عنه؟
- ان هذا الكلام يحزنني، ولكني مضطر لذلك، ولكن قبل إخلائك له دعني أعرضه في السوق، وأحسم سعره، ومن ثم أطلب مهلة التي تعجبك، حتى تجد لك بيتا مناسبا.
- أنا أشكرك على هذه الخدمة.
- لا ضير فأنتم أناس محترمون وقد أكرمتم وفادتنا طيلة شهري محرم وصفر، وأمي ممتنة من زوجتك، وقد جئت بها لأن البيت باسمها.
- أشكرك.

عدتُ وأكبر صادقي سيرتنا، في الخروج بعد قيلولة بسيطة، فالنهار قصير، ولا يمكن أن يضيع العصر هباء، استقبلت السوق أكبر بالترحاب، وسأل عن سبب مجيئه المفاجئ، وأخبرهم عن وفاة والده، فبدأ الجميع يتوافد عليه للأخذ بعزائه، وبعد انتهاء مراسيم العزاء البسيطة، أشاع في السوق من أن بيته معروض للبيع.

بعد بقاء أكبر لأكثر من أسبوع وصل إلى تقييم البيت، وكان في الليل يخبرني عن الأسعار التي تعرض عليه من قبل بعض التجار وأصحاب الخانات، وكنت اضمر في نفسي رغبة الشراء دون التصريح بها، حتى إذا ما استقر على السعر النهائي، طلبت منه أن يبيعه لي، ففرح بذلك بل وخصم لي من سعره الذي اتفق مع التاجر عليه.

* * *

صباح اليوم التالي قررت وأكبر صادقي الذهاب إلى بغداد، من أجل جلب مبلغ البيت، وقد جرت بيننا بعض الأحاديث المتقطعة، رغم انشغال بال كل منا بمستقبله، ولكن كان لا بد من المجاملة احدنا للآخر، حتى نتخلص من ملل الطريق، فسألته:

- لازال الحزن باد عليك رغم مرور فترة طويلة على وفاة والدك؟
- أنا متأسف لأنني لم أحضر وداعه، كوني أبنه الأكبر وكنت أتمنى أن ألبي رغبته الأخيرة.
- أنت رجل مؤمن، والأعمار بيد الله وهذا أمر لا يمكن لنا نحن البشر ان نعلمه.
- كنت على علاقة وطيدة مع أبي، كان كنز من التجارب والحكم، أتعرف... يعتقد ابي بحكمة وقد خطها وسط حُجرة السلامليك بخط عريض: ما جمع مال إلا عن بخل أو حرام.
- وهل انت تعتقد بها؟
- كل الاعتقاد... وما رأيك أنت؟
- أنا أعتقد بالحكمة التي أجترحتها لنفسي: ما جمع مال إلا عن حظ

أو ارث. أما الشائع عند اليهود فيقولون: ما جمع مال إلا عن صالة قمار أو فندق.

ضحك أكبر رغم الحزن الذي يرتسم على وجهه، ومن ثم ضحكت، بعدها قال أكبر بنوع من الأريحية:

- اللطيف في حكمتك أنها بعيدة عن الآخرة وقريبة من الدنيا رغم غيبيتها في موضوع الحظ. ومثلها حكمتكم الشائعة.
- نحن اليهود لا توجد عندنا عقدة الحلال والحرام، فنحن نقدس العمل، ولم يهيمن علينا الدين يوما رغم أننا الديانة التوحيدية الأولى على وجه الأرض.
- أهم شيء في الحياة هو الدين، فالأنسان في الدنيا زائر خفيف الظل عمره مثل عمر الذبابة، يعيش أياما معدودة، وبعدها يموت لتبدأ دورة الحياة من جديد.
- بينما أعتقد أن الحياة هي أثمن شيء على وجه الكون، ولا بد أن يعيشها الإنسان وهو مسيطر عليها، لا مسيطرة عليه، الحياة هي مجموعة من الملذات أو اللذات، منها لذة الطعام، الجنس، النوم، الحزن، الضجر، الحنين، الأصدقاء، لذة الحرب، السلم، الأولاد... الخ، ولكن أهم لذة في الكون هي لذة الوجود التي يجب ان نعيشها بكل تفاصيلها، ان لذة المال تأتي بالدرجة الثانية، تتبعها لذة الجنس، هذا هو الثالوث الذي يجب ان يتحرك فيه الأنسان، ليكسب لذة العيش وما بعدها هي افراز لهذه اللذات الرئيسة، لكنكم انتم المسلمون تغلفون هذا الثالوث بغطاء ديني مقدس وعندها ستتحول الأشياء إلى مفروضات في المجتمع بعد ان

تشيع بين الدهماء لتصبح من عاداتهم وتقاليدهم، وعندها يصعب اجتثاثها، فالمال أعز ما يملكه الإنسان في الحياة، ولكن المسلم يجمعه من الحلال والحرام كي يعطيه متوسلا القبول، والجنس الذي هو ناموس الإنسان يوافق بل ويباركه بالدين، أما الحياة فهي اهم شيء بالنسبة للإنسان لكنه يرخصها من أجل الدين.

- لأننا لا نملك أنفسنا، بل نحن موكلون بها، ومثلها توافه الحياة التي نعيشها من المال والجنس بل والحياة كلها.
- وهذا هو الفرق، انك تتفه الأشياء وبذلك تجعل الحياة جحيما، وأنا أقدس الحياة وكل ما يحيطها من إفرازات، فأجعلها سعيدة.
- لكل منا وجهة نظر في الحياة.
- بل أنت تتكلم من وجهة نظر الدين، وأنا أتكلم من وجهة نظر الحياة.
- ربما أنت على حق.

وصلنا ظهرا إلى بغداد، كانت أضلاعنا تأن من كراسي الباص الخشبية وأطرها الحديدية، فضلنا الاستراحة قليلا عند بائعة شاي تفترش الأرض بجودلية ملونة ومعرشة عند نهايتها، ومن ثم ذهب أكبر صادقي ليفك اسره، وبعدها عاد مرتاحا وكأنه كان يحمل جبلا على ظهره، استأجرت ربلا إلى شارع النهر حيث دكان الصياغة الخاص بي وشريكي، طلبت منه ان يأتينا بالغداء فقد صرف باص الخشب الفطور، ونحن جياع بشكل فظيع، فضحك سليمان شريكي الذي نهض من كرسيه من خلف الطاولة التي أمامه لاستقبالي وضيفي بعد ان ركز نظارته على وجهه بسبابته اليسرى، طلب من أبنه أن يأتينا بصينية غداء على وجه السرعة، استغليت فترة انتظار الغداء وقلت:

- أريد بيع حصتي من الذهب والدكان معك.

ضحك سليمان مما قلته، ولكنه وجد ملامح الجدية على وجهي، وسألني:

- انا أرفض الشراء ومستعد ان اقرضك المال الذي يكفيك.
- لكنني مصر على البيع، ولا احب ان أبيع إلى غيرك.
- وما السبب الذي تريد من اجله بيع حصتك؟
- لقد اشتريت بيت الحاج أكبر صادقي (وأشرت بيدي عليه)، وان المبلغ المطلوب كبير، والأهم أنني اريد ان أصفي عملي هنا في بغداد وأفتح مشاريع جديدة في متصرفية كربلاء، وقد حزمت أمري على الاستقرار نهائيا فيها.
- لكن حصتك من الذهب تكفي لسداد مبلغ أي بيت في بغداد وليس في متصرفية كربلاء، فلماذا تبيع حصتك بالمحل؟
- لا أريد أن أكون عالة عليك، وانا محتاج إلى سيولة مالية، فكربلاء مدينة بكر، والتجارة فيها رائجة، رأيت ذلك بأم عيني، يقصدها المئات ان لم يكونوا الآلاف من الزوار العراقيين والغرباء، والأهم هي بعيدة عن الاضطرابات السياسية الموجودة هنا في بغداد.

عندما وجدني سليمان مصرا على البيع، فانتظرني حتى اتم غداءنا، وذهبنا معه إلى بيته كي يعطيني قيمة الذهب نقدا، لأن سعره معروف في السوق، أما تقييم الدكان فسيُترك امره للسوق، فلم امانع من ذلك، وما ان اتممنا غداءنا حتى ذهبنا معا، كان البيت فخما من الخارج وبابه الخشبية مزينة بالنقوش والحفر على واجهتها، ومدق نحاسي على شكل رأس أسد على درفته اليمنى، عندما دخلت وأكبر إلى فنائه الذي تتوسطه

حديقة غناء من النخيل والأشجار، وشذر وان دائرية الشكل، كنت أعرف البيت جيدا، فدخلنا إلى حجرة السلامليك، المجهزة بالتخوت الخشبية المنجدة بالمخمل الأخضر والمطرزة على شكل حديقة تتوسطها آدم وحواء تحيطهما بعض الحيوانات الأليفة، يتوسط الصالة طاولة خشبية مخرمة من جوانبها بنقش اسلامي تعلوها زجاجة، وضعت عليها مزهرية فيها أوراد وبعض أغصان الآس ومنفضة سجائر نحاسية.

بعد قليل جاءت زوجة سليمان لتسلم عليّ وصديقي وهي تحمل صينية العصير، حاسرة الشعر وجهها دائري، عيناها سوداوان مثل ليل قاتم، يعطي لوجهها نوعا من السحر، تتدلى من أذنيها أقراط حتى رقبتها البيضاء كالفضة، تفوح عطرا نفاذا، كفاها ابيضان بأصابع طويلة وأظافر مصبوغة بالمنيكير الأحمر تطرزها بعض المحابس الذهبية بفصوص زرقاء مخضرة، ترتدي قميصا أصفر مفتوح الصدر تتدلى وسطه قلادة تنتهي بمدالية عبارة عن بناء لأكثر من طابق، وبنطلون يضيق عند الحوض والأرداف ويتسع في أسفله، ومن ثم جلست مقابلي تسألني عن ريم وأولادها بعد ان وضعت رجلها اليمنى على اليسرى، فتعجب أكبر صادقي لسلوكها، والتي تتكلم معي بحميمية لم يعهدها من قبل مع النساء من أقاربه فكيف بالأجنبيات؟

جاء سليمان بالمال وقد وضعه بكيس كاغد جوزي اللون من الحجم الكبير، ومن ثم جلس قرب زوجته، أخرج المال من الكيس وعده أمامي ومن ثم أعاده بدوره إلى الكيس ومن ثم أعطاني أرباح الشهر المنصرم، وبعدها أخرج ورقة تنازل وقدمها لي لأوقع فيها التنازل ووقعت زوجته كشاهد ومثلها أكبر صادقي. واتفقنا على ان اعود بعد أسبوعين يكون

فيها قد تم تقييم الدكان لمعرفة نصيفتي وأخذ حصتي، ثم نهضنا مودعين سليمان وزوجته مؤقتا على أمل اللقاء القريب، من أجل توقيع عقده.

طلب أكبر صادقي مني الذهاب إلى الأمام الكاظم من أجل الزيارة فهي فرصة ثمينة بالنسبة له، ربما لا تتكرر في السنين القادمة، لم امانع في ذلك ولكني طلبت منه الذهاب إلى بيت عمي أولا لأضع المال عندهم وبعدها نذهب إلى حيث شاء، استأجرت ربلا إلى حيث بيت عمي، ومن ثم الذهاب بنا إلى منطقة الكاظمية.

صباح اليوم التالي عدنا إلى كربلاء، ونحن حريصان على ان لا يظهر علينا أننا نحمل مثل هذا المبلغ الكبير، فاشتريت بعض الهدايا البسيطة، ووزعت المال بين الأكياس بعد ان حصرت أغلبها بيني وبين جهة الشباك، حتى لا اثير الاهتمام أو الانتباه أليه.

* * *

أولمتُ وليمة كبيرة ودعيت لها أغلب تجار السوق، كما وطلبت من أكبر صادقي أن يدعو أقاربه وأصدقاءه ومن يحب، وكان جودي وفاضل قائمين على خدمة المدعوين، كنت فرحا جدا لأني أصبحت امتلك بيتا وأصبحت من أهل المدينة، والأهم انني أردت أن يشاع بحضور الجميع من أنني اشتريت البيت وبحضور اكبر صادقي وأهله وأقربائه، لم يكن ايا من المدعوين يعرف السبب من وراء الوليمة، وما ان أتموا اكلهم وبدأت صواني الشاي بالإستكانات المموهة حافتها بالذهب تهلهل تحت أيادي التجار حتى سألني أحدهم عن سبب الوليمة، فأجبته بأنه اليوم الذي ولدت فيه من جديد في هذه المدينة، بل في الحياة كلها،

كوني اشتريت البيت الذي تجلسون فيه الآن من الحاج أكبر صادقي وقد تم تحويل ملكيته. فرح بعض التجار وغضب البعض الآخر من انهم تفاجؤوا بالخبر، وكان الأولى بهم أن يجلبوا معهم هدايا تليق بالمناسبة، فأجبت بأن حضوركم هو أغلى هدية بالنسبة له.

كانت ريم سعيدة جدا بإتمام تحويل ملكية البيت باسمي، وقررت ان تنجب طفلا، فقد أصبحت تمتلك جذورا حقيقية لعائلتها في هذه المدينة الطيبة، واستعدت لقضاء ليلة حمراء لا تشبه لياليها السابقة، بل أرادتها تشبه ليلة عرسها.

صباح اليوم التالي جاءت زوجة جودي وفاضل تحمل الأولى سجادة جدارية فاخرة حيك وسطها صورة للإمام علي بن ابي طالب وهو يتوسط أولاده ويتقدمه أسد باسطٌ ذِراعيْه بِالْوصِيدِ بفروته الكبيرة، بينما كانت الثانية يتقدمها أبنها وهو يسحب خروفا صغيرا، عندما دخلتا إلى البيت رفعت زوجة فاضل يدها فوق فمها وطفقت ترقص لسانها بين فكيها لتطلق زغاريد عالية أسمعت الجيران، فضحكت ريم من تصرفها، ومن ثم أخذتها بالأحضان، قالت زوجة جودي:

- خاتون اعرف انك من اليهود، ولكن علي يحبّه كل الناس، او ما حصل حجي جودي أغلى من هاي الهدية حتى أقدمها لجنابك خاتون.
- حجية انت إتشرفين بدون أية هدية، انت بمجرد ان وصلتِ هذا كلش كاف.

ثم قالت زوجة فاضل:

- خاتون، فاضل إيكول لازم إتسوون فجران دم، وهذا الطلي هدية إزغيرة، لأن أفضالكم إمغركتنا داده خاتون.
- أشكرك داده، والله أني كلش فرحانة إبشوفتكم، وهذا الطلي عندي يسوى أغلى هدية، لأن محبتكم تسبق هديتكم.
- أشكرك خاتون. والله يعلي مراتبكم ويرزقكم.
- تسلمين داده.

ثم جلسن في حُجرة الحرم، وكانت ريم سعيدة بامتلاكها البيت، وأصبحت تنظر له نظرة مختلفة عما كانت مستأجرة له، وطلبت مني ان ارممه بما يليق به، هذا ما كانت تخبر به زوجة جودي وفاضل ثم طلبت منهما أن يجدا لها خادمة تساعدها على إدارة البيت، ثم سألت زوجة جودي:

- أبني يسع عبر السابعة من عمره، واريد اسجله بالمدرسة وما أعرف وين المدارس في المتصرفية؟
- ماكو مدارس داده، اكو كتاتيب، ادّرسْ القرعان واتعلّم الكتابة، عن طريق الملا. مكانها بالصحن العباسي والحسيني. وحتى بالجوامع.
- لا عيني، أريد ابني يتعلم القراءة والكتابة والحساب.

عندها قالت زوجة فاضل وموجه كلامها لريم وزوجة جودي.

- لا عيني لا، أكو مدرسة ما أعرف شسمها، صارت كبل سنة، (وتقصد في عام 1918)، يكولون سواها بومة (وتقصد هنري بومان). بس يمكن خاتون التسجيل مو هسة، لان السنة راح تخلص.
- هم ميخالف، خلي ايمر فاضل حتى افتهم منه.
- تدللين خاتون.

ثم بدأت بعض نسوة الجيران، وكذلك بعض النسوة من اليهود بالتقاطر على ريم خاتون، وكانت الهدايا رغم بساطتها إلا أنها تعبر عن عمق المحبة والتواصل الذي أقدمت عليه ريم من قبل مع أغلب من تعرف عليهم من قبل.

خرجت إلى ما يشبه سوق الغزل لأشتري (علي شيش) بعد ان توحمت زوجتي به، كان سوق الطيور في أكثره يبيع دجاج العرب والبط والوز ببيضه إضافة إلى الحمام والفاخت، وبعض الطيور الحرة، التي يصطادها السماكة أثناء نصبهم لشباكم في الأهوار والمناطق المليئة بالقصب والبردي، كما يبيع طيور الزينة من البلابل والزيطة، والحمام الملون، بأقفاص خشبية صغيرة وكبيرة، بحثت عنه كثيرا حتى وجدته عند امرأة تفترش الأرض بأقفاصها الخشبية، وتلف رأسها بعصابة سوداء مثل عمامة شيوخ الدين، وقد ربطت قدمه بالقفص الخشبي، عندما سألها بكم تبيع (علي شيش). لن تتبين معنى كلامي، وسألتني عن طلبي، فرددت عليها بنفس السؤال بعد ان أشرت بيدي عليه. عندها قالت له هل تقصد (الفسيفس)، فلم أفهم معنى كلامها، ولكننا أتفقا عليه مع اختلاف اسمه.

القسم الثاني

I

حمام اليهودي

في احد الأيام ركنت قرب دكاني كالسكا، كانت عربة رائعة ذات عجلات من المطاط وفرسها أبيضا ينسدل عرفها من أعلى رقبتها، لها اذنان رقيقتان دقيقتان في الطرف، طويلتان، منتصبتان، ملساوان، صافيتان، كاللاقط بحيث تسمع وقع الحافر من مسافة طويلة. وحوذي ممشوق الجسد بملابس نظيفة ومقعد من المخمل، يرتدي بنطلونا أسود، وحذاء أسود من الجلد، وقميصا أبيض فوقه معطف جلدي دون أكمام، نزل الحوذي من مقعده مسرعا أمام السّلم الحديدي ذي السلمات الثلاثة والتي يضع السيد محمد حسن ضياء الدين قدمه عليها عند نزوله ليستقبله، ومن ثم تبعه أبنه، أسرع الحاج جودي ليخبرني بأن سادن (كليدار) الامام العباس على باب الدكان ويجب ان ينهض لاستقباله فهو من أعيان كربلاء وله مقام عال، فنهضت من مقعدي باتجاه مرحبا، ارفع يديّ مرحبا وانحني تبجيلا له، ضحك السيد محمد حسن لتصرفي، وما ان سلم عليّ حتى سألني:

- انت يعقوب اليهودي؟ واجبته بابتسامة:
- نعم سيدنا وأنا بالخدمة لجنابكم.

نزلت عند يده لأقبلها لكن السيد سحب يده، فذهبتُ نحو الصبي، وأخذت اقبل وجنته ومن ثم يده. تبعني الحاج جودي ليسلم على السيد ونزل على يده ليقبلها ومثله فاضل لكن السيد سحب يده، ثم تقدمت نحو السيد ادعوه للجلوس على كرسي، ومن ثم طلبت من جودي ان يأتي بشاي خاص له، جلست على الكرسي المقابل للسيد، سألته عن صحته، بينما السيد يتبسم لأفعالي وانا اتمسكن بطريقة فاضحة، جاء جودي بالشاي في استكان مذهب وعروة جانبية على صينية صغيرة وطاسة ماء نحاسية مطرزة من الداخل والخارج، وقدمها للسيد وهو محني الرأس. قال السيد محمد حسن:

- أريد أربع قطع قماش من النوع الفاخر، لأفصلها كبدلات وصايات، كما أريد قطعتين للسيد الصغير، لأفصلهما كبدلتين له.
- أنت تأمر سيدنا.

اشرت لجودي وطلبت منه ان يأتي بالصفّات للسيد كي ينتخب الخامة التي تعجبه، دخل جودي إلى المخزن وأخرج بعض الصفّات من النوع الفاخر والغالية الثمن، وجاء بها للسيد لينتخب منها ما يليق بذوقه، وبعد ان قلّب بها لأكثر من مرَّة، انتخب ما أراد، ومن ثم طلب جودي من فاضل ان يأتي بأطوال القماش للسيد كي يراها، فالصفّات قد تخدع النظر بعض الأحيان، ومن ثم أخذ جودي يفرشها أمامه ليتأكد من أن اختياره صائب، وبعدها ضرب المقص فيها بعد ان أخذ القياس وزاد عليها بعض الشيء، ثم وضع كل قطعة قماش في كيس كاغد كبير، وطلب جودي من الحوذي الذي يقف قرب باب الدكان أن يأخذها للكالسكا.

طلب السيد الحساب، لكني رفضت استلام أي مبلغ مقابل القماش،

فغضب السيد محمد حسن من فعلي، فتدخل جودي ليرطب الجو بيننا، فالسيد محمد حسن لا يقبل أن يتفضل عليه احد، بل هو من يتفضل على الناس، عندها شعرت بأن مجاملتي في غير محلها، فاعتذرت منه، وبررت فعلتي، بأنني أردت مجاملته، وان تكون قطع القماش عربون صداقة وتعامل مستمر، فتبسم السيد محمد حسن بوجهي، ومن ثم أخبره جودي بالحساب، فأخرج السيد من جيبه رزمة أوراق مالية كبيرة، وأخذ يعد لي الحساب، وبعدها أعطى جودي وفاضل إكرامية مقابل خدمتهما، فتقبلها كل منهما شاكرين فضل الكيلدار، ومن ثم مشينا خلفه وهو يتجه إلى عربته مودعين، وداعين له بأن تحفه السلامة والأمان.

كان والد السادن محمد حسن أغا هو أول شخص أدخل إلى كربلاء عربة الـ(كالسكا) ليتفقد أملاكه في منطقة العمشية على طريق عون. كما كان له حديقة تسمى حديقة أغا حسن تلك الحديقة الواقعة في الشمال الشرقي من الروضة العباسية الواسعة الأرجاء والتي أبدع بنّاؤها وهم من زوّار الرياض المقدسة ووضعوا فيها كل خبراتهم الفنية، حتى صارت تحفة صاغها مبدع، اما المسافة المزروعة وهي الأكثر سعة فقد جلبت لها البذور والشتلات من بلدان الفلاحين الذين أشرفوا ونفذوا تصميمها، فأصبحت وكأنها روضة من رياض الجنة، حيث الأزهار بألوانها المختلفة والحوض المغلف بالموزائيك ونافوراته التي تكركر بالماء، والمشاعل في أرجاء الحديقة.

لم يكن السيد محمد حسن أغا قد أشاد هذه الحديقة لنفسه أو لعائلته فقط، وانما أرادها لتكون ملتقى لرجال المدينة وعلمائها ومفكريها، حيث صارت الندوات اليومية تعقد فيها باستمرار، وغالبا ما كان

يحتفي برجال الفكر والعلم والأدب الوافدين للزيارة أثناء الاحتفالات المعروفة، وليحلوا ضيوفا على السيد الكليدار وهو ذلك الكريم الذي له من حسن الضيافة والبشاشة ما زادت وقاره وقارا وجعلت منه زعيما محنكا، لذلك شاع خبر الدار، وصارت قبلة الزائرين.

وقد حدث ان أصيب المرجع الديني الأعلى للطائفة الشيعية في حينه السيد (أبو الحسن الأصفهاني)، بوعكة صحية في النجف الأشرف، فأشار عليه اطباؤه ان يغّير مكانه لفترة استجمام، وحدد له حديقة السيد محمد حسن آل ضياء الدين في كربلاء، المكان المناسب، فأرسل سماحته من يبلغ محمد حسن بذلك، فما كان من السيد إلا ان غادر على الفور مع نخبة من السادة والعلماء إلى النجف حيث مقر المرجع الديني السيد (أبو الحسن) ليصحبه في موكب مهيب، وقد خرجت مدينة كربلاء عن بكرة أبيها لاستقبال زعيم الطائفة ليحل في بيت الكرم و(حديقة أغا حسن) وظل السيد أبو الحسن معززا مكرما حتى تعافى من مرضه، وعاد إلى مقره في النجف الأشرف.

في احدى المرات قررت زيارة أغا حسن بحديقته، وكنت آمل ان تتوطد علاقتي به أكثر، فذهبت برفقة جودي الذي تمنع من الذهاب في كونه من عوام الناس وأغا حسن لا يلتقي إلا كبار الوجهاء وشيوخ القبائل، لكنني لم اكن اشعر بداخلي أنني أقل من الآخرين، بل ان الشيء الوحيد الذي كان يضعفني هو شعوري بأنني من ديانة مختلفة.

استقبلني اغا حسن بكل احترام وطلب مني الجلوس قربه، كان المجلس فيه من مختلف شرائح المجتمع ولكن من صفوته، وكان

ذلك ظاهرا من أزيائهم المختلفة، بعضهم أفندية مع الطربوش الأحمر، وبعضهم يرتدي الزبون مع العقال المقصب، وبعضهم يرتدي الصاية والعقال الفراتي مع اليشماغ، إضافة إلى العمامة البيضاء والسوداء والحمراء، وبعضهم برتب عسكرية عالية يدير حديثا جانبيا، وبعضهم يكتفي بالصمت، بينما كان الآخرون في حوارات مستمرة، ما بين جلوس ووقوف، سألني أغا حسن عن أحوالي في المدينة، وأجبته بأنني في أحسن حال لكنني جئت استشيرك بأمر بقيت مترددا فيه فقلت:

- سيدنا أريد ان أبني حماما في نهاية سوق العلاوي، وأخاف البلدية أتعارض ذلك والمجتمع يرفض الاغتسال فيه.

ضحك السيد اغا حسن، ومن ثم قال:

- ولماذا تعتقد ذلك؟
- أنا أعرف حساسية موضوع النظافة والوضوء لدى المسلم تكاد تكون جوهرية، كونه يتعمد بالماء يوميا خمسة مرات وعندكم أنتم الشيعة ثلاث مرات.
- زين أنت تعرف حتى صلاتنا ومواعيدها ووضوؤها، توكل على الله، وباشر في مشروعك، ومن يعترضك أرسل لي خبر وأنا أوقفه عند حده.
- تسلم سيدنا، الله يطول عمرك.

كان موضوع بناء الحمام يؤرقني بشكل غير طبيعي، وبالخصوص بعد أن أشار عليّ بعض اليهود بأن احوّله إلى خان لشراء وبيع الحبوب، بدل من بنائه كحمام، فالمسلمون حساسون اتجاه النظافة، وإقامة طقوس الغُسل والتطهير وغيرها من المناسبات فيه، لكون صاحبه يهوديا نجسا.

شعرت بغبطة كبيرة من أنني أخذت الموافقة الشفهية من سادن الروضة العباسية، ومن ثم اعدت الحديث مع السيد بالقول:

- سيدنا أنا أجيد اللغة الإنكليزية والفرنسية، وقد سمعت أن بعض الضباط يرتادون حديقتكم، وأنا أحب أن أقدم أية خدمة لجنابك دون أن تغضب مني، ان كنت تحتاجني للترجمة، فأنا حاضر.
- تسلم، أنا شاكر خدماتك.

انشغل السيد اغا حسن بضيوفه، بينما اشار لي جودي بوجهه للشخصيات الموجودة في المكان، كان خليطا من الوجهاء والأعيان وشيوخ العشائر، رأيت احد تجار القماش في مكان قصي من الجالسين، فنهضت لأسلم عليه، فرحب السيد الذي يئم الآخرين في سوق التجار أثناء الصلاة في شهر محرم وصفر، وتعجب من وجودي، شعر انني وصلت إلى أهم شخصية في المجتمع الكربلائي وبأنني مصر على أن اكون أحد الشخصيات المهمة في هذا المجتمع الكربلائي الناهض.

دعا السيد اغا حسن الجميع للانتقال إلى حُجْرَة الطعام، بدأ الموجودون التوجه إليها يتقدمهم السادة وتبعهم الشيوخ والأعيان، وكنت وجودي آخرهم وتبعنا الخدم، كانت الخزائن تمتد على طول الحجرة وهي ممتلئة بالصحون التي تشبه الأبلام والمصنوعة من الفخار والخشبية المصنوعة من خشب البلوط والملاعق والشوكات والطناجر بأحجامها المختلفة والأقداح الموشحة بالذهب وبالرسم على شكل طواويس باللون الأحمر والكؤوس إضافة إلى الصحون، كانت المائدة الخشبية الطويلة قد غلفت بغطاء من الشرشف الأبيض، تتوسطها أطباق من اللحم الأحمر وتحيطها الأطباق الفارغة، كما توجد بعض أطباق

الحساء المختلفة والملونة، ومنها طبق السبزي وهي مرقة فارسية ومعناها اللون الأخضر، وطبق الفسنجون المفضل لدى كثير من الحضور بلونه الرمادي، كما وجدت أكثر من نوع للتمن وبألوان مختلفة، لم يتجرأ أحد على الأكل، حتى مد السيد اغا حسن يده على طبق اللحم الذي يتوسط المائدة ليبدأ الجميع بالأكل. خلف نوافذ الشبابيك كانت الحديقة الغناء بأشجار البرتقال والتين والورد الاحمر السام الذي تطن حول زهره الدبابير وعضد العنب يتقدم سياج من الآس، توجد بالقرب من مائدة الطعام مائدة متوسطة تحمل أنواعا مختلفة من الفاكهة والحلويات، بعد أن اتم الجميع غداءهم، وعادوا لحُجْرَة الضيوف الكبيرة، جلسوا على أرائكها الممتدة على طولها، فضلت وجودي الاستئذان من اغا حسن والرجوع إلى الدكان.

عندما خرجنا من باب البيت الداخلية إلى الحديقة، رأينا الكالسكا قرب الاسطبل والخيول تمد رؤوسها إلى المعلف بينما كانت الطريق التي تؤدي إلى الباب يحاذيها الآس من الجانبين وأغصان العنب وبعض أشجار النخيل تظلل على أشجار البرتقال، وزقزقة العصافير تزدحم عند أغصان الأشجار، وبعض حمام الفاخت، يسكن عند سعف النخيل بصمت.

II

شراء عرصة

استطعت ومن خلال علاقتي الطيبة بإسحاق صاحب المخزن، ان اشتري العرصة التي تتأخر مخزنه، وتطل بوجهها على (عگد اليهود)، وكنت قد رسمت في ذهني خريطة الحمام التي سأبنيه وفقا لها بعد ان دخلت حمامات كربلاء وآخرها حمام المخيم، وهو أكبر حمامات المدينة ويعرف بحمام فيروزة يرتاده أهالي المتصرفية وخاصة أثناء المناسبات والأعياد الدينية والرسمية كما يقصده الزائرون من الغرباء وأهل العراق. إضافة إلى حمام السنودي وشنطوط.

طلبت من جودي أن يجد لي أسطة مختصا ببناء الحمامات، ذهب جودي إلى موقف العمال ليتفق مع أحدهم ومن ثم أتى به إلى الدكان، وصحبته بدوري إلى العرصة، ثم استشرته في الخريطة التي يمكن إسقاطها على الأرض بحيث يكون الحمام على مستوى راق في البناء وإدخال الضوء.

والأسطة احمد شاب لم يبلغ الثلاثين من عمره بعد، أبرص الوجه وكذلك الكفين، يعتقد أن سببه في برصه شربه للبن أثناء أكله للسمك، لذلك كره السمك وأكله، أشار عليّ ان تكون الطمة والخزينة قريبة من

الباب حتى يسهل توصيل الحطب والماء أليهما، ومن ثم قربهما الباب الذي يتبعه دهليز حتى يصل الزبون إلى منزع الملابس وبعدهما حمامان متداخلان احدهما دافئ والآخر حار، وقد خالفت خريطة الأسطة عما كان في ذهني ووجدتها أجدى اقتصاديا فوافقت رأي الأسطة في كونه أعرف بتفاصيل البناء، ولأن العرصة صغيرة المساحة وهي من تحكم البناء وليس البناء من يحكم العرصة.

يحد العرصة من جهة اليسار خان الحمالين وهو خان قديم وفيه عنابر لتخزين الصوف، وسميت بخان الحمالين لتواجدهم في هذا الخان حيث يضعون عدة عملهم المكونة من (الزينبة التي تضع على الظهر والچنگال) وكل حمال له مسمار كبير على الحائط يضع عدة عمله عليه وكان لهم موكب عزاء في شهر المحرم وينزل هذا الموكب بأعداد ضخمة. ومن جهة اليمين بني بيت حديث، بطارمة تتقدم البيت تحملها أعمدة خشبية، وشناشيل تطرزها.

في صباح اليوم التالي، باشر الأسطة أحمد بحفر أساس الحيطان، بعد أن اتفقت مع صاحب سكلة قريبة توريده للمواد الإنشائية، استمر البناء أكثر من شهرين ومن ثم التجهيز لأكثر من شهر وبالخصوص نصب الخزانات وأحواض الغسل ومشاجب الملابس، والأهم كانت باب الحمام الخشبية المصممة من ردفة واحدة على طراز رائع من النقش والكاشي الكربلائي الذي يحمل اسم حمام الأمان، لكن ما شاع بعد افتتاحه اسم حمام اليهودي من غير ان يذكر احدهم يوما بأن اسمه حمام الأمان، وحتى عندما سقط بعض الكاشي الذي يحمل اسمه الحقيقي لم اعره أية اهمية أو أي من زبائنه فيما بعد.

وفي يوم الافتتاح دعيت بعض شخصيات سوق التجار وبعض جيران الحمام، وأعلنت ان الغسل ليومين سيكون مجانا، طمعا في استقدام زبائن دائمين وليطلعوا على ما في داخله من تجهيزات، ومدى استحكام الحمام في منع تسريب الهواء، وكذلك القبب التي تعلو قاعة المنزع والغسل، لكن الإقبال كان ضعيفا، فقد شاع بين الناس ان صاحب الحمام يهودي، وإذ يمكن للبعض أن يشتري منه القماش ولكن لا يمكن أن يغتسل أو يأكل عنده إذا كان صاحب مطعم، فقرينه اسحاق يبيع الخمر، فكيف يشرف يهودي على اغتسال الناس، وبالرغم من أنني جعلت سعر الغسل أقل من الحمامات الأخرى من أجل جلب الزبائن غير ان عدد الذين ارتادوه كان غير مبشر من ان المشروع سينجح.

انتظرت على مشروع الحمام لأكثر من شهر، لكن بشائره لم تنذر بالخير، وان عدد من يرتادونه لم يكن كبيرا، وجدت العذر لنفسي اننا في شهر تموز والجو حار وان حمام البيت ربما يؤدي الغرض لأن الرجل لا يحتاج إلى حمام دافئ وبخار الماء كي يرطب جسده ومن ثم يزيل الأوساخ التي علقت به، وانتظرت حتى شهر تشرين الأول، ولم يكن وضع الزبائن قد تغير، شعرت بيأس من أنني لا استطيع جلب الزبائن إليه، واستشرت جودي في الحل لهذه المشكلة، فأشار عليّ ان اؤجره لشخص مسلم وعندها ستحل المشكلة، دون أن اخسر أي شيء، لم تخطر ببالي مثل هذه الفكرة، وكان مشروع الحمام هو أول مشروع افتتحه في المدينة وكنت اتمنى ان يكون ناجحا، ومن ثم استشرت زوجتي في الأمر فوافقتني الرأي، بل وعدته انجع حل.

لم اكن افهم سر التناقض الذي يعيشه المسلم، فهو في الوقت الذي

يتعامل مع التركي والإيراني والهندي والأفغاني وكل منهم يختلف عنه في القومية والشكل واللون والثقافة، بل ويتزاوج معه، ويلتقي معه فقط في الدين والمذهب، في الوقت الذي يرفض الأكل والشرب والاغتسال في حمامات أناس يلتقون معه في النسب كوننا أولاد عمومه وأبناء وطن واحد، بل ويتزوجون منهم من غير أن يزوجوهم بناتهم، فهل من يفتح حمام يصبح الماء بلون دينه او دمه، ومثله الأكل والشرب، أو لماذا يكسرون الصحون بعد ان يعود من جيرانهم؟ هل يا ترى هذه ثقافة شعبية؟ أو هو الدين الذي يحرضهم على ذلك؟ كيف للمسلمين ان يشتروا الخمور من المسيحيين واليهود ويشربونه فيدخل أجسادهم، ولا يدخلون حماماتهم ليسكبوا على أجسادهم الماء كي يزيلوا الأوساخ عنها.

اعلنت عن استئجار الحمام لمدة سنة، فبدأ البعض يتوافد على دكان القماش وكذلك الحمام، اتفقت مع أحدهم على استئجاره، لكني شعرت بغصة كبيرة في عدم نجاحي مشروعي، وبقيت اراقب عمله عن بعد، وفي يوم الجمعة كنت اذهب للاغتسال فيه، ووجدت أن وضعه قد تغير للأفضل، فكان مزدحما في يوم الجمعة، وأقل في أيام الأسبوع الأخرى، ما يزيدني حزنا.

كان وضع دكان القماش أكثر استقرارا ونموا في العمل، وبالخصوص بعد ان طلب جودي مني ان يعمل معهم أبنه الذي بلغ العشرين من عمره في الدكان، فوافقت على ذلك، بل وفكرتُ بترك إدارة العمل لجودي بعد أن إصطحبته لأكثر من مرة إلى شورجة القماش في بغداد وعرَّفته على تجاره وبأنه ينوب مقامي في كل شيء، وبالخصوص منشي خضوري شهبندر التجار.

بلغت ريم في حملها أشهرها الأخيرة، ولم يكن بوسع ام اموري ان تنهض بكل احتياجاتها وحدها لذلك كنت اقضي اغلب وقتي في البيت، استمع إلى الغرامافون، واقرأ في صحيفة الاتفاق، وهي الصحيفة الأولى والوحيدة التي تصدر في متصرفية كربلاء.

كانت العاملة ام اموري هي التي تساعد ريم في خدمات البيت والتسوق، قد جلبتها زوجة جودي إلينا قبل أشهر، وهي امرأة خمسينية العمر نحيلة الجسد، يطرز وجهها خطوط خضراء عند الحاجبين وتحت الحنك وعند ارنبة أنفها وتحت شفتها السفلى، وكذلك أصابع يديها حتى مفرق كفها، ومثلها قدميها، تلبس الفوطة، توفى زوجها دون ان تعرف سبب وفاته، أبنها أحد يرمازية المنطقة بعد ان جزع عن ردعه أخواله، وأبنتها الكبرى متزوجة، أما ابنتها الصغيرة والمعوقة فتأتي معها إلى بيتنا، تقوم بالتنظيف والخبز وتأتي بالفاكهة والخضروات، ولكن ريم هي من تشرف على الطبخ، وعندما تقدمت بالحمل فضلت الاستراحة وتركت لام اموري الطبخ مع مراعاة شروطها.

ام اموري ترتدي السواد ولا تعرف غير هذا اللون رداءً لجسدها الهزيل، رغم محاولات ريم إقناعها باستبداله بألوان أخرى، لكنها كانت ترد عليها:

- ألمن ألبس ألوان والرجّال أتوسد التربان.

تضحك ريم وترد عليها:

- وهل الإنسان يلبس من أجل الناس أو من أجل نفْسَه.
- خاتون آني ما اعرف شو إنسان، بس إلي أعرف ان المرة تلبس إلرجلها، وآني ما عندي رجّال فما ألبس ألوان.

- بس انتِ لازم تستمرين بالحياة.
- إي خاتون أني عايشه، بس المرة بدون الرجّال كلشي ما تسوه.
- لا حجية، المرة تسوى هواي أشياء، هي نصف الحياة، ونصف المجتمع، نعم هي تحتاج الرجل ليكمل حياتها.
- والله خاتون أنتِ تسولفين سوالف آني ما افهمها، ولكن كلامج صحيح.

تضحك ريم من جواب ام اموري، وهي تتأوه من حملها، وتعلم انها امرأة على قدر حالها، فلا تغضب من جوابها، وانما تطلب منها إعداد لها فنجان قهوة. تقضي ام اموري وقت فراغها بحياكة المراوح اليدوية وهي بارعة فيها، فتلون بعض الخوص لتطرزه فيما بعد وسط المروحة، لتحسن دخلها رغم قلته، كانت تشعر ان العمل هو سبب وجودها، والأهم انها تنتظر ابنها اموري أن يثوب إلى رشده حتى تزوجه ويصبح له ذرية، لتعود إلى بيتها وتترك الخدمة بالبيوت. تذهب بمراوحها اليدوية لتبيعها على أحد اليهود في (عگد اليهود) الذي ينقلها بدوره إلى بغداد ليبيعها هناك.

ام اموري لم تعرف طعم اللحم الحقيقي إلا في بيتنا، كما لم تعرف الدفء من قبل، لم تسمعني أو تشاهدني ارفع صوتي على ريم، لم اضرب يوما ابني يسع أو دانيال، بل كنت ودودا مع الجميع، ونجلس كعائلة عند مائدة واحدة رغم ظروف عملي، وكانت تقارن في سرها بين حياتها السابقة وهذه الحياة التي تنعم بالرغد والهناء، وكنت أقرأ ذلك في عينيها الغائرتين بالحزن.

في الشهر الأخير من حمل ريم، كنت جليس البيت، ومثلي ام اموري، وعندما وصلت الأسبوع الثاني من الشهر الأخير أرسلت ام اموري بطلب (الجدة) لتأتي للبيت وطلبت منها أن تقيم في البيت مقابل الأجر الذي تطلبه، لكنها رفضت ذلك بحجة ان وجودها لا فائدة منه بعد ان فحصت ريم، وأخبرتني بأنها ستلد في نهاية الأسبوع، وبأنها ستكون مهيأة للمجيء بمجرد ان نرسل بطلبها، وما ان حلَّ يوم الخميس حتى اخذت بطن ريم تتقدمها بشكل كبير، لم تشعر بآلام الولادة وانما آلام الحمل الطبيعية حتى حلَّ يوم الجمعة، وعند المساء بدأت آلام الولادة الخفيفة تظهر على ريم، فطلبت من ام اموري ان تذهب لتأتي بـ(الجدة)، لكنها كانت تخاف من الكلاب السائبة المنتشرة في الأزقة، فقررت الذهاب معها، وطلبت منها ان تخبر أهلها أنها ستبيت ليلتها عندنا.

عبرت الساعة الثانية عشرة ليلا، ومخاض الطلق عند ريم مستمر، وأولادها في ارتباك غير طبيعي وقد انعكس ذلك جليا عليّ وأصبحت بين طمأنة الأولاد، والقلق على مخاض زوجتي، في حال لا احسد عليه، وكانت ام ريم تجنبني مثل هذه المسؤوليات الاضافية من قبل، لكنها توفت قبل اكثر من سنتين، واما أختها مائير فكانت تطلب مني العودة لعملي بدل الوقوف والتوتر الذي اسببه للآخرين، أما الآن فلا أحد من أهل ريم أو أهلي يمكنه أن يشد على يدها أو يقدم لها بعض الكلمات التي تصبّرها.

بينما همد الأولاد من الخوف والتعب، بقيت مثل سمكة لائبة وقد بلعت الزهر، حتى شقشق ضياء الصباح سمعت صراخ طفل، سمعت (الجدة) المسلمة، تطلب من ريم وهي في شدة طلّقها ان تصرخ بـ(يا

علي)، وتكرر طلبها منها، بعد ان تناديها بابنة السبت، لكن ريم كان يصعب عليها ذلك، وعندما اشتد الألم عليها اضطرت للصياح بالقول: يا (ليا)، عندها خرج الطفل فرفعته (الجدة) وهي تقول لولا كف الإمام على مؤخرته ما خرج للحياة.

أستكنت وجلست على ركبتيّ شاكرا رب موسى على الولادة وقد فرت من مآقيّ الدموع، ومن ثم هَبَبْتُ واقفا وذهبت مسرعا باتجاه حُجْرَة الحرم، وصحت على ام اموري لأسألها عن صحة ريم، فأخبرتني أنها بخير ولكن الطلق قد أتعبها كثيرا، فصحت من خلف الباب: الحمد لله على السلامة ريم، لكنها لم ترد عليّ، بعد ان تمكن منها الطلق والولادة، ثم سألت ام اموري التي تقف قرب الباب عن نوع المولود فأجابة بأنها بنت، فرحت كثيرا لأنني كنت اتمنى ذلك كي تساعد أمها عندما تكبر، وقررت في نفسي أن اسميها مسعودة لأنها جاءت في يوم السبت وهو يوم مبارك.

لم يطب لي النوم، وانما خرجت إلى السوق لأجلب لهم الفطور، ومن ثم عدت مسرعا للبيت، طلبت (الجدة) الذهاب إلى بيتها على أمل العودة في اليوم الثاني كي تغسل للطفل وتزيل عنه أوساخ البطن، وتعيد تقميطه، لكني رفضت فكرة القماط نهائيا، فتعجبت القابلة من ذلك، أعطيتها أجرتها وزيادة، ومن ثم أكرمت ام اموري على بشارتها.

ذهبتُ إلى حُجْرَة السلامليك لأنام قرب الأولاد، وضعت رأسي على الوسادة مثل جثة هامدة، وما ان بدأ جسدي يرتوي من النوم حتى بدأت اتقلب في سريري، لا بد ان تفتح هذه الحُجْرَة إلى الشارع لتكون

دكان صياغة، لا بد ان تعود إلى مهنتك الأصلية، ألبس الكشيدة والصاية، وأجلس خلف المنضدة، وازرع حول البئر الآس حتى يضوع عطره البيت، نهضت مذعورا من سريري، ووجدت ام اموري قرب رجليّ تهزها كي استفيق من نومي، فأخبرتني ان الخاتون تريد أن آتي لها بباقة من الآس، فأجبتها: بل انا من سيذهب ويأتيها بها.

دخلت إلى حُجْرَة الحرم، وقبلتُ رأس ريم، شاكرا الرب على سلامتها، وبعدها خرجت بعد أن ضربت على وجهي بعض كفوف الماء لأستفيق من نومي، وبقيت طول الطريق افكر بالحلم الذي طاف علي، وما حلمت به وربطته بأن زوجتي تريد الآس أم أنني حلمت به، أم أنهما اختلطا معا، وقررت ان اخبر زوجتي به.

كان المشاع بين الناس أن أحلام الليل تُعكس في تفسيرها، أما أحلام النهار فتعد أضغاث أحلام، ولكنها ظلت تعتمل داخلي حتى عدت بباقة الآس إلى زوجتي، وعندما وجدتني متعكر المزاج سألتني عما يعكره، فأخبرتها بالحلم، فرحت كثيرا، وقالت انها البشارة من الرب، وان مسعودة وجهها خير على العائلة، ولكن أطلب منك تأجيل الموضوع حتى أعبر أربعين الولادة وبعدها باشر بالموضوع.

لم اكن احمل هم المال، فأن ما وصلني من شريكي سليمان من حصتي من دكان الصياغة في بغداد، تجهز الدكان الذي اريد فتحه من البيت بالذهب بما تفيض عن حاجته، إضافة إلى أرباح القماش وإيجار الحمام، كل ذلك جعلني استعد نفسيا للموضوع، وما ان بدأت زوجتي تسترد عافيتها، توافدت نساء أصدقائي، وصديقات ريم وجيرانها للمباركة والتهنئة بالمولود الجديد.

من عادات اليهود عندما ترزق الزوجة بفتاة، ويأتي الأقارب والأصدقاء يعودون الأم ويباركون لها السلامة، يضعون بعض الأموال تحت رأس الطفل أو الأم، التي تعمل بدورها على جمع الأموال، عانة على عانة، حتى يصل عمر الفتاة إلى العاشرة أو دون ذلك فتعمل بالخياطة، أو زرق الإبر، أو أية مهنة أخرى لتجمع الفلوس من جديد، حتى يصبح عمرها أربع عشرة سنة أو فوقه قليلا، ففي تقاليدنا، ان الفتاة إذا بلغت دون العشرين لا يتقدم إلى خطبتها أي شخص، وعندما يتقدم أي شخص لخطبتها، فأن الحاضر وتجهيز البيت يكون على عاتق الفتاة، مثل سلة مخروطة مجدولة من روط الرمان، وصندقجة وإبريق مصنوعين من النحاس. ولكن هذا لا ينطبق على العوائل المترفة، التي تستطيع تجهيز بناتها عند الزواج دون حاجتهن للعمل.

III

دكان الصياغة

طلبت من الأسطة أحمد ان يزيل الحائط الخارجي لحجرة السلامليك وشباكه العلوي بقضبانه الحديدية ويبني مكانه قوسا يرتكز على دعائم ضخمة ومن ثم يغلفه بالنقش، وكذلك يبني أقواسا دون دعائم في سقف الحُجْرَة لتعطي جمالية لسقف الدكان، اعتذر الأسطة احمد عن ذلك في كونه أسطة بناء وليس نقاش، وتعهد لي بأن يأتي بمحمد النقاش ليفعل له ما يريد.

محمد النقاش إيراني الجنسية جاء في زيارة إلى مدينة كربلاء وعندما راق له الوضع قرر الإقامة فيها، ورث مهنة النقش عن والده وأصبح ماهرا فيها، استأجر دكانا في منطقة باب الطاق ونقل أغلب قوالب النقش الخشبية معه، كما عمل مجموعة نماذج وعرضها داخل دكانه وعندما شاع صيته في مركز المدينة، بدأت حرفته تشيع ايضا. قدم مجموعة نماذج فاخترت نموذج نبتة التوليب بأشكالها الطبيعية على القوس ودعائمه بشكل مركز وعند السقف بشكل متناثر، كان يرش المكان الذي يريد النقش عليه بالماء، ومن ثم يلصق القالب عليه ويملأه بالجص وبعدها يصقله ومن ثم يصبغه بألوان براقة لإظهار التضاد، أما نقش الأقواس فيعمل لها قوالب جاهزة بعد ان يصبها على الأرض.

لبستْ حُجرة السلامليك حلة جديدة بعد ان تحولت إلى دكان صياغة فخم، تتقدمه باب خشبية مقوسة الرأس ومصنوعة من الصاج السميك المحزز بشرائح من اللوح المحدب النهايات بدرفة واحدة، والمطرزة بمسامير نحاسية، اما حيطان المكان فقد تم تطريزها ببعض مشاهد الشاهنامة، وحتى الأرضية اعيد ترميمها ببلاط مرمر الموصل ذات الأحجام الكبيرة مستطيلة الشكل. وتم تغليف مصطبة الجلوس على طول الجانب الأيمن، وكذلك دكة جلوس الزبائن، أما الدكة التي اضع عليها المعرض الذي اعرض فيه المصوغات الذهبية والنحاسية، فغلفها بمرمر الموصل ولكن بلون مختلف.

قررت السفر إلى بغداد من أجل تجهيز الدكان بالذهب والفضة، وأخذت معي فاضل تحسبا لأي طارئ، ومررت على شريكي سليمان في شارع النهر، اشتريت منه كمية من الذهب، ومن ثم ذهب معي إلى دكان آخر يبيع الذهب بالجملة واشتريت منه ما رأيته مناسبا، بتنا ليلتنا في بيت عمي ومن ثم عدنا إلى كربلاء محملين بالذهب.

بدأت اعرض بضاعتي داخل المعرض، وكان دكاني مثيرا للانتباه بحلته الجديدة وبضاعته التي تختلف في صياغتها عما تعرض في دكاكين الصاغة، سرعت هذه الامور مجتمعة بنجاحه كونه وسط علاوي بيع وشراء الحبوب لتجار من خارج المدينة، وكان كثير منهم بعد ان يتسلم مبالغ بيعه الحبوب يمر على الدكان ليشتري ما يرغبه، حتى شاعت سمعتي خارج حدود المتصرفية، وأصبحت اجهز كثيرا من الذين يريدون الزواج بالنيشان، وقد أتبعت أسلوب جودي بالهدايا ولكن من الفضة أو البلاتين، وكنت اعرف ان الرجال المسلمين لا

يلبسون الذهب، وانما هو مختص بالنساء، لذلك كنت اهدي حلقة الفضة لتزيين أيديهم.

شعرت ريم بأن طفلتها الوليدة مسعودة مرزوقة وقدمها خير عليهم، فزوجها أصبح قربها وناجحا في عمله، والبيت يضوع برائحة الآس بغضارته المدورة باستثناء ممر للبئر، وأعطى منظرا جميلا وجذابا، وفي احدى الجلسات بينها وبين أم أموري وقد لاحظت انها حزينة ومهمومة فسألتها:

- شو أنت اليوم مو على بعضج؟
- والله خاتون اموري إمتعبني.
- أشبيه؟
- أيريد يزوج.
- مو أنتِ تريديه يتزوج، حتى يستقر؟
- أي خاتون. لكن منو ترضه بيه. وهو عطال بطال.

ضحكت ريم من وصف أم أموري لأبنها، ثم قالت:

- خو يشتغل ويحل المشكلة؟
- خاتون منو يشغله، وهو هتلي ويوميَّه يتعارك.
- لعد إشلون يريد يتزوج، أو هو يوميا امسويله مشكلة.
- مو خاتون هو بالفترة الأخيرة عقل، وأحس ان نفسيته مكسورة وذابلة مثل المرة المطلكة.
- يعني أتغير؟
- إي والله خاتون، بلكت إتحاجين الافندي، إيشوفله شغلة بالدكان، لو بالحمام، حتى أكدر أخطبله وأزوجه.

- من يجي يعقوب على الغدهَ، راح أحجي إويا وانشوف.
- يطول عمرج خاتون.

لم تفاتحني ريم بموضوع أموري عند الظهر وانما فضلت ان يكون عند الليل، كانت سرائر وجهي تدل على الارتياح، فأخبرتني بالموضوع وبأن أمه ترجوها في ذلك، ضحكت من طلبها، وسألتها مثل أموري رجل بلطجي في أي عمل يصلح، لكن النساء لم يكن يهمها ذلك قدر تنفيذ رغبتها، ومع ذلك طلبت منها أن تخبرها لتجلبه، وعندما جاءت ام أموري صباحا يعتلي وجهها لهفة لموضوع ابنها، فطمأنتها ريم بأن عليها ان تحضر أبنها عند العصر لي.

عندما حضر اموري تفاجأت منه كان نحيل الجسد وكأنه مصاب بمرض السل، رأسه غير متسق شعره عكش ومعفر، لحيته طويلة تتصل بشاربه، مقدمة انفه كبيره وغضروفه معوج، ملابسه متسخة، دشداشته قديمة تم تطويلها وبانت حافتها القديمة كحز أسفل الثوب، يلبس حزام جلد حافتيه محكوكة، نعاله متآكل شسع فردته اليمنى مقطوع. صادف وجود جودي في دكان الذهب، فطلبت منه أخذه لدكان الأقمشة ليقص له قطعتي قماش ويذهب به للخياط كي يفصلهما له ويشتري له نعالا جديدا، ومن ثم يذهب به للحمام كي يغتسل وبعدها للحلاق كي يقص شعره، وقبل أن يذهبا وضعت بيد أموري عانة كمصرف جيب، لكنه رفض أخذها، فألححتُ عليه في قبولها.

في صباح اليوم التالي جاء أموري للدكان، وقد تغير شكله نهائيا، كانت للملابس دور كبير في احترام الإنسان لنفسه، واحترام الآخرين له، سألته

عن سبب تغيره وبأنه يريد أن يصبح رجلا صالحا، أخبرني أنه وصل إلى قناعة ان الطريق الذي يمشي فيه خاطئ وأن اصدقاءه اختلفوا فيما بينهم فسحب كل منهما سكين بوجه الآخر فتقاتلا، وذهب أحدهما إلى السجن والآخر إلى المقبرة، ما سبب رد فعل عنيف في أن حياته عدم، بل هو كائن فائض عن الحاجة، ولا بد أن يجعل لها معنى، بأن يتزوج ويكون أسرة، ولكونه بلا عمل فلا أحد يرضى أن يعطيه زوجة. فتيقنت بأنه يريد ان يكون إنسانا صالحا، وطلبت منه مهلة كي ابحث له عن عمل.

* * *

كان وضع الحمام مضطربا، فبعد مرور ثلاثة أشهر على إيجاره، عاد المستأجر بالمفاتيح لي، رافضا إكمال مدة الإيجار، وعذره في ذلك ان الحمام مشاع عنه ان صاحبه يهودي ولا يجوز الغسل فيه، عرضته من جديد للإيجار، وتم استئجاره من شخص آخر، ولم يمض شهران على إيجاره فعاد من جديد بالمفاتيح لي، وحجته في ذلك ان بعض البلطجية يغسلون فيه ويخرجون دون أن يدفعوا حق الغسل، وكان كل مستأجر يعيد المفاتيح بحجة مختلفة.

كنت اشعر ان الحمام يشبه الأبن المدلل ولكنه معاق، فلا استطيع التخلي عنه، ولا استطيع الاستمرار فيه، كما انني لا استطيع ادارته عن بعد، لكنني لم افكر ابدا ببيعه، وعندما جاء أموري، كان بمثابة باب فرج كي اجعله يديره، ولكنني اشترطت عليه عدم إثارة أية مشكلة، وإلا سأطرده من العمل كما سأطرد أمه من البيت، فلم يكن من اموري إلا الطاعة، كونه يشعر بفضلي على امه وعليه.

استمر اموري بالعمل لأسبوع وكان الحمام متذبذب بالعمل، لكنه وجد ان الحمام يحتاج إلى مجموعة اغراءات يستطيع من خلالها إعادته للعمل مثل الحمامات الأخرى، فجاء بطلب من ان يشيع بين الناس أن غسل أطفال الفقراء من أجل الختان مجانا، ومثله الغسل مجانا في العاشر من محرم، فوافقت على طلباته ولكنني سألته من أن هذه الأفكار ليست من عنده وان هناك شخصا يحركه، فأعترف له بأن المدلكجي هو من أشار عليه بذلك، فضحكت بينما ذهب اموري مزهوا بنفسه من أنه حقق شيئا لنفسه وللحمام، ومن ثم أشيعت الأخبار بذلك، رغم انها مشاعة في بعض الحمامات الأخرى.

سعت أم أموري للخطوبة لأبنها، وتنقلت بين أكثر من بيت تبحث له عن الفتاة المناسبة، كما شاعت بين الخطابات أن يبحثن لها عن فتاة مناسبة لأبنها، وبعد أكثر من شهر، حصلت على موافقة أحدى البيوت البسيطة، وعندما تقدم اموري للخطبة أشترط اب الفتاة أن يشتغل معه في القهوخانة لأن العمال الذين يستقدمهم للعمل في مقهاه ليسوا على ما يريد، لم يطل اموري التفكير وانما وافق على طلبه، وترك الحمام من جديد، ولكن بعد أن أصبح محترما بين أقرانه، وأعلن خطوبته ومن ثم زواجه.

لم اكن اعرف الفشل في حياتي، وانما التعثر ومن ثم النجاح، ولذلك بقيت مصرا على نجاح مشروع الحمام، واستقدمت عاملا بعنوان شريك ليديره، بينما جاء بعض التجار من(عگد اليهود) وطلبوا مني تحويله إلى مخزن أو هدمه وتحويله إلى خان للحبوب، أو دكانين اؤجرهما لمن يشاء، وهم على استعداد لاستئجارها، لكني رفضت عرضهم

وبقيت مصرا على ان يبقى حماما يقدم الخدمات للناس في المواسم وبالخصوص في الشتاء.

* * *

كانت الأوضاع السياسية مضطربة في العراق مثل بحر هائج، ولم تكن كربلاء في منأى عنها، أو كما تصورتها من أنها متصرفية ليست جزءا من مركز القرار السياسي، ولذلك فهي تعيش في بحبوبة من الأمان، ولكن اتضح انها معقل للثوار ومربض للوطنيين الأحرار، وقبلة لزعماء العراق، ومطمح لأنظار المحاربين الثائرين ضد الظلم والاستبداد، فقد استشعر العراقيون بنوايا الاستعمار البريطاني الخبيثة، وما عمدوا فيه من التنكيل والإرهاب تداولت الشخصيات الوطنية فيما بينها على انهم استبدلوا الاستعمار العثماني بالاستعمار البريطاني، وان جهود الملك حسين بن علي في الثورة العربية ذهبت أدراج الرياح، وأحسّ زعماء القبائل الفراتية ومما أحاط بهم، وما لاقاه الناس في بعض المدن من قسوة الحكام السياسيين الإنكليز، وعدم الاستجابة لمطالبهم فقرروا التوجه إلى كربلاء.

لم يكن الحراك الوطني ليهدأ بل اشتدت المظاهرات وأخذت تتسع شيئا فشيئا، وعلى أثرها تم تأسيس جمعية سرية باسم (الجمعية الوطنية الإسلامية) وقد تألفت عقيب تأسيس الهدنة في كربلاء، ونتيجة لتلك النشاطات ألقت الحكومة القبض على محمد رضا نجل الشيرازي، والشيخ هادي كمونة وآخرين ونفتهم إلى جزيرة (هنجام)، لم تلق حركات المتظاهرين نجاحا مطلوبا مما دعا إلى إعلان الثورة المسلحة،

فاندلعت الشرارة الأولى لنار الثورة العراقية من كربلاء في نهاية حزيران من العام نفسه، بعد أن تجمع كثير من المسلمين في المدينة الذي صادف النصف من شعبان، ولوجود الامام الشيرازي فيها.

شعرت بالانتماء لكربلاء على عكس شعوري عندما كنت في بغداد، وبالخصوص بعد صدور فتوى من قبل الحائري بوجوب الجهاد بعد ان دعا للتظاهر، وعلى أثر ذلك تأسست عدة مجالس لحفظ الأمن وجمع الواردات والإعانات للمعوزين من الثوار، ومن المجالس التي شاركت في تمويلها هو مجلس الإعانات للمعوزين من الثوار وكان من أعضائه السيد عيسى البزاز الذي تربطني به علاقة طيبة. وعندما تم إخماد الثورة ألقت الحكومة القبض على كثير من الثوار، وسفرتهم إلى الهندية وسجنوا فيها حتى تشرين الأول من عام 1920، ومن ثم أصدرت بحقهم أحكاما عسكرية بعد ان حوكموا في المحكمة العسكرية الإنكليزية.

* * *

عندما حل شهر محرم من عام نفسه، وقد توشحت بعض واجهات البيوت بالسواد، كما توشح بعض الوجهاء بالسواد، كنت وزوجتي ننتظر قدوم اكبر صادقي وعائلته، ولكن على ما يبدو انهما لم يأتيا من ايران، وربما شعرا بالحرج في كونهم لم يعد لهم وجه في القدوم والسكن مجانا في البيت وقد أصبح ملك غيرهم، وربما استجدت أوضاع لا اعرفها أو زوجته تمنعهم من المجيء. ولكني سرعان ما اندمجت مع أصحاب التكية، وأمسيت اخرج معهم دون شعور بالحرج، ولكني اتجنب الدخول إلى الحضرة العباسية والحسينية، بل انتظرهم عند باب

الخروج من الجهة الثانية كما اعتدت في العام الماضي، ومثله زوجتي التي اتفقت مع أم اموري وزوجة جودي أن يقفن مع النساء على ضفة الشارع ويشاركن العزاء بالبكاء والعويل.

IV

القصخون

عاش يسع في حي الأغا، في منزل وان بدا مغلقا من الخارج إلا انه من الداخل مفتوح إلى السماء الزرقاء الصافية، تتوسطه حديقة غناء من النخيل وأشجار البرتقال والرمان والعنب، يحيطها سياج من الآس تضوع رائحته ارجاء البيت، ولم تكن امه ريم تكتفي بالحديقة، بل تزرع ما تحت الطارمة التي تمتد على طول واجهة البيت الداخلي نباتات الزينة في أصص صغيرة وكبيرة تربطها علاقة وجدانية معها، على العكس من أشجار الحديقة، كانت تقول لي ان أشجار الحديقة لا تحتاج مساعدتي، فالأرض موجودة ومثلها الشمس والهواء، أما الماء فيأتيها من أي شخص بالبيت، لكن نباتات الظل اشعر بها أنها تنتظرني كل عصر كي أسكب لها الماء في حوض أصيصها، وأنني أنا من يحميها من حرارة شمس الصيف القائظ.

ريم تحب أشجار العنب، لأن لثمرها شكلا هندسيا غاية بالروعة، يصعب وجود من يشبهه في اثمار النباتات الأخرى، لذلك زرعت أكثر من نوع في الحديقة ومن الجهة القريبة للطارمة، ومن ثم نصبت عريشة حتى امتدت أغصان العنب إليها، كانت تحب الجلوس تحتها، تقطف

العنب الأبيض الذي يبكر بالنضج من شهر مايس، حتى آخر عنقود من العنب الأسود الذي يستمر حتى أيلول دون أن تسمح لي ولو مرة واحدة القيام بذلك.

يسع يستقدم أصدقاءه وهما عزرا ومتي للعب داخل البيت، بينما ريم ترقبهم خوفا من دخول أي منهما إلى باحة الحديقة ويقطف بعض ثمارها، ليس بخلا، لأنها كانت تعد لهم طبقا كبيرا بمختلف أنواع الفاكهة على الدكة القريبة من لعبهما، بل لشعورها بمتعة كبيرة وهي ترى أشجارها حبلى بالثمار، وبنشوة لا توصف وهي تتجول تحتها وتقطف ثمارها الطازجة.

عاش يسع في أزقة حي الأغا وهو يتذكر عزرا ومتي ببجامتيهما القطنيتين المقلمتين من قماش البازة، وهما يتنابزان عند الغضب، وتدور بينهم معركة بالأيادي ومرة بالحجارة الصغيرة، كان يشعر بشوق للتكلم باللغة العبرية، فقد أصبح يتكلمها الآن فقط داخل البيت، ولم يكن هناك غضاضة في ان تتكلم الأقليات بلغتها الأم في المتصرفية، فالإيرانيون يتكلمون فيما بينهم باللغة الفارسية، ومثلهم الأفغان والباكستان باللغة الأوردية، واليهود يتكلمون فيما بينهم باللغة العبرية. كما تذكرت بدلته السوداء بربطة العنق وقميصه الأبيض التي كان يرتديها متباهيا أمام المرآة بعد ان سجلته في مدرسة مدراش مندالي وهي مدرسة يهودية على نمط مدرسة مدراش تلمود وتوراة الذي أسسها أبراهيم عبد الله تخليدا لذكرى أخته مندالي.

كان يسع يذهب مع جدته التي هي امي إلى الكنيس في حي الأرمن،

وكيف ان الأرائك على الجانبين صامتة مثل صمت القبور قبل كل قداس من يوم السبت والقاعة الطويلة التي تتصدرها المنصة التي يقف عندها القس ليحكي عظته ساندا اياها بالكتاب المقدس ببعض آياته.

* * *

اصرت ريم على ان يتعلم الأولاد اللغة الإنكليزية والفرنسية، وقد أوصتني ان أتي لها بالمناهج التي تدرّس في مدارس اليهود، كما حرصت كل الحرص على مواظبة كل منهما على الحفظ والقراءة والكتابة لهاتين اللغتين. وحتى عندما ألغيت مادة الإنكليزي فيما بعد من المدرسة، ظلت ريم مصرة على تعليمهما هاتين اللغتين، وكأن لديها شعور لا أرادي من انهما في يوم من الأيام سيغادران هذه المدينة، ولا بد ان تكون لهما قاعدة رصينة في معرفة اللغات الام للعالم.

اخذت أم أموري على عاتقها الذهاب بهما كل صباح إلى المدرسة وتعود بعد الظهر لجلبهما من المدرسة التي تتكون من أربعة طوابق وعدد طلابها سبعون طالبا هم من أولاد الأعيان والوجهاء وشيوخ العشائر، أما أولاد الطبقة المتوسطة فيذهب بهم آباؤهم إلى الكتاتيب، ليبقى أولاد الفقراء منخرطين في مساعدة أهاليهم في أعمالهم.

وعندما تولى الملك فيصل الأول عرش العراق، وهو نفس العام الذي تأسست فيه الدولة العراقية، زار متصرفية كربلاء في تشرين الأول من نفس العام، للتبرك بزيارة مرقدي الإمامين (الحسين والعباس) وألتقى بأعيان ورؤساء القبائل والشخصيات البارزة فيها، وأمر بتشييد عدد من المدارس الابتدائية وتوفير المستلزمات الضرورية لها، وتم

تأسيس المدرسة الأحمدية الابتدائية في العام نفسه، وقد حضر افتتاحها وزير المعارف (هبة الدين الشهرستاني). عندها قررت ريم نقل الأولاد إلى هذه المدرسة.

اصبح يسع ودانيال يذهبان إلى المدرسة من غير أم أموري، فقد أصبح ليسع عشر سنوات أو تزيد قليلا، لم يكن لدانيال أي جذور في بغداد على العكس من جذور يسع الرخوة، التي سرعان ما نبت بدلها جذور جديدة في المدينة وأصبحت تلك السنون مهوشة وغائمة، وأقام علاقات جديدة في المدرسة وفي محلته باب النجف.

كما وبدأت هجرة كثير من يهود بغداد إلى متصرفية كربلاء واشتغلوا في تجارة الدهن الحر الحيواني والتمن، يشترون الشلب من غماس والمشخاب والديوانية، والحنطة والشعير، والسبب هو صدور الدينار العراقي الجديد بقانون من وزارة المالية في العام نفسه، وقد صدرت فئاته وألوانه وعرضه وطوله وصورته التي تحمل صورة فيصل الأول مع آثار بابل كما صدرت العملة المعدنية وهي الفلس والفلسان والأربعة والعشرة والخمسون والمائة.

من قبل سكن اليهود أطراف كربلاء ومنها منطقة النواويس، وناحية طويريج، ولكن النسبة الأكبر سكنت عين التمر ـ شثاثة، هذه المنطقة التي تحيطها الصحراء القاحلة، ولكن لوجود عيون ماء طبيعية تحولت إلى روضة غناء من البساتين الغنية بأشجار الفاكهة وبالخصوص اشجار الرمان، وحولتها إلى مقصد لبدو الصحراء، وكذلك يعتمد عليها الأهالي في الحياة لهم ولحيواناتهم وبساتينهم يسكن حول كل عين ماء طائفة

تنتسب إلى عشيرة معروفة ولرئيس الطائفة قصر تحيط به أبنية وبيوت أفراد عشيرته، ومن تلك العشائر هي بنو خالد والمعامرة وخفاجة، بل وكانت تعد عاصمة اليهود ومن العوائل المشهور فيها هي عائلة شمعون وعائلة بردولي، وفيها قصر باسم كل منهما.

* * *

عدت إلى قديم عملي الذي احب، وكنت اتبع فيه نظاما صارما لا ابدله أبدا، ففي الصباح ارتدي أجمل ملابسي واتعطر بعطر شاليمار الموضوع بقوارير من زجاج لاليك، واجلس خلف معرضي الزجاجي لبيع الذهب، وأثناء فراغي اقرأ في صحيفة الاتفاق كما أصبحت اهتم بتراث كربلاء وتاريخها، بعد ان اشتريت مجموعة من الكتب القديمة من المكتبة الإسلامية التي تحتفظ بتراث المدينة، وبعد الظهيرة كنت اعيد صهر شخالة الذهب بقوالب خاصة ومن ثم اعيد صياغتها، وكان ولداي يسع ودانيال معي في الدكان يتعلمان أسرار المهنة، كما يتعلمان إصلاح المعطوب منها وبالخصوص الأقراط والمحابس.

في يوم الجمعة كنت واحدهم نرتاد مزاد لبيع الكتب ـ الهرج، قرب الجانب الأيمن من تكية البكتاشية وكذلك عند مدخل باب الزينبية، وكنت اقتني كتب التراث الخاصة بمدينة كربلاء، إضافة إلى كتب المنطق والفلسفة، أو أرسل من يشتريها، والتي كانت تختم بكلمة (تملك) عند بيعها.

اصبح دكان الصياغة يرتاده بعض شخصيات المدينة، واقوم لهم بالخدمة فأقدم العصير والشاي أو القهوة لمن يطلبها، كما يزورني القصخون شيخ ميران ليحكي لي حكايات عن التاريخ الإسلامي

والاحتلال العثماني وتاريخ كربلاء، وبعض حكايات الجن والخرافات. والشيخ ميران طويل القامة، عريض المنكبين، نحيف الجسد، بشرته بيضاء، محمرة، يرتدي الصاية والسترة بلون أبيض أو مائلة للبياض، والعقال واليشماغ الفراتي، والعباءة السوداء، ويمسك بيده عصاه الغليظة أثناء سرده للحكايات ولكنه عندي يتكئ عليها في سرده لحكاياته.

القصخون في حكاياته داخل المقاهي تختلف عن حكاياته لي، فهو في مقهى (أغا علي) في محلة العباسية الشرقية، وحيث يجلس المستمعون على تخوتها، يلبي رغبات روادها ويبدأ حديثه بمدح آل بيت النبي محمد، ثم يتطرق للموضوع المطلوب بربط فني مدهش ويختم قصته بأحد مناقبهم، اما عندما يتكلم عن التاريخ العربي فيغمسه بالخيال وعلى سبيل المثال قصة عنترة العبسي وحاتم الطائي وأبو زيد الهلالي وقيس وليلى، كما يتطرق للقصص الفارسية مثل شيرين وفرهاد وآزر وقنبر، واسكندرنامه، فان عنصر الخيال والإثارة هو البارز في تلك الحكايات الشعبية الطريفة.

كان رواد القهوخانة يتحلقون حول القصخون وهو يمسك بعصاه الغليظة ويديرها بحركات إيقاعية تتناغم مع السياق القصصي، فيلهب حماسة روادها بأسلوب تمثيلي أخاذ يتناسب مع طول وقصر القصة التي يرويها، ومن ثم يجمع النقود بعد انتهائه، فيأخذ عن القصة القصيرة مقدار فلس واحد، وعن الطويلة فلسين، أما انا فكنت اكرمه أيما كرم، فأجزل له العطاء، ثم جال ببالي أن اسجل تلك الحكايات الشفاهية التي يرويها، بعد ان بدأت اسجل مشاهداتي اليومية في الأسواق والأزقة وفي الليل اعود لأنظمها من جديد وارتبها بطريقة متسلسلة.

كانت حكاياته لي أكثر جديَّة، وبالخصوص التي تحمل تاريخ كربلاء، وبدأ يسرد لي قصة بناء المدينة، وما كان للبويهيين من دور في بناء مرقد الامام العباس قبل ألف عام، ومن ثم أحاط المدينة بسور يبلغ طوله أكثر من ألفين وخمسمائة متر لحمايتها من السلب والنهب لأن جهتها الغربية تنكشف على صحراء كبيرة، يقطنها البدو وبعض قطاع الطرق، وصولا إلى احتلال الدولة الصفوية قبل ستمائة عام وقد شهدت كربلاء اعمارا واسعا، واخذت المدينة تتوسع عمرانيا بشكل دائري حول المرقدين، وبدأت النشاطات تنمو فيها كبناء الخانات والأسواق، وازداد التبادل التجاري ما بين المدينة وأطرافها، وتطورت الصناعات الحرفية، كونها مقصدا لآلاف الزائرين من المدن المختلفة، ولكن الفيصل في هذه المدينة وتحولها إلى مدينة مركزية وليست هامشية هو ما حدث بعد الاحتلال العثماني اذ امر السلطان سليمان القانوني بشق نهر يروي الأراضي في مدينة كربلاء وسميَّ على اسمه بنهر السليماني، ولكن هذا الاسم اختفى أو استبدل بنهر الحسينية، كما روى لي قصة أعنف هجوم شنه الوهابيون، لكنني تعجبت من هذا الحادث وسألته:

- وهل الوهابيون مسلمون مثلكم؟
- نعم هم مسلمون، ولكن يختلفون عنا في المذهب، فكل الأديان بعد وفاة انبيائها تنقسم إلى طوائف.
- تقصد كما اليهودية والمسيحية وقد انقسموا إلى مذاهب وطوائف؟
- نعم.
- برأيك شيخنا ما هو السبب من وراء انقسام ابناء الدين الواحد إلى طوائف؟

- سأتكلم عن الدين الاسلامي، لأنني أعرف به.
- تفضل.
- انا لا أعتقد انه يوجد فرق بين عربي وعربي إلا بالدين، ولا فرق بين مسلم ومسلم إلا بالمذهب، ولا فرق بين مقلد ومقلد إلا بالمرجع، ولما كانت الدول العربية أغلبها مسلمة فلا دين يفرقها وانما المذهب هو من يصنع الحواجز الافتراضية، ولأن كل المذاهب سياسية فهي مفتعلة، وان القائمين عليها فقهاء، ما يعني أنهم السبب في تفريق العرب والمسلمين، فلا يوجد فرق بين الشيعي والسني والوهابي وباقي المذاهب إلا بالفقيه، وإلا فكلنا عرب وأغلبنا مسلمون.
- ولكن يا شيخ ميران هذا رأي خطير؟
- ولذلك أنا لا أبوح به إلا لمن أجده على مستوى من الوعي.
- وكيف توصلت إلى هذا الاستنتاج الراقي؟
- البعض يتصور أنني أؤلف القصص والحكايات من وحي الخيال، والحقيقة أنني قرأت كثير من الكتب التاريخية ووصلت إلى قناعة ان الدين الذي جاء به الأنبياء هو السبب في توحيد الناس، ولكن الفقهاء السبب في تفرقتهم. أما ما يخص الحكايات العربية فكنت أزيد وأنقص فيها حسب الموقف.
- كلام حكيم.

ثم روى القصخون حكاية (أبو مراية) والتي كان يشخص بواسطتها الحاجات المسروقة من أي شخص أو بيت، ويكشفها عن طريق التنويم المغناطيسي، باستخدام صبي لم يبلغ الحُلُم بعد ان يأخذ الاستخارة

بالقرآن، ثم يقوم (أبو مراية) بالرسم على كف الصبي حروفا وإشارات لا يعرفها غيره وعندما ترتفع كف الصبي، يبدأ بالتكلم، وإذا انخفضت لا يتكلم، بعد ان توضع مرآة امام الصبي البريء فتظهر امامه ملامح السارق ويقوم الصبي بدوره بإعطاء أوصاف السارق، وتكون أجرته مقطوعة بين عشرة وعشرين فلسا حسب أهمية الحاجة المسروقة.

ومن الحكايات الشعبية الأخرى التي كنت اشاهدها بأم عيني هي وجود شخص يدعى (أبو الحيايه) هذا الرجل يحضر في ساحة الميدان التي تحيط بمبنى البلدية القريبة من زقاق (عگد اليهود) أو في الساحات العامة وبمعيته زمرة من المشاركين في عمله الذين يستقطبون الناس من اجل استحصال مبالغ زهيدة منهم لقاء رؤيتهم المشاهد التي يقوم بها (ابو الحيايه)، والذي يبدأ عرضه بقراءة الأشعار والتعويذات ممسكا بيده افعى وباليد الأخرى دعاء، وهو عبارة عن ورقة طويلة ملفوفة كتبت فيها بعض الأحراز والأدعية والآيات القرآنية وما شاكل ذلك، مناديا بأعلى صوته: كل من يمسك الدعاء لا تلدغه الحيه. وبالفعل فأن من يمسكها لا تلدغه، وعندما تحريت عن ذلك وجدت الأفاعي مقطوعة الأنياب، ما يجعل صاحبها يتلاعب بها ويضعها على كتفه أو على كتف أحد أتباعه، ولكنه عندما يقربها من المتجمهرين حوله بطريقة مريبة تحدث ضجة وبلبلة لخوفهم منها، يستمر العرض لأكثر من ساعة، وكان أجره لا يزيد عن العشرة فلوس.

انتهت الجلسة بيني وبين الشيخ ميران، وكنت مفعما بالراحة وأنا اسمع هذا الكلام الذي يجمع شمل الناس تحت لواء المحبة، ولا يفرقهم تحت عنوان الأديان والمذاهب، وأسرع إلى تدوينه، ومن ثم عدت

بذاكرتي إلى تلك الأيام التي كنت اطوف بها مع جودي وفاضل أزقة المدينة من أجل أن نستحم في حماماتها العمومية، وفي احدى المرات دخلنا زقاق التَرب، وهو مختص بصناعة التَرب والسّبح وسجادة الصلاة والأكفان، اذ يقصد كربلاء كثير من الزوار من داخل العراق وخارجه، وكانت هذه الصناعة رائجة ومشهورة وتُعد أفضل صوغة او هدية يتقدم بها الزائر بعد عودته لأهله لمن يزوره مهنئا بسلامة الوصول. بينما شوارع تلك الأزقة ضيقة وغير معبدة.

كما تذكرت كيف ان كثير من رجال المدينة يحترف مهنة نقل الموتى، وحمل النعوش إذ لا يدفنون قبل ان يطاف بجثامينهم داخل المرقدين الشريفين، تخصص بعضهم في قراءة القرآن الكريم على القبور والمجالس الخاصة كالمداحين. لتدفن بعد ذلك في مقبرة المدينة وكانت تشكّل موردا اقتصاديا مهما لكربلاء حيث ترسل الجثث من داخل العراق وخارجه اليها لقدسيتها، لذلك تسيّر قوافل الجثث سنويا من ايران للدفن فيها ما جعل الحكومة العراقية تفرض رسوما عليها، ويختلف الدفن في المقابر العمومية خارج المدينة عن داخلها أو في حجر الصحون والطوارم والأروقة، وتعفى من الرسوم جنائز العلماء والمجتهدين العراقيين والأجانب الذين توطنوا البلد.

وكيف ان النساء الريفيات (المعيديات) كما يطلق عليهن، اللاتي يحملن على رؤوسهن صواني الجبن والقيمر الفارغة لأكثر من طابق، وسوق الصفارين وبعضهم يقف وسط الطست بعد ان يضع الكونية فوق الرمل المبلل أو الرطب من أجل جلي النحاس من بقايا النيكل العالق به، فيميل بجسده يمينا ويسارا مثل راقص في حفلة حتى يخرج لمعته المخبأة.

كنت أتجول في الشوارع، وانظر العمارة والبناء في مدينة كربلاء، بعد ان أحيطت بكثير من الجوامع والحسينات، وقد أفرز ذلك صناعة الكاشي الكربلائي في تزيين واجهاتها وجدرانها بالقاشاني. بل ان أهالي المدينة لا يكتفون بنقش الآيات القرآنية عليها حسب، بل ينقش اغلب الصفارين على القطع النحاسية بعض من آيات القرآن بطريقة وأسلوب جميل وبديع، فضلا عن الأدعية وصور الأضرحة التي يرغب الزائر في اقتنائها كتذكار.

أما الخانات والأسواق المختصة ببيع البقالة والعطارة فكانت رائجة ومتميزة لأن المدينة منطقة زراعية، ويقصدها كثير من التجار من مختلف الأقضية، كما يقصدها البدو من أجل التزود بالتمور والمواد الغذائية والفرش والملابس، وآلاف الزائرين وما يشكلونه من قوة اقتصادية كبيرة، كل ذلك مدعاة إلى ان تصل سكة الحديد اليها من بغداد إلى مركز المدينة، الذي جعلها تزدهر أكثر، فقد سهل نقل البضائع والمواد الغذائية وبالخصوص التمور إلى بغداد، فقد تميزت المدينة بزراعة الفواكه وبالخصوص البرتقال والرمان لما لتربتها الرملية الغرينية من صلاحية جيدة لإنبات مثل هذه الأنواع. تميزت بزراعة الحبوب فقد كانت اطراف المدينة تزرع الحنطة في ناحية الحسينية وتزرع الرز في منطقة الرزازة والشعير في ناحية عين التمر. كما تزدهر بالثروة الحيوانية فالأرياف بطبيعة الحال تربي الحيوانات، لأنها لا تتكلف كثيرا بغذائها، كما تربي الأبل لسعة الصحراء في جهتها الغربية.

لم أفكر يوما أن أكتب قصتي، أو ذكرياتي، أو مذكراتي حتى ساعة دخول القوات البريطانية إلى بغداد، في البدء كانت تعتلجني أفكار

تولد في ذهني وبعدها تنسحب إلى عالم النسيان، فأنغمس في العمل والتوترات التي بدأت تطفو على عالمي الواقعي، حتى هاجرت إلى كربلاء، لم تكن السنون الأولى سوى عملية تأسيس لحياتي الجديدة، وقد غادرتني فكرة الكتابة نهائيا وانغمست في العمل ونجاحاتي المستمرة مع غصة فشل مشروعي الأول وهو استمرار عمل الحمام، ولكن ما ان شعرت بالاستقرار، حتى عادت فكرة الكتابة تراودني من جديد. ان ما خبأته عن الجميع حتى عن زوجتي هو أنه أثناء خلو الدكان من أولادي، وحصول كسلة أو فراغ بالعمل، كنت أخرج أوراقي وأدون سيرتي وقصة رحلتي منذ اللحظات الأولى التي فكرت فيها بالهجرة من بغداد إلى كربلاء وما جرى طيلة هذه الفترة.

قررت أن أجعل من الغرفة في آخر الدار مكتبة ومن الليوان الذي يتوسط الغرفتين مكانا للكتابة والتأمل، استقدمت نجارا ليأخذ القياسات ويصنع لي مكتبة خشبية بما يناسب المكان، طلبت منه أن يضع وسطها اربع جرارات لأضع فيها الدواة والقصب والأوراق والمسودات التي أكتبها والمخطوطات التي وجدتها في بطون الكتب التي أشتريها من هرج يوم الجمعة، وطلبت منه أن يصنع لي رفا بجرار أسفله أضع داخله الأسطوانات، لأعلقه وسط الليوان واضع عليه الغرامافون بعنقه النحاسي الطويل، كانت أذن النجار هي جيبه الآخر يسحب القلم منها كلما اراد تسجيل قياس بعد ان يبله بلسانه ثم يعيده إليها، كما طلبت زوجتي منه ان يصنع لها خوانا جديدا بدل القديم بعد أن استغلت الغرفة التي تقع في الجانب الأيسر. تحتوي الغرفتان على بوجات تمتد للأعلى لإدخال الهواء البارد في الصيف والحار في الشتاء، وقد ختمت عند السطح بأقواس حتى لا ينفذ المطر من خلالها.

برغبة الملهوف بدأت أجمع كل شيء يخص المتصرفية، اشتريت كثير من الكتب التي كتبها أهل المدينة، وكذلك أهل العراق وبعض المستشرقين، كما كنت ألتقي ببعض كبار السن وأسألهم عن كل ما هو قديم فيها، عن عاداتها وتقاليدها وأفراحها وأحزانها والساسة واليرمازية واللوطيين والقحاب والقوادين والقوادات، عن الأكلات الشعبية، والأزياء والملابس والكليدارية والسادة وأنسابهم، عن قصص العشق والعشابة والأمراض التي أصابت المدينة، عن الحوزات العلمية ورجالها، عن الملل والنحل التي كانت تعصف فيها قبل قرن من الآن.

علمت أن الحاج حسن عبد الأمير، يمتلك مكتبة ضخمة فيها من الوثائق والمخطوطات المهمة التي تمثل كثير من وقائع القرن الماضي، كما عرفت انه يمتلك مسافرخانة لمبيت المسافرين والحوذية ببغالهم وحميرهم في العلاوي، وهو لا يبعد كثيرا عن بيتي، لذلك قررت الذهاب والتعرف عليه محاولا الحصول منه على الوثائق ونسخها، ومن ثم اعادتها إليه.

عند الضحى توجهت اليه، كانت الألوان التي غادرت صبغتها، والأشكال التي أصبحت حوافها من غير رونق، تجعل من واجهات البيوت مغبرّة، والأصوات المتكررة يوميا من الباعة المتجولين، وصرير إطارات عرباتهم بالأرض، والضجيج الذي يتركه الزحام اليومي، وبعض الحوذية يصرخون بالناس ليفسحوا الطريق لهم ولحميرهم، يجعل من الأسواق في نشاط مستمر. وحين وصلت إليه وجدت باب المسافرخانة مفتوحا على مصراعيه، وبعض الحمام يقف في زوايا المكان وعلى الأعمدة الخشبية التي تحمل المسقف، دلفت إلى المكان تقدمني أحد

العمال بشرواله الأسود وبيده مكنسة وهو ينظف الأرض، سألته عن الحاج حسن، فدلني على أوفيسه وهو يشير بيده نحوه.

أوفيسه عبارة عن غرفة خشبية تتقدمها واجهة زجاجية، عندما رآني مقبلا عليه، نهض من كرسيه متقدما نحوي، كان مكتبه انيقا رغم انه معفر ببعض الغبار، لم تبد على وجهه ملامح الاهتمام بالثقافة وجمع المخطوطات، بل ان عقاله وصايته، والسجلات التي تعلو مكتبه توحي بأنه تاجر من الطراز الأول، يرتدي اليشماغ والعقال، جسده ممشوق، يلبس نظارة، شاربه كث، وعندما عرفته بنفسي، رحب بي كثيرا، أخبرته بأنني علمت من أنه يمتلك مغارة كبيرة من الكتب فيها من الأسرار والمخطوطات والوثائق ما يساعدني على إتمام مشروعي، لم يمانع وإنما يعد بذلك، وطلب مني النهوض معه إلى بيته.

خرجنا سويةْ من المسافرخانة، تجاوزنا عگد اليهود ولم نقطع سوى أمتار حتى انعطفنا يمينا إلى زقاق المسلخ في محلة البلوش، وصولا إلى عگد أبو دكة، كنت يوما بعد يوم أزداد انجذابا وترسخا في المدينة، طيبة أهلها، ورائحة العنبر التي تضوع من العلاوي لتدخل البيوت دون استئذان، رائحة شواء المطاعم البسيطة والجوالة التي تفترش أركان الأزقة وبعض المساحات غير المشغولة، فاكهتها الطازجة، وحليب جواميسها وقيمرها، ورمان شثاثة وحلانات تمرها الخستاوي، الدجاج المربوط الأقدام، والبط والوز والبيض المختلف الأحجام مثل كرات حلبية، الطيور الحرّة بريشها الأسود ومناقيرها الطويلة، رجالها بكل تنوعاتهم وأزيائهم المختلفة، نساؤهم بعمائمهن والخطوط والنقاط الخضر التي تطرز وجوههن، الأولاد يلعبون الحفاة، ودشاديشهم البازة

المقلمة، والبنات الشعثات الشعر يتقافزن فيما بينهم داخل حلبة التوكي. الفقر المدقع لبعض العوائل يحول كل شيء إلى محط النظر ومصدر رزق بسيط، خوص السعف ونوى التمر وبراز الجواميس، حتى العادات والتقاليد التي تحكم المجتمع ولا يحكمها يجعل منهم في تشابك من المودة باستمرار.

حتى السرسرية والكلاوجية والشقاوات الذين يحكمون مناطقهم، لا يتعدون على أهلها وإنما تدور معاركهم مع من يماثلهم بالسلوك من المناطق الأخرى، أما النساء فهن خط أحمر في كل المتصرفية ولا يجوز الاعتداء عليهن مهما كان السبب.

V

قرة العين

عندما دلفنا إلى العگد الذي لم يكن يتجاوز طوله العشرة أمتار، كان بيت الحاج حسن عبد الأمير في الواجهة، بابه خشبية جانبية بدرفة واحدة، وشباك كبير يتوسطها، صعدنا ثلاثة سلالم إلى داخل البيت، الذي يتوسطه حوش دون بئر، ومن ثم دخلنا إلى غرفة السلامليك، طلب من أهله أن يحضروا الشاي، الحجرة مفروشة بسجاد ملون، ووسائد منثورة على مسافات، وبعض الكتب المصفوفة على الرفوف المبنية من بطن الحائط، لم نكن نطيل الجلوس حتى طلب مني الصعود معه إلى الطابق الثاني حيث المكتبة، كانت حواف السقوف مطرزة بالقاشان المعرق، وأقواس الليوان مزخرفة برسوم الأغصان النباتية وبعضها بأشكال هندسية مكررة، عندما دلفنا إلى حجرة المكتبة، المكان متوسط الإضاءة التي تأتيه من الشمس، تنتشر فيه رائحة غبار وشمع وتجليد كتب عتيقة، شعرت ان المكان نابض بالحياة من خلال الذين يعيشون في متون الكتب، أضاء قناديل تعمل على الشحم والزيت، وكان على ما يبدو مصابا بمرض السكري، فاستأذنني ليريق المائية، مما اتاح لي فرصة أن أتصفح المكتبة المصنوعة من خشب الجام ومطعمة من الداخل بالصاج، تمتد

على طول الحائط، تحتوي على المئات من الكتب، وعند نهايتها طاولة وقربها كرسي من الخيزران، يوجد عليها الدواة وأقلام القصب، وعلى جنب بعض الأوراق والمخطوطات، على الحائط من الجانبين يوجد بعض السجاد المعلق وقد حيك عليه صورة لبعض الشخصيات الدينية من آل بيت النبي محمد، قادني فضولي أن أفتح بعض أبواب المكتبة لأتصفح بعض عناوينها، مددت يدي إلى الرف المثقل بالمخطوطات كانت تحتوي على مجموعة أسماء لأشخاص اصابهم الطاعون أثناء زيارتهم لكربلاء ومنهم السيد حسين مرتضى النقيب، والشريف محمد شريف المازندراني، والشيخ خلف الحائري وآخرون، ومن ثم صعدت بنظري إلى الرف الأعلى، الكتب مسطرة وكعبها مقابلي، منها حضارة الإسلام في دار السلام لمؤلفه جميل نحلة المدور، وكتاب الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر لمؤلفه محمد شكري الآلوسي، وقد وجدت في وسطه ورقة من المقوى، ربما كان الحاج حسن قد وصل في قراءته إلى هذا الحد، وكتاب تاريخ الفلاسفة ومقدمة للعلامة ابن خلدون، بطبعة قديمة تعود لعام 1879، ورقها أصفر، وفيه كثير من التعليقات، ورسائل أبي العلاء المعري، ومحي الدين ابن عربي، وجمهورية أفلاطون، مثلما وجدت بعض الكتب المترجمة، ومنها تاريخ التمدن الحديث لـ(شارل شيوبوس) مطبوع في دار الهلال، وكتاب أحمد بن حنبل والمحنة من تأليف (ولتر ملفيل باتون) وترجمة محمود محمود، عاد الحاج حسن وهو يتنحنح، ثم بدأ حديثه الذي لم ينقطع بيننا أصلا بالقول:

- مثل ما كان المجتمع العراقي مشغول البال والفكر سابقا ما بين المشروطة والمستبدة، حتى انتصرت المشروطة، انقسم بعد

الحرب العالمية الأولى ما بين مؤيد للثورة العربية ومناصر لها وهو بذلك يكون من أتباع الإنكليز او مؤيد للإمة الاسلامية وهو بذلك مناصر للأمة العثمانية، رغم مرارتها والسفربرلك الذي قاد الفقراء والمساكين والمجانين والحوذية واليرمازية إلى جبهات القتال في القوقاز دون ان يرجع اغلبهم.

- لكني لم أسمع بالمشروطة والمستبدة، وانما الشائع هو الصراع بين العمامة والأفندي، وقد انقسم المجتمع البغدادي إلى قسمين: ترمز العمامة إلى الاحتلال العثماني (الأمة الإسلامية) بينما يرمز الأفندي إلى الاحتلال الإنكليزي (الأمة النصرانية) وفي كليهما كان الصراع والانقسام ثقافيا وهو وان مس الجانب العقائدي، او لعب عليه، ولكن ما كنت أعانيه وطائفتي أو ملتي، هو الاحتلال العثماني للبلاد العربية، ومنها العراق الذي شكل بداية ازمة وبالخصوص بعد ان تصدر المشهد الدولي من قبل دولة أو امبراطورية فتية اسمها المملكة المتحدة وبنفس لغة الاحتلال ولكن بثوب جديد. حتى اصبحت كلمة أفندي تطلق على كل من يعمل في الدولة العثمانية، ومن بعدها في الحكومة العراقية، ومن ثم أصبحت تطلق على كل من يرتدي البدلة ويضع فوق رأسه الطربوش الأحمر أو الفيصلية.
- لكننا كنا نعاني من صراع عقائدي، ولا بد ان أخبرك ان كربلاء قبل قرن من الآن كانت تتمتع بحكم ذاتي واستقلالية شبه كاملة عن مركز القرار في بغداد، وكذلك تموج بالنحل الدينية، وقد بدأها الشيخ أحمد الإحسائي بتأسيسه لمذهب الشيخية، ليتبعه تلميذه كاظم الرشتي بالكشفية، ليتشظى أتباعه إلى ملل ونحل.

- حقيقة هذه كارثة وبالخصوص عندما تكون الانقسامات بالجانب المذهبي وتعصب الأهالي إلى كل طرف على حساب الطرف الآخر، ولكني سمعت رأيا متطرفا من أحد المناوئين لتلك الاتجاهات من أجل إعلاء قيمة كاظم الرشتي اذ حاول فيه أن يقرنه بنبي الإسلام محمد، في كونهما يتيمين وحاول كل منهما أن يأتي بما هو مخالف للسائد وبما ينفع المجتمع، الذي رفضهما بدوره، وتم طردهما من المدينة التي يسكنا فيها، وتم تكفيرهما ومحاربة اتباع كل منهما.
- هذا كلام فيه تطرف كبير وهو مجانب للصواب، كما فعل عبد القادر الكيلاني عندما أقتبس فكرته عن الفرقة المفوضة التي أبتدعها محمد بن مقلاص الكوفي، الذي أسبغ الألوهية على الرسول محمد، ونادى بأن روح القدس قد حلَّ في جسده، فقد أعطى خاصية التجليات والفيوضات بشخصية الرسول وأشركه مع الذات الإلهية في المشيئة المادية والغائية، وذهب الرشتي إلى أبعد من ذلك عندما ردد أقوال محمد الشلغماني الذي أدعى ان شخصه هو باب الإمام المنتظر، وفسر الآيات القرآنية الظاهر منها إلى باطن الباطن حتى أنتهى به القول إلى ان يقول: ان الله حلَّ في شخصه، لأن الذات يحل في كل شيء على قدر ما يحتمل وهذا القول هو ما يعرف بالحلول.
- ومَن مِن هذه النحل أكثر تأثيرا وصدى وأستمر دون أن يندثر، لأنني لا أتلمس هذا الصراع الآن في المدينة.
- الأكثر تأثيرا هي قرة العين، أما الذي بقي منها فالشيخية في العراق، والبهائية في بلاد الشام.

- هل لك أن تفصل أكثر؟
- في البدء لا بد ان تعرف، ان كل هذه المذاهب أو النحل فارسية جاءت إلى كربلاء من إيران، وفيما يخص قرة العين واسمها الحقيقي هو (زرين تاج)، كانت متعطشة للقاء السيد الرشتي ولكنها وصلت إلى كربلاء متأخرة، فقد وافاه الأجل، فاشتركت في مأتمه وسكنت مع أهل بيته.

نزلنا إلى حجرة السلامليك، بابها الخشبية من درفة واحدة، تمتد على طول البيت، مفروشة ببسط ملونة، ووسائد مغلفة بالساتان الأخضر، وجدنا صينية الغداء ممتلئة بالمواعين، وقربها صلاحية اللبن، وشربة الماء، والأقداح النحاسية، كان ماعون البرياني هو سيد الأكل، وقربه ماعون رز أبيض، ودجاجتان تم شيهما في التنور، وبعض أقراص الخبز الموضوعة في صحن من خوص، وصبي وقف على جنب ينتظر تقديم الخدمة لنا، ربما هو أبنه أو لأحد من أقاربه، فبيت عمه ملاصق لبيته، حتى أن سطحهما واحد تنتقل النساء فيما بينهم دون الحاجة للخروج إلى الشارع والدخول إليه.

فضل الحاج حسن أن يصلي قبل أن يبدأ غداءه، وانتظرته على جنب حتى أتمها، وبادرته بالقول: قبل الله. فرد: منا ومنكم، ومن ثم تبسم، فقلت أجمعين. بعدها جاء الصبي باللكن وأبريق الماء النحاسي، وطلب مني التقدم لغسل يدي، وبعدها أعطاني البشكير لأجففهما، ومثلي فعل الحاج حسن، توسطنا الصينية، وبدأنا الأكل، لكنه اخذ يقطع لحم الدجاج ويضعه أمامي، وعندما أخبرته أن يرفع التكلف بيننا، رد أن لا تكليف بيننا، ولكن خدمة الضيف واجبة، وهو لم يقدم

أي شيء إضافي عن الآخرين. ثم جاء الصبي بمواعين فاكهة الآلوبالو والبرتقال والرمان.

عاد الصبي بأبريق الماء واللكن لأغسل يدي من جديد، وكذلك الحاج حسن، وبعدها بدأ برفع الصينية، بينما جاء بشربة الماء أمامنا، وبعد قليل جاء بالشاي الذي تم تهديره على الفحم، ورائحته تضوع المكان، لاحظت ان الحاج حسن مولع بالشاي، وهو يحتسيه بطريقة وكأنه يعاقره، وسرعان ما ملأه الصبي له من جديد، بينما بقيت احتسي بالإستكان المذهب على مهل.

طلبت منه أن يقص لي حكاية قرة العين ونحن نحتسي الشاي، بدل العودة إلى المكتبة، وكنت أشعر بالحرج، فالعائلة مقيدة بالحُجَرْ، رغم غلق باب حُجْرَة المكتبة، لم يمانع وبدأ يقص لي حكايتها:

قرة العين

قزوين. 1814

شاعت الفرحة في بيت الشيخ محمد صالح البرغاني، بعد ان وضعت زوجته مولودها أنثى، بعد ثلاثة صبيان، كانت فائقة الجمال، وجهها مضيء مثل مشكاة في ليل حالك، شعرها أشقر، بشرتها بيضاء، عيونها سوداء بلون الفحم، فأتفق الوالدان على ان يكون أسمها (زرين تاج) ومعناه (التاج الذهبي).

ترعرعت زرين في وسط عائلي سعيد بصوتها الأنثوي وسط جو

ذكوري بامتياز، مدللة بشكل مفرط لا يرد لها طلب، كان أبوها بعد الانتهاء من دروسه الدينية، يأتي وجيوبه معبأة بالمكسرات والملبس والحلقوم لها، بينما تحرص أمها على كبح جماحها بطريقة غير مباشرة، كما تعمل على ان تقف معها أثناء الصلاة، وقد فصلت لها (جادر) صلاة صغير يليق بها، حتى أضحت مثل طير جنة بأجنحة ملائكية، ترفرف به قبل الصلاة، ثم ذهبت بها إلى الكتاتيب كي تتعلم القراءة والكتابة، ولأنها متقدة الذكاء سرعان ما اتقنت القراءة والكتابة.

بدأت تقف مع أمها لتؤدي فروض الصلاة قبل سن التكليف، ومن ثم بدأت تقرأ بعض الكتب الدينية البسيطة الأفكار، وتدخل مع أمها بأسئلة بريئة ما اثارت أنتباه الأخيرة خوفا شديدا على مستقبلها، بدأت تهجر الشارع واللعب مع أقرانها، وتجلس في عزلة تتفكر بالجو الديني الروحاني الذي يحيط بعائلتها، فالأم ما بين صائمة في غير شهر رمضان أو واقفة بين يد رب كريم تصلي وتدعو، وما ان تنتهي من الصلاة حتى تفتح كتاب مفاتيح الجنان أو رياض الصالحين لتنجز المستحبات من الصلاة والتسبيح، أما أبوها فكان يلقي الدروس على طلابه في البيت.

عندما جاءها الطمث عصر يوم غائم ومرتبك، داهمها الخوف، ركضت إلى أمها تسألها عن الدم الذي فاض بها، فشرحت لها معنى ان تتحول البنت من فتاة إلى سيدة، وبأنها أضحت مستعدة للزواج بحكم تكوينها الجسماني الذي بدأ يفرز بيضة مستعدة للقاح، بعد فترة جاءتها تسألها. لماذا تقف المرأة في الصلاة وهي تلبس الحجاب، بينما لا يقوم الرجل بذلك؟ والأنسان مكشوف أمام الله بحجاب أو بدونه؟ لم تكن الأم لتجيبها بأنه فرض إسلامي لا بد التقيد به، ولم تكن لتملك غيره.

تشعر في بعض الأحيان بالغم، فتخرج لتسيح بالأزقة القريبة من شارعهم، وفي أحايين أخرى تأخذها قدماها إلى أبعد من ذلك، وتعود شاردة الذهن. طلبت من أبيها وعمها ان تحضر دروسهما، فأمرا بأن يسدل لها ستار لتستمع لهما، بدأت تهتم بالأوساط الدينية والاختلافات التي تزدهر في وسطه، وكان أهل قزوين كأهل كربلاء منقسمين إلى فرقتين متنازعتين: (بشت سري) و(بلا سري) أي شيخان وخصوم الشيخين.

واظبت زرين على حضور الدروس طول الوقت مع تبدل وجبات الطلبة، لكنها لم تكن تُشبع عوزها المعرفي ونهمها المعرفي في الاستحواذ على أكبر كمية من المعلومات، في مقابل إثارة كثير من الأسئلة في نفسها لم تستطع الجهر بها، ليس آخرها التفرقة بين الأديان بالرغم من أن الدين منبعه واحد ولكن الأنبياء وشرائعهم مختلفون فيها.

في الأيام التي لم تكن فيها دروس، تعود زرين إلى عادتها في المسير وسط الأزقة والشوارع الفرعية، وسط حيهم الغافي على بساطة البناء والسكينة التي تحيط بحدائقه، صادف ان شاهدت دكان لبيع الخمور، وعلمت ان صاحبه مسيحي آثوري يدعى أبو رافائيل، وقفت أمامه متحيرة، وكيف ان المسلمين يعيشون مشكلة مع أو ضد الشيخين، ومثل هؤلاء الناس بعيدون كل البعد عن التفكير بالنزاعات الدينية، بل يتمتعون بحياتهم بكل فرحها وسرورها لينتجوا السعادة.

يكبر رافائيل زرين بأربع سنوات، وكان مثلها في جمالها، شعره أصفر، وعيناه زرقاوان، وجهه دائري، يرتدي بدلة، عندما وجدها تقف

أمام دكانهم حائرة، رفع الباب التي هي جزء من تسكاة الدكان وتقدم نحوها عارض خدماته ان كانت بحاجة اليها، إلا انها انتفضت من سكرتها، عندما وجدته بهذا الجمال، وفرت راجعة إلى البيت.

عند الليل سألت أباها عن موضوعة الخمر فأجابها انه في بداية الإسلام لم يحرم وانما طلب النبي من أتباعه أن لا يقربوا الصلاة وهم سكارى، وبعدها تم تحريمه بأنه رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه. وهل اجتناب الشيء يعني تحريمه، وما عقوبة من لم يجتنبه هل حددها القرآن أو النبي، سألته؟ وكان كل ما يجيبها أبوها بجواب تعود لتسأله بسؤال من جديد.

كما أصبحت تتردد على رافائيل لتسأله عن تحريم الخمر في الديانة المسيحية، وأجابها أنه ليس بحرام، وانما الإكثار منه يؤدي إلى ضرر كبير، مثله مثل أي شراب أو أكل، وعلى سبيل المثال أي إنسان إذا أكل ثمرة موز واحدة فأنها ستعود عليه بالنفع الكبير، ولكنه عندما يأكل أثنين كيلو منه، فأنه ربما يسبب له عدة أمراض، وهكذا باقي الأشياء، إذ لا يمكن لله ان يخلق شيئا يضر بعبيده إلا إذا أساء العبد استخدامها.

اجرت مع رافائيل حوارات هي أقرب إلى مقارنة بين الأديان ليس آخرها الصيام عندما وجدته في المسيحية هو صيام عن اللحم فقط، بينما الصيام في الإسلام عن كل شيء يدخل الفم، مثلما كانت تدخل بنفس هذه الحوارات مع أخيها عبد الوهاب، فيزجرها في حديثه، وليس آخرها عندما أخبرته، ان الدين الإسلامي أكثر تشددا وتعذيبا للنفس بكثرة طقوسه غير المبررة.

كانت كلما تجد تشدد في الإسلام، تذهب إلى رافائيل وتسأله عن مثله في المسيحية، لتجده مخففا حتى طلبت منه أن يهديها كتابهم المقدس، وأخذت طول الليالي تقرأ فيه على ضوء مصباح زيتي، وأعادته لأكثر من مرة، كما قرأت القرآن وأعادته لأكثر من مرة هو الآخر، وتحضر جلسات أبيها وعمها، كما تتمعن بالاختلافات الفقهية التي يطرحها الفقهاء، وفي خصوص بعض المسائل التي قد تكون في أغلب الأحيان بعيدة عن أرض الواقع وقريبة من الذهن والأفكار.

اهتدت إلى بعض كتب المتصوفة المخبوءة في دهاليز مكتبة أهلها، وطفقت تغرق في تفاصيل أفكارهم، وفي الوقت نفسه كانت تسمع بأخبار كاظم الرشتي والصراع الدائر حول أفكاره لتعود من جديد لتلتقي برافائيل حتى تحولت العلاقة من لحظة صدفة إلى أعجاب وصداقة بالأفكار إلى حب ومن ثم زواج، بعد ان بلغت سن الرابعة عشرة من عمرها، وقد حفظت كلام أمها عندما جاءها الطمث من قبل وكيف ان جسدها أصبح مهيأ للزواج.

لم يكن الخبر ليكتم كثيرا وسرعان ما شاع في أوساط محلتها (دمج) بعد ان شاع في محل رافائيل (سوخته جنار) ولم تكن المسافة التي تفصل المحلتين بكبير، لم يكن أمام أهلها إلا ان يتخذوا حيال زرين إلا القرار الجريء والحازم اتجاه العار الذي البستهم إياه الجميلة المدللة، وكان القرار هو قتلها.

عندما علمت زرين بقرار أهلها لم يكن منها إلا أن قررت الفرار منهم، ولكن لم يكن أمامها من مفر، فهي لم تخرج من قبل عن حدود

محلتها إلى محلة حبيبها، كما أنها لم تكن لتمتلك المال حتى يساعدها على الفرار، فلم يكن منها إلا ان التجأت إلى دار الشيخ إسحاق حكيم باشي هربا من محاولة قتلها.

كانت زرين حاملا في شهرها السادس، ولم يكن من حل في إسقاط جنينها، أو تطليقها، لذلك طلب الشيخ اسحاق ان تبقى في داره حتى الإنجاب وبعدها يأخذ على عاتقه تربية الطفل، وتطلق من زوجها الآثوري، وتنتهي المشكلة.

استغلت زرين فترة الأشهر الثلاث بالقراءة، ولم تكن تعبأ برأي أهلها في الزواج من رجل يخالف ملتهم، وازدادت انغماسا في دراسة الصوفية والعقائد الإسلامية ساورها كثير من الشكوك في بعض تعاليمه، كما أرسلت بطلب الكتب التي ألفها كاظم الرشتي بعد ان شاع صيته، في قزوين من قبل، وعندما قرأتها وجدت افكاره مجددة، بل في بعض أوجهها تنسخ الشريعة الإسلامية، وترفع ما تعده زرين حيفا على المرأة في كونها تختلف عن المرأة في الواقع المعاش، فأبرقت له تؤيده في أفكاره وفي كل ما ذهب إليه، ليرد بدوره على رسالتها بأنها قرة العين هذا العنوان الذي سيرافقها باقي حياتها.

لم يجد أهلها من بد إلا ان يغلفوا العار الذي تلبسهم جراء فعلةِ أبنتهم إلا بتزويجها من ابن عمها الملا محمد بن الملا محمد تقي من أجل أن تبقى على قيد الحياة، وليحفظوا لبيتهم شرفه، فهم عائلة أنتجت العلماء، وتدرس الدين، ولا يريدون لك هذا التاريخ ان يلوث بالدم.

اجبرت قرة العين على هذه الزيجة من أبن عمها، فكانت في خلاف

مستمر مع زوجها وطلبت منه السفر إلى كربلاء للقاء الشيخ الرشتي، التي تعتقد بأفكاره، فوافقها على ذلك رغم خلافه مع ما تعتقده وشدوا الرحال.

كربلاء. 1843

بلغت قرة العين التاسعة والعشرين من عمرها، وقد أنجبت من أبن عمها أبراهيم واسماعيل، لكنها لم تكن تشعر بذلك الحنين الجارف والأمومي اتجاههما، بسبب انغماسها بالأفكار الدينية، كربلاء من قبل تتمتع بحكم ذاتي واستقلالية شبه كاملة عن مركز القرار في بغداد، وكانت محط جذب لرجال الدين ما نتج عنه صراع عقائدي نتيجة لتعدد النحل الدينية، وقد بدأها الشيخ أحمد الإحسائي بتأسيسه لمذهب الشيخية، ليتبعه تلميذه كاظم الرشتي بالكشفية، وبعده الملا حسن الكوهر بنحلته الكوهرية، ومن بعده اتباع مرزا طاهر شفيعي مؤسس الطريقة الشفيعية، وبعده مؤازري علي محمد رضا الشيرازي الملقب بالباب والذي انشقت منه البهائية، لتتبعها جماعة المرأة الملقبة بـ(قرة العين)، والتي ادعت انها مظهر فاطمة الزهراء، لتختم بالركنية وهم اتباع محمد كريم ابراهيم الكرماني، وهؤلاء تلاميذ كاظم الرشتي وتلقوا دروسهم على يديه.

حاولت بعض الأطراف إعلاء قيمة الرشتي، وغالت في ذلك بأن جعلته في قرينة مع نبي الإسلام في كونهما يتيمان وحاول كل منهما الاتيان بما هو مخالف للسائد وبما ينفع المجتمع، الذي رفضهما بدوره، وتم طردهما من المدينة التي يسكنان فيها، وتم تكفيرهما ومحاربة اتباع كل منهما.

وكما في كل زمان ومكان، كانت أرض العراق حافلة بالمغالاة والتطرف، فهي أول من أنتج المذاهب والنحل، وستستمر حتى آخر يوم في إنتاجها، وليس ذلك ببعيد عندما أقتبس عبد القادر الكيلاني فكرته عن الفرقة المفوضة التي أبتدعها محمد بن مقلاص الكوفي، الذي أسبغ الألوهية على الرسول محمد، ونادى بأن روح القدس قد حلَّ في جسده، فقد أعطى خاصية التجليات والفيوضات بشخصية الرسول وأشركه مع الذات الإلهية في المشيئة المادية والغائية، وذهب الرشتي إلى أبعد من ذلك عندما ردد أقوال محمد الشلغماني الذي أدعى ان شخصه هو باب الإمام المنتظر، وفسر الآيات القرآنية الظاهر منها إلى باطن الباطن حتى أنتهى به القول إلى ان يقول: ان الله حلَّ في شخصه، لأن الذات يحل في كل شيء على قدر ما يحتمل وهذا القول هو ما يعرف بالحلول.

عندما وصلت قرة العين أرض كربلاء، يحذوها الأمل في لقاء الرشتي، ولكنها وصلت متأخرة، فقد وافاهُ الأجل، فاشتركت في عزائه ولعنت حظها العاثر في وصولها في وقت غير مناسب وعدته نذير شؤم في هذه المدينة الحافلة بالانقسامات.

هجرت زوجها في الأيام الأولى، وسكنت في بيت الرشتي، وبعدها أخذت تتناوب المبيت بينهما، كانت قرة العين فائقة الجمال، شعرها أشقر، صوتها جهوري، قوية الحجة، حسنة الإلقاء، ذكاؤها مفرط، شخصيتها قوية، لسانها فصيح، شديدة التأثير بالآخرين، ذات بلاغة وجرأة، وقد شاع صيتها في الأوساط البابية والبهائية باسم (طاهرة). ومن ثم باشرت بإعطاء الدروس على طلابها من خلف حجاب، ولأنها متأثرة بالعقائد الصوفية الذين يؤمنون بالحلول والاتحاد وإنكار

التكاليف الدينية ونفي صفات الله، فزعمت انه ليس له وجود بالمعنى المعروف ولا صفات وانما يظهر ذلك في الأشخاص.

بدأت تلقي محاضراتها دون ستار، وقد تبعها بعض طلاب الرشتي، ومنهم الأخوند ملا حسين بشروية، والأخوند ملا علي البسطامي، اللذان أتفقا معها عمن يخلف الرشتي بالركن الرابع بدأت تجذب جمهورا كبيرا من باقي المدارس الحوزوية الأخرى، لما يتيح درسها من حرية الفكر والأسئلة حتى أنه في أحد الدروس سألها طالب:

- ما هو بيان عقائد الكشفية للسيد الرشتي، فأجابته بأنه.
- في بيان عقائد الكشفية، يقسم الروح على ثلاثة أقسام: الروح النباتية، الحيوانية، الإنسانية. ثم يذهب إلى شرح الروح الإنسانية التي تظهر بعد ان يبلغ الإنسان سن الأربعين ولها خاصيتان هما النزاهة والحكمة. وتظهر في كل ألف ألف نطفة وتسمى بالروح الكاملة، بعد ان تتمركز بالأركان الأربع لجسم الانسان (قلبه، صدره، رأسه، بدنه) فيصبح مثل هذا الشخص حسن الصورة والمنظر، متناسق الأجزاء، قوي المعرفة والإدراك، وهذه الصفات عندما تتحقق في شخص يستطيع معرفة امام زمانه، لأن معرفته تعني معرفة الرسول، ومعرفة الرسول تعني معرفة الله. لأن الأمام تجلت فيه ذات الله والرسول، فالأمام الركن الأول في الحياة، أما الركن الثاني في ذلك الانسان الكامل يتمركز في رأسه ـ العقل ـ ولهذا الركن ست خواص هي (الرضا، التسليم، الخنوع، الصبر، الخوف، الانقياد). أما الركن الثالث فأنه يتمركز في صدره وله خاصيتان كسب الأخلاق الحميدة واجتناب الأعمال القبيحة. اما

الركن الرابع فأنه يتمركز في بدنه ومتى ما اكتملت هذه الأركان الأربعة أصبح وليا من أولياء الله الصالحين، وتظهر فيه قوة خارقة ويصبح حكيما عالميا.

- ولكن هذا يعني ان الركن الرابع لا يدعو إلى ظهور الإمام الغائب؟
- نعم. إذ يرى كاظم الرشتي ان في غيبة الامام المهدي الكبرى صورة ميتة، ولأن الخلق والرزق يحتاج إلى حركة والى توجيه معين، والله لا جهة له ـ لأنه ذات ـ فلذا يجب ان تظهر هذه الذات بشكل قابل للحركة كي يخلق ويرزق ويعبد، وذلك الشكل ظهرت في اشعاعات فاطمة الزهراء، لأنها هي أشرف من سائر الأنبياء ولا سيما أولي العزم، ومنها انتقلت الاشعاعات إلى ابيها الرسول محمد، وبعلها وبنيها، ومنهم ينتقل إلى قوم من شيعتهم وأوليائهم الخلص، وهذه هي الحقيقة المحمدية فهؤلاء هم مظهر من مظاهر ذات الله لأتحاد الجوهر الالهي في الجوهر الجسماني بالتداخل لا بالامتزاج، ولهذا أصبح الأمام علة فاعلية لأنه قائم بمحل المشيئة والعلة المادية والصورية والغائية. لأن العوالم كلها برزت من نقطة ذات الله، ثم أخذت هذه النقطة في الظهور بوساطة تلك الاشعاعات النورية التي تجلت في فاطمة ومنها انتقلت إلى أهلها وهم جميعا مظهر من مظاهر الذات الإلهية وهم السبب في ظهور تلك النقطة الأزلية.
- لكن هذا يعني ان لا يوم للقيامة والحساب، وهذا مخالف لنواميس الدين؟ وبالخصوص بعد موت مولانا كاظم الرشتي، من غير ان يعين من يخلفه؟

- نعم. هو لم يوص بعده. حتى يأذن الله اختيار من يخلفه ليكون الركن الرابع.

حملت مثل هذه الأسئلة كثير من السلبيات، مثلما حملت الإيجابيات، ازدحمت غرفة التدريس بالطلبة، ما اضطرها إلى اعطاء درسها في ساحة البيت الخارجية، بعد ان نصب لها منبر السيد الرشتي، وأضحت تلقي دروسها من دون ستار وحجاب يمنعها عن طلبتها، ما أحدث جلبة بين بعض طلابها القدماء الذين ورثتهم عن السيد الرشتي، مثلما اثارت الحسد والضغينة في نفوس القائمين على الحوزات الدينية الأخرى، كل ذلك جعلها تعقد اتفاقا مع بشروية والبسطامي على ان يلبسا الركن الرابع لشخص يكون طوع بنانها لتكون هي الباب، وبعد ان وصل الصراع ذروته في صفوف الكشفية.

قزوين. 1844

سافر كل من بشروية والبسطامي إلى ايران بحثا عن الركن الرابع، واجتمعا بشيراز مع السيد علي محمد الشيرازي، والذي لقب نفسه (باب الإمام) وأدعى مقام المهدي الموعود بعد ان استطاع ان يجذب إليه الأخوند ملا حسين بشروية وجعله بمقام باب الباب والأخوند ملا علي البسطامي الذي انعم عليه لقب أمير المؤمنين.

لكن تخطيطهما لم ينجح، بل حدث تصدع كبير. فعندما عاد البسطامي إلى كربلاء حاملا لقرة العين رسالة من البشرويه يحرضها على اظهار الدعوى للباب وأخذ البيعة له من الأصحاب، ومن ثم بدأ يدعو جهارا إلى الباب محمد علي الشيرازي، عند ذلك احتدم الصراع

العقائدي في صفوف الكشفية بين أتباع الباب الذي يتزعمهم البسطامي ومن خلفه قرة العين، وبين أهالي كربلاء.

تم اعتقال البسطامي من قبل الحكومة المحلية بناء على طلب العلماء وتسفيره إلى بغداد، ليتشكل فيه مجلس خاص ضم علماء الامامية من كربلاء والنجف مع عضوية مفتي الديار العراقية العلامة شهاب الدين محمود شكري الآلوسي الملقب بأبي الثناء لمحاكمته. وقد تم استعراض مذهب البابية كله بمحضر للدولة العثمانية وبعد أيام صدر الأمر بنفي البسطامي إلى الديار الرومية وأثبت محبوسا في تركلي داغ وأرغم بموته هنالك أنف كل طاغ.

أصبحت هي زعيمة الحركة في كربلاء، وأخذت تلقي الدروس على المريدين من بقايا البابية وتجالسهم سافرة دون حجاب بينما تحتجب عن غيرهم من الرجال، مما دعا بعض مريديها من المتدينين الذين يحضرون درسها ان يحتجوا عليها وأخذوها على فعلتها، غير ان فريق العزاب من أصحابها كانوا يحومون حولها كالفراشة التي تحوم حول السراج يدعونها بشمس الضحى وأحيانا ببدر الدجى لجمالها الفاتن وقد أعجبهم سلوكها المغاير لقواعد الشريعة الإسلامية، ولما قوى بها المقام وتبلورت عقيدتها في شكلها الجديد جاهرت ببعض مكنونات نفسها، إذ كشفت ذات مرة وهي على المنبر عن صدرها وخاطبت المستمعين: لِمَ تذهبون لتقبيل الحجر الأسود في الكعبة، تعالوا والثموا الحجر الأبيض وأومأت إلى صدرها.

أما علي محمد الشيرازي الذي هو الباب أو الركن الرابع، فقد قتل في

مدينته، وكان من قبل قد زعم في العقائد البابية رفع الصلوات الخمسة وفريضة الحج، وألف كتاب في تفسير سورة يوسف، ما أدى إلى انسلاخ ثلة منها تحت عنوان البهائية، فقد جاء رجل يدعى حسين علي الملقب بهاء الدين إلى بغداد مبشرا بالبهائية، ومعلنا حربه على الشاه لقتله الباب، وتبعه جمع غفير من شيعة العراق، ولكن تم نفيه إلى (أدرنة)، وبعدها نقل إلى عكا وهناك توفى.

خلفه أبنه عباس الملقب بعبد البهاء، وأصبح له أتباع في مصر وبلاد الشام، وتعاليمهم وأحكامهم بين تقصي وابرام وهم على اختلافهم يرجعون إلى الباطنية من الاسماعيلية ويأخذون بكلام المتصوفة بوجود (جابلقاء) و(جابرصا) وأرض السمسمة، وأن الحروف لأمته كالأمم الأخرى فيها المؤمن والكافر والشقي والسعيد وفيها الأنبياء والأتباع، ولهم مواسم غير مواسم الاسلام وعبادات اخترعوها وابتدعوها وان أيام الأسبوع غير ما هو مشهور، فيوم السبت ـ يوم الجلال ـ يوم الأحد ـ يوم الجمال ـ يوم الأثنين ـ يوم الكمال ـ يوم الثلاثاء ـ يوم النضال ـ يوم الأربعاء ـ يوم العدال ـ يوم الخميس ـ يوم الاستجلاء ـ يوم الجمعة ـ يوم الاستقلال ـ وكذلك للشهور أسماء غير المتعارف عنها عند الحكومات والناس؟

طُردت قرة العين من بيت السيد كاظم الرشتي، بعد معركة كلامية من السباب والشتم بين الفرق المتخاصمة من الكشفية المتخذين دار السيد ملجأ لهم. وكان صوتها جهوري، قوية الحجة، حسنة الإلقاء، ذكاؤها مفرط، شخصيتها قوية، لسانها فصيح، شديدة التأثير بالآخرين، ذات بلاغة وجرأة، وتعرف في الأوساط البابية والبهائية باسم (طاهرة)، لجأت إلى دار شاب وسيم ذي نفوذ وثروة وجاه في كربلاء، كان يحميها

من غائلة الأعداء عندما كانت تخطب في الجهة الجنوبية الشرقية من صحن الروضة الحسينية في المحل الملاصق لدار ذلك الشاب.

شرعت ترتقي المنبر خلف الصحن بإلقاء الدروس على المستمعين المعجبين بها الذين يقصدونها بكثرة. كان قد نصب لها ستار، وكانت في اثناء دروسها تنادي بحلول اليوم الذي تجدد فيه الشريعة الإسلامية، وتنسخ التقاليد البالية المفروضة على النساء، وقالت برفع الحجاب عن المرأة، واستدلت على قولها، بأن الوجه والكفين لم تكن عورة في نظر الشارع وان أزواج النبي لم يسترنهما في مواسم الحج، ثم أخذت تجالس الذين يأتونها للاستفتاء مكشوفة الوجه، ثم شيئا فشيئا أخذت ترتقي المنبر من غير ستار. كما أفتت بأنها لا ترى من مانع للمرأة أن تختار لنفسها تسعة أزواج في آن واحد.

منعت من ارتقاء المنبر، وطردت من كربلاء، فقصدت الكاظمية. وجدت في بغداد فسحة أكبر، فبدأت بالجهر بدعوتها، ونادت بنفسها من أنها هي كانت حقيقة تلك الاشعاعات التي ظهرت في فاطمة الزهراء، وأن أصحابها هم أرفع وأقدم من الأنبياء السابقين الذين هم كالخلق بالنسبة لها التي هي الحق وعند ذلك أسقطت عن أصحابها التكاليف من الزيارات والقراءات وعلى الناس جميعهم وجوب العمل بقولها، وترك الواجبات والمستحبات التي قال بها الاحسائي والرشتي، فأن فعلوا دخلوا الجنة لأن غيرهم داخل النار. وزادت على ذلك، بأنها أفتت بعدم جواز الاستدلال بالقرآن والسنة، ودليل العقل لأن الوحي والالهام نزل عليها فلذا هي كانت ترفض قبول ما روي عن النبي محمد والأئمة الطاهرين.

تم تسفيرها إلى إيران ومن ألتف حولها من المريدين والمعتقدين بآرائها، بعد أن أرست مذهبا يعرف بالقرّتية. كما تم تكفير الصوفية، والملحدين، ومن سمى نفسه من أهل الباطن بمن فيهم السيد كاظم الرشتي، كانت المعلومات تصل إلى كربلاء مثل البرق، فقد عادت ناشطة مبشرة بمذهبها ومحاربة لمذهب الباب الذي هو جزء من مذهب كاظم الرشتي، فقد عقد اجتماع للمحاججة بين الطرفين، وبحضور كبار العلماء أمثال ملا علي كني والحاج مرزا محمد اندرماني، الذين افتوا بقتلها، ولكن حكومة ناصر الدين شاه لم تنفذ حكم قتلها، فقام نفر من الناس بتحريض من بهاء وحملوا على الشاه وأطلقوا عليه العيارات النارية، فأضطر الشاه إلى سوقها كما تساق الرعاع إلى بستان الكلانتر الايلخاني وقتلوها شر قتلة، وألقوا بجسدها في البئر وردموه بالتراب.

عندما شعر الحاج حسن أنني مستغرب الحكاية، وربما غير مصدق لها طلب مني النهوض إلى حيث المكتبة، ولما رفضت مدعيا تصديقه، أصر على رأيه، فتوجهنا إلى حجرة المكتبة، وفي جانبها الأخير حيث المخطوطات العتيقة الصفراء، التي تنبعث منها رائحة الحبر، طفق يبحث فيها، ثم غير رأيه وربما يأس من إيجاد ضالته، فعاد يبحث في رف مملوء بالكتب ذات القطع الكبير، ومن ثم أخرج من بينها كتابا مخطوطا باليد، هو عبارة عن مجموعة من الرسائل التي وضعها السيد كاظم الرشتي، وجمعها الميرزا احمد ترك الخراساني، الذي يدرس أطفال الكشفية، كان الكتاب ضخما يضم أكثر من مائتي صفحة وفيه فصلان في الرد على جماعة البابية، أما الفصل الأخير فمختص بالرد على الأفكار الإلحادية التي نادت بها قرة العين وإثبات بطلان مذهبهما. ثم سألني:

- هل تيقنت؟
- هل تسمح لي باستعارته؟
- لك ذلك.

* * *

خرجت من بيت الحاج حسن، ورأسي مثل تنور مسجر، تموج الأفكار فيه، وتتلاطم مثل يوم عاصف، الأسئلة تحتدم في رأسي، وأنا أقارن حال المدينة سابقا، وكيف ان الأفكار والمذاهب تعصف بها سابقا، والاستقرار الديني والوئام الذي يعيش فيه الناس حتى تذكرت، ذات يوم من أيام حزيران عندما دُعيت إلى حفلة زواج عند أطراف المتصرفية داخل بستان، وصادف وجود بعض الغجريات فيه، تم دعوتهن مقابل أجر لأحياء الحفل بالغناء والطرب، صممت الكراسي التي هيّئت لجلوس المدعوين من جريد النخل على شكل نصف دائرة تتقدمها موائد صغيرة مصنوعة ايضا من جريد النخل، كان أغلب المدعوين من وجهاء المدينة وكبار أعيانها.

فُرش للفرقة الغجرية بساط مستطيل وملون ومعرش عند نهايتيه، على الأرض توسطهم عازف ربابة بيشماغه المشبك بين الأبيض والأسود، وشواربه المفتولة والتي تقف أطرافه في الهواء مثل الباشاوات الترك، عيونه زرق، بينما كانت النسوة السمر يتأبطن الطبول بأحجامها المختلفة، عندما بدأ العزف والغناء خرجت راقصتان غجريتان إلى وسط الساحة، ضج بعض الشباب في الخطوط الخلفية بالصفير والصياح والتصفيق، فتبسم بعض الجالسين بالخطوط الأمامية، الراقصة الأولى شبه عارية،

ترتدي ثوبا طويلا يكشف نهديها البضان البيض ليحجب ما تحته، وفتحة دائرية حول سرتها ليعطي إيحياءً جنسيا مغريا بشكل فظيع وليدل على ما بعده، عند الخصر يلتصق ثوبها ليفصح بعدها عن الأرداف المرتجة بين أشرطة الثوب ليكشف عن سيقانها، أما الثانية فتلبس ثوبا داخليا قصيرا أحمر اللون، عندما تهتز يرتج نهداها المحاطان بسوتيان أسود، يتدلى من الثوب الداخلي الدانتيل ليضفي بعض الأغراء، حواف كالسونها ظاهر للعيان لأن ثوبها محصور عند الخصر.

تضع كل منهما مكياجا صارخا، وشعرهن مسرح بطريقة منكوشة يثير الغريزة، يتدلى من الأولى حتى نهاية ظهرها، فتدور به، بينما كان شعر الثانية دون ذلك، وجه كل منهما منقوش بالوشم، وفي مناطق فوق الحساسة، وعند الرقبة وما بين النهدين، تتمايلان بالرقص فيتقابلان وتدور احدهما حول الأخرى، وفي بعض الأحيان يتباريان في هز الوسط أو النهود فتشتعل الجماهير بالتصفيق.

VI

تبادل أدوار وأماكن

مضت أكثر من اربع سنوات على بناء الحمام، ومشكلته بين مد وجزر، فلا إدارته المباشرة نافعة ولا استئجاره مجدٍ، فكرت بغلقه مؤقتا على أن اجد له حلا فيما بعد، لكن اصدقائي اليهود يترددون عليَ لاستمرار ويسألوني عن السبب من وراء غلقه، بعد ان أصبح اسمه يطلق على الزقاق، وكانت أجابتي حزينة، من أنني فشلت في إنجاح هذا المشروع مع انني سعيت إلى ذلك بشتى الوسائل.

على غير موعد مسبق، دخل أكبر صادقي عليّ في دكاني وبصحبته ابن عمه احمد خان، فرحبت بهما، وعاتبته على انقطاعه الفترة السابقة، وقد مرت سنوات على محرم وصفر وكيف انني كنت افتقده في مراسيم العزاء والركضة وغيرها من مراسيم الاحتفالات التي تعج بها المدينة، فأعتذر أكبر صادقي من أن وفاة والده غيرت حياة عائلته جوهريا وكأن والده كان يقي بتقواه ضرر السماء والأرض، وان من أسباب لجوء أبن عمه هذه المرَّة، هو حصول مشكلة كبيرة لأحمد خان مع أهل زوجته، بعد وفاة أخي زوجته نتيجة مشاجرة كان الشيطان حاضرا فيها، ولم يعد له مقام في مدينة تبريز، كما أنني لا أريد لأقربائي هنا أن يعلموا بحضورنا، لأنه سرعان ما سيصل الخبر إلى مدينة تبريز. عندها سألته:

- وهل يمكن إخفاؤه لفترة طويلة؟ وكيف سيعيش؟ وماذا سيعمل؟
- ليبيت الليلة عندك، وغدا سآخذه إلى خان بعيد في العباسية الغربية، وبعدها أتدبر أمره.
- لماذا هو صامت لا يتكلم؟
- هو لا يحسن اللغة العربية؟
- وكيف يصلي إذن؟

تبسم أكبر صادقي، ثم قال:

- هو يحفظ الصلاة عن ظهر قلب دون أن يفهم ما يقول.
- وكيف يقرأ القرآن؟
- هو يقرأ المترجم للغة الفارسية.

بقيت ساهما لبعض الوقت افكر بأحمد خان، وكيف ان الظروف عندما تغضب من شخص تدمره، وعندما تحتضنه تفتح له أبواب الأرض قبل أبواب السماء، ثم سألته عن عمل ابن عمه؟ فأجابه:

- عنده دكان عطارة كبير في تبريز، ويركز على تجارة الصابون، فهو ماهر في صناعته.
- هل ينفع في إدارة حمام عمومي؟
- سأسأله...
- يقول ليس صعبا إدارته، لأنه يغتسل في الحمامات العمومية في تبريز بصورة مستمرة.

عندها قلت:

- غدا سأذهب به إلى الحمام وأفتحه، وسأطلب من المدلكجي

وعامل النظافة ان يعودا لعملهما من جديد، كما سأطلب من السقائين ان يزودوه بالمياه وكذلك مسؤولي المّطال والحطب، عسى ان يكون طالعه خيرا.

ثم شرح أكبر صادقي لأحمد خان بالفارسية من أنه سيعمل غدا في الحمام العمومي الخاص بالسيد يعقوب، فتبسم احمد خان وهو يهز برأسه دلالة الموافقة على رأيه.

- وبأنه سينام فيه.
- أتفقنا.

في الليل قصصت على زوجتي ما دار بيني وبين أكبر صادقي، وكذلك قصة قريبه، فطلبت مني أن اشيع خبر انني بعت الحمام لشخص فارسي قادم من إيران، وبالفعل في صباح اليوم التالي وعندما جاءني أكبر صادقي، اوضحت له تعديل فكرتي في إشاعة فكرة بيع الحمام، لم يمانع في ذلك، فالمهم عنده هو إخفاء ابن عمه لفترة وبعدها لا بد من ان يجد حلا لمشكلته.

تغير وضع عمل الحمام وأصبح الإقبال عليه جيدا وبشكل مستمر، وكان أكبر صادقي هو الوسيط بين الطرفين، لم اعد اذهب للحمام حتى لا اثير الريبة بمراجعتي له واخذ الحساب، لكن اسم الحمام لم يتغير بالرغم من وضع لافتة تحمل اسم جديد له، فقد أصبح علامة دالة.

* * *

ابتهجت المدينة على غير عادتها، وتبين ان السيد غلام رضا خان وهو أحد التجار الإيرانيين قد جاء للزيارة، ولما وجد المرقدين غارقين

في ظلام دامس، وان الشعل والمصابيح الزيتية لا تضيئهما بطريقة حسنة قرر التبرع بمبلغ خمسة وعشرين ألف روبية من أجل انشاء مشروع ايصال الكهرباء لهما، وبالفعل تم إنجاز المشروع بالتعاون مع بلدية كربلاء التي تبرعت بمبلغ خمسة عشر ألف روبية. وتم نصب محرك ديزل لتوزيع الطاقة الكهربائية ضمن دائرة المدينة ومركزها صحن الإمام الحسين. اصبحت المدينة شبه مضاءة في النهار وقليلا من بداية الليل، لتعود لتغرق بالظلام بعد منتصف الليل.

بدأت أوضاع المدينة بالتغير والتحسن، وأصبحت البس كشيدة حمراء مع الصاية والعباءة، دلالة على انني وجه من وجهاء المدينة، وأصبحت اساهم في حل بعض مشاكلها، كما اساهم في بعض الأعمال الخيرية، لكني لم اكن بعيدا عن المشاكل التي تحصل بين اليهود والمسلمين في بغداد، وكنت اشعر بالحزن من ان هناك أياد خبيثة تحرك النار الخامدة تحت الرماد، ولا ينتبه إليها أحد.

***

تراوح عدد اليهود في العقد الثاني من القرن العشرين تسعين ألف نسمة تقريبا، أغلبهم أثرياء ويتمتعون بنفوذ كبير في الأوساط الرسمية في بغداد، بل وحتى العليا منها، من خلال العضو اليهودي في مجلس الأعيان، والأعضاء في مجلس النواب والموظفين الكبار ومن خلال سيطرتهم على اقتصاد العراق، يمثلون نصف مجموع التجار في العراق وبخاصة بغداد ولذا كانوا يتمثلون في غرفة تجارة بغداد بالنسبة نفسها، كما لهم تمثيل ممتاز في الوكالات مع الشركات الأجنبية وفي ميادين

التجارة. وبالخصوص في منطقة الشورجة كمورد الرئيسي للسكر والشاي ومواد العطارة بكل تفاصيلها، أما في مجال الأقمشة فتكاد تكون نسبتهم الغالبية ان لم تكن المطلقة، كما في تجارة الأقمشة القطنية، إضافة إلى نفوذهم في المواد الإنشائية في منطقتي السباع والكفاح وهي مناطق مخصصة بتجارة المواد الإنشائية.

ولما كان وضع العراق السياسي متذبذبا او مضطربا بوجود الاحتلال البريطاني ومن جانب آخر تغلغل الصهاينة في فلسطين وطرد العرب المسلمون منها، ما نتج عنه حصول صدامات بين الناس بطريق غير مباشر مع اليهود في بغداد، أما في الاقتصاد أو السياسة كما حصل مع ساطع الحصري الذي يشغل منصب معاون وزير المعارف، وقد أصدر قرارا بقطع المساعدات المالية عن المدارس الأجنبية وحصر المساعدات بالمدارس الأهلية، غير ان الطائفة اليهودية اعترضت على هذا القرار وطالبت معاملتها كمدارس أهلية لا أجنبية، وعندئذ تدخل مجلس الوزراء بتأثير من وزير المالية ساسون حسقيل في الأمر وقرر ان كل مدرسة غير حكومية تعد مدرسة أهلية إذا زاد طلابها العراقيون عن تسعين بالمائة من المجموع، وتوزع المساعدات المالية بنسبة عدد الطلاب في كل مدرسة.

وقد رد الاستاذ الحصري على قرار مجلس الوزراء بالقول: ان المدرسة تتعين كونها أجنبية أو أهلية حسب تابعية هيئتها الإدارية وتابعية تلاميذها، كما ان مبدأ توزيع المساعدات على المدارس بنسبة عدد تلاميذها لا يستند إلى أي أساس معقول بل انه يخالف مبادئ عدالة التوزيع كما انه ينافي مقتضيات التربية والتعليم الوطنية السليمة، فنفقات

المدارس لا تتناسب مع عدد تلاميذها بل تتبع درجتها ومستوى التعليم فيها وعدد معلميها.

فما كان من وزارة المعارف إلا ان اقترحت على مجلس الوزراء جعل طريقة توزيع المساعدات المالية مستندة إلى دراسة أحوال كل مدرسة على حدة من جميع الوجوه العلمية والمالية والتعليمية، فأقر مجلس الوزراء عدم التمسك بقراره السابق وترك لوزارة المعارف تعيين الخطة التي تراها مناسبة لتوزيع المساعدات المالية على المدارس. إلا ان المندوب السامي البريطاني تدخل في الأمر وبعث بكتاب حول الموضوع إلى مجلس الوزراء غير ان ساطع الحصري دحض جميع ادعاءاته، فأغتاظ وزير المالية ساسون حسقيل الذي أستغل الوضع الاقتصادي المتدهور في البلاد والعجز في ميزانية الدولة فطلب إلغاء بعض الوظائف كان من ضمنها معاونية وزارة المعارف كوسيلة إجرائية لأبعاد ساطع الحصري عن هذا المنصب.

لم تكن هذه التفاصيل غائبة عن ذهني، بل حاضرة وتشعرني بالحزن، كنت ارى ان طائفتي وهي تنتهج هذا المنهج فأنها تحارب شعبا بكامله، إذ ليس من الصواب، ومن أجل تحقيق ذاتك تمحو ذات الآخر، حتى عندما مدت الاسلاك الكهربائية في بغداد لإنارة شارع الجعيفر ومنطقة علاوي الحلة ومن ثم منح الامتياز لشركة التنوير والقوة الكهربائية المحدودة لمدينة بغداد بالطاقة الكهربائية.تناهى إلى سمعي ان بعض اليهود يريدون الرجوع إلى بغداد بعد ان غاب الفرق بين ليلها ونهارها، إلا انني رفضت مغادرة المدينة لمثل هذا السبب.

* * *

ثمة موضوع يؤرقني أنا كاتب هذه السطور، في من يؤرخ للآخر؟ المكان هو الذي يؤرخ للإنسان أم الإنسان هو من يؤرخ للمكان؟ وبما أنني لا أحبذ الحلول الوسط من أن أحدهما يؤرخ للآخر أو يوثق له، لم أجد الإجابة الشافية، وفي الوقت نفسه كنت أميل إلى أن الإنسان هو صانع الحياة، وبالتالي هو من يؤرخ للأشياء ومن ضمنها المكان. فكثير من الحضارات اندرست ونمت مكانها حضارات جديدة، وظل الإنسان هو المحور الذي يدور حوله ليس المكان فحسب، بل كل الأشياء بما فيها الزمان العصي على الثبات.

ان ما جعلني أبوح بوجهة نظري هذه، هو ان أحمد خان مع شعوره باليأس من عودته إلى تبريز من جديد، بعد أن أحب المكان واستوطنه، وأصبح يزور العتبات الدينية يوميا داعيا الله أن يخلصه من الورطة التي أوقع نفسه فيها، ويستغفر عن الذنب الذي ارتكبه في لحظة شيطانية كما يدعي، وأصبح يتكلم اللغة العربية الدارجة بشكل بسيط، أرسل بطلب إلى أهله أن يبيعوا بيته ويعطوه دية إلى أهل القتيل، كما أرسل بطلب إلى احد أقاربه لشراء الحمام الذي يعمل وينام فيه.

تمت الاستجابة إلى رغبته الأولى في بيع بيته وإنهاء مشكلة القتل، ولكن قريبه لم يأت للعراق، وحجته ان لا يستطيع مغادرة موطنه الأول، وقد إعتاد الجو البارد في تبريز الشمالية والعيون الكبريتية التي تشفي الناس من أمراضهم الجلدية، وهو ليس مضطرا لتغيير نمط حياته والعيش في مكان آخر. ولكن ونتيجة إلحاحه المستمر قدم الحاج محمود ظافري إلى كربلاء من أجل الزيارة ومشاهدة الحمام الذي يصر قريبه على شرائه.

هكذا تبدل الأشخاص ففي الأمس القريب غادر كربلاء أكبر صادقي إلى تبريز بعد ان باع داره لي، بعد ان غادرت بغداد قادما إلى هنا، ليعود بعدها محمود ظافري الذي غادر تبريز كي يشتري الحمام أو هكذا ظن صاحبه، تبدل الأشخاص جوهريا بينما تبدل الأماكن نسبيا، فلقد أصر يسع على بيع الحمام بعد ان كثرت مشاكله وطلباته مع ثبات وارده، كما انني كبرت بالسن بعد ان اقتربت من الخمسين، والأهم ان تجارة الذهب والأقمشة رائجة، فالشعب العراقي أصبح أكثر وعيا بالمدنية والحياة الجديدة، بل العالم كله أصبح أكثر ميلا للرفاهية، فقد أصبحت السينما والصحف والمجلات مشاعة بين الناس واحتكاك الطبقة المثقفة والمتعلمة بالعالم المتقدم قد انعكس ايجابا على سكان المدن.

عندما وصل محمود ظافري إلى كربلاء، أحتفى أحمد خان به أيما احتفاء، ومن ثم بدأ يشرح له عن حركة العمل في المدينة، ويطوف به داخل الأسواق والخانات، لكي يستميله للسكن في المدينة وشراء الحمام، الذي وجده صغيرا لا يستوعب أكثر من خمسة عشر شخصا أو يزيد قليلا، باستثناء موقعه الاستراتيجي، كونه يتوسط (عگد اليهود) هذا الزقاق المليء بالحركة والدكاكين المزروعة بمختلف البضائع، لا تنقطع الراجلة عنه، والباعة المتجولون يقطعونه ذهابا وإيابا.

اخذ أحمد خان قريبه إلى الأسواق والأزقة يحدوه الأمل في إقناعه، كان يسير مثل صباح في أول إشراقه، ويتنقل من سوق لآخر والسقوف مثل قبعات فوق رؤوسها، بعضها مزدحم وبالخصوص الشعبية منها والممتلئة بالحرف ومنها لحام الفرفوري وباعة الملح والسقاؤون وبائعو عصير السوس، والتمر هند، وصانعو الأواني

النحاسية والبرونزية مثل الشمعدانات، ومن ثم أنتقل مع قريبه إلى سوق النجارين الذي يختص بتجهيز الفلاحين بكل أدوات الزراعة كالفدان والمحراث ومقابض الفؤوس وربود المساحي، حتى إذا ما وصل إلى مكان قصي اشتم قريبه رائحة منفرَّة فسأل أحمد خان عنها والذي أجابه بأنها بزارات صناعة الدبس وهي في رائحتها أقرب إلى رائحة العرق، وأكوام النوى تتصدر تلك البزارات، وبعض العمال ينقلون حلانات التمر، وظهورهم دبقة من بقاياه، وملابسهم معلقة إلى أحزمتهم وأطراف لباسهم الداخلي بائن للعيان.

عاد به من جديد إلى الأسواق والأزقة، كانت رائحة الآجر وحدها من تفوح بعطر الأرض، والأبواب والشبابيك تفوح بلحاء الأشجار، والأنسان يفوح بأديمه الخاص، فلا رائحة أحدهم تشبه الآخر، بعضهم رائحته تزكم الأنوف وعطنة، وبعضهم رائحته زكية فواحة، وعلى الكراسي المصنوعة من جريد النخيل يجلس اصحاب الخانات وفي وسط الشوارع الضيقة تنغر بعض عربات السحب في الأرض بحملها، بينما كان الحمال الذي يئن بسحبها مثل بناية آيلة للسقوط، وعلى الجانب الأيمن امرأة تفترش الأرض بخبزها الذي يشبه صفرة وجهها، وفتاة صغيرة تخرج من زقاق ضيق وعطوب شعرها منكوشة من صدغها ومؤخرة رأسها، وأعشاش اللقالق في الأماكن المفتوحة تعتمر نهايات المباني مثل تيجان الملوك.

اصابت الحيرة محمود ظافري، الذي أعجبته المدينة، كما أعجبته حركة البيع والشراء، واختلاف الأجناس، وكأنها أرض بابل من قبل، فكل قوم أو قومية تتكلم بلغتها، وتلبس زيها، وتطبخ أكلها، وظل يقرنها

مع مدينته البعيدة ذات التضاريس الجبلية والثلوج التي تكلل رؤوس الجبال مع برودة العمل طيلة فترة الشتاء، هذه الحيرة التي ظلت تتجاذبه لأكثر من أسبوع، حتى وصل إلى قرار نهائي بعدم الاستقرار في المدينة ومن ثم عزم الرحيل إلى تبريز، وباءت محاولة قريبه أحمد خان بالفشل.

لم يبح محمود بالحقيقة التي رفض السكن بسببها، فقد آلمه منظر بعض العمال برؤوسهم الحليقة التي لا يغطيها سوى كلاو صغير أو عرقجين مخرم، وأثوابهم مرقعة وقصيرة وأقدامهم حافية وكعوبها مفطرة، كان بعضهم يلف رأسه بكوفيه سوداء، وقد وضع دشداشته بلباسه الذي يصل إلى ركبتيه، الحمالون الذين يملؤون المدينة، والمتسولون الذين يفترشون أركان الأزقة وهم يستصرخون المارين باسم الدين، ونفوس المساكين الذين يأنون من وجع العيش، وقسوة الحوذية على حميرهم، شعر ان كربلاء مدينة مفتوحة على الغرباء واللصوص وكل من ليس له مكان يضمه، كما ان التمايز الطبقي في المجتمع الكربلائي ظاهر للعيان، فالبعض يمتلك البساتين والبيوت والبنايات، بينما البعض الآخر لا يجد حتى لقمة عيشه اليومية، لذلك يعتقد كثير منهم ان الحياة خلقت من أجله، وبعكس ذلك يعتقد البعض انه فائض عن الحاجة، ووجوده غير مبرر، كل ذلك والجميع لا يبعد عن المرقدين الشريفين سوى عشرات الأمتار.

المقاهي عامرة بالحركة والنشاط، يلتقي فيها العاطلون عن العمل، كما يلتقي فيها اصحاب البساتين بعد بيع خضرتهم وفاكهتهم، وصادف وجود شخص يدعى جاسم العلي، الذي ملَّ مهنة الفلاحة وتعب منها، كان يقول في نفسه: هل من الصواب أن يقضي الإنسان عمره بين اشجار

تعطي ثمارا في السنة لمرة واحدة، واظهر امتعاضه من النخلة، التي تأخذ من الجهد أكثر مما تعطي، ومثلها الأشجار النفضية، لكنه يجد العذر لنفسه في أنه لا يعرف غير هذا العمل، حتى جاءت الساعة التي اتخذ فيها القرار النهائي في بيع بستانه في منطقة الحر، ونزول للمدينة كي يبحث له عن سكن وعمل.

جاسم العلي شاب وسيم يلبس الدشداشة العربية مع العقال والكوفية رغم صغر سنه، وكان لبسهما عادة عند العرب، إذ بمجرد وصول الرجل عندهم سن البلوغ يرتدي هذا اللباس، وبعكسه يكون غير محترم في المضايف والمجالس العشائرية، بشرته نضرة، كفّا يديه ضخمتان، ومثلهما قدماه، وكأنهما امتداد للمسحاة التي تعزق وتسوى بها الأرض تمهيدا لزراعتها، شاربه كث يتدلى من على نهاية شفتيه، جسده ممشوق، يدل على بنيته القوية. سكن في خان العباسية الغربية مع عائلته المتكونة من ثلاث فتيات وولد، حتى تناهى إلى سمعه وجود حمام للبيع، فتقصى أمره، وأستطاع الوصول اليّ كوني صاحب الحمام الفعلي، وأتفق على شرائه.

كنت اشعر بغصة كبيرة وانا اوقع على عقد البيع، ومن ثم تحويل ملكيته في اليوم الثاني بعد الضغط العائلي، وددت تركه مغلقا على بيعه، اذ ان كثيرا من الأشياء يتمسك بها الإنسان من غير ان يعرف السبب من ورائها، وهكذا بعت الحمام، وكنت اشعر بالحزن الشديد في أن افارق أعز ما املك أو احب.

VII

زواج يسع

بلغ يسع من العمر ثمانية عشر عاما، وأظهر رغبة كبيرة في البيع والشراء والحركة من دانيال الذي فضّل الركون إلى دكان الصياغة حيث السكينة والهدوء وبعض الانزواء، أو عدم الاحتكاك، واصبح يسع يقضي أغلب وقته في بيع الأقمشة، بعد أن أتقن فن الصياغة ودهاليزها، ولم اكن لأتدخل في رغباته طالما لا يخرج عن حدود عمله، وقد أصبح له الدور الأكبر في الذهاب إلى بغداد وجلب الأقمشة وصفّاتها وبالخصوص بعد وفاة جودي، وقد كان لي موقف مشرف في رفع تكاليف النعش والدفن عن كاهل أهله، لكنني لم ادخل مع المشيعين إلى مقبرة المسلمين درءا لأية حساسية قد تثار.

أصبحت وسائط النقل متوفرة، ومن يذهب إلى بغداد يمكنه العودة في اليوم نفسه، وكان يسع يعود محملا بقناني الويسكي والعرق والبيرة إلى بيتنا، وفي مرات يأخذ أمه ويتركها عند أقاربنا، فقد بلغت مسعودة العاشرة من عمرها، وتستطيع الاعتماد على نفسها مع وجود أم أموري التي أصبحت ثقيلة الحركة، ولكنها تتقن عملها، ولم تفكر ريم بأن تستغني عنها بخادمة شابة إذ ان من الصعب ان تجد بديلها وتكون بنفس الأمانة والثقة في عدم إذاعة أسرار البيت.

كانت ريم في سفراتها إلى بغداد تبحث ليسع عن زوجة، ولكنها للأسف قد وجدت كثير من معارفها قد هاجروا إلى اسرائيل وبعضهم إلى اوروبا، حتى سليمان صديق العائلة قد صفى دكانه من الذهب وخط لافتة عليه يعلن عن رغبته في بيعه، كما عرض بيته وأملاكه للبيع أيضا، أما ابن عمي فيفكر بالهجرة من بغداد والاستقرار في مدينة السليمانية، فبغداد لم تعد آمنة هذا ما أخبرتني ريم به، وظل على عهده دون زواج، كما بقيت هناء على عهدها كذلك.

كان يسع في شرائه الأقمشة لا يغادر دكان ومخزن منشي خضوري، الذي تجاوز النصف من العقد السبعيني، وأصبح رجلا عجوزا هزيلا في خريف عمره، فتكفل أبنه مناحيم بإدارة العمل، وأتبع يسع اسلوبي في جلب الهدايا له وبالخصوص تمن العنبر، وسلال البرتقال، والرمان الكربلائي، في احدى المرات سأله:

- لِمَ لم تتزوج حتى الآن يا يسع؟

قال وهو ينظر بعينين شاردتين.

- ان أغلب أقربائي بين مهاجر أو يريد الهجرة، ومدينة كربلاء فيها اليهود وقد انغمسوا في عادات وتقاليد المدينة وأنا أريد زوجة كأمي متحررة وواعية، وتحترم أبي وتلبي طلباته وتنفذ رغباته.

شعر منشي بعمق الحزن الذي يخرج مع كلام يسع، وهو الشعور نفسه الذي ينتابه عندما يجد أبناء طائفته بين مهاجر أو يسعى للهجرة، ولكنه لم يشأ ان يثير الموضوع معه، ثم قال:

- لكن النساء ليست على شاكلة واحدة.

- قصدت بأنني أريد زوجة مطيعة، لأنني أعتقد أن غير أمي لم تكن

لتطاوع أبي في الذهاب إلى كربلاء والبقاء فيها كل هذه السنين وحرمانها من الكنيس، وكذلك من أهلها وأقربائها. وهي الآن عادت إلى بعض عبادتها في زيارة الكنيس.

فرح منشي وتبسم وانفرجت اساريره عندما وجد ان أم يسع تواظب على أداء مراسيم الصلاة والتعبد، وعاد ليتأكد من حديثه بالقول:

- وهل تذهب مع أمك إلى الكنيس؟
- نعم، فأنا أحب ديانتي وأحاول أن أعوض ما فاتني.

اعجب منشي بيسع ودعاه للبيت مع أمه من أجل العشاء، وغايته أن يرى أبنته الصغرى عسى ان يقترن بها، لأنه لا يريد لها ان تهاجر مع زوجها المحتمل إلى إسرائيل أو أي مكان آخر.

حدث ذلك في بداية حزيران حيث الجو معتدل والسماء صافية تعكس زرقتها النقية، لتعلن مهرجان الطائرات الورقية، حيث يعتلي الصبيان سطوح البيوت مطلقين طائراتهم المتنوعة، بألوانها واشكالها وأحجامها، وهي تتقاطع أو تدور على نفسها من أجل جلب خيط مقطوع لطائرة تتهادى في سكرتها بعد أن قص خيطها.

أخترق الربل الذي يقل منشي محلة قنبر علي، وهو يجلس قرب الحوذي بمقعده الوثير الذي تحده المقابض المذهبة، وفي المقعد الخلفي المغلف بجلد الغنم باللونين الأبيض والأسود جلست ريم ويسع، وتجاوز الربل سوق حنون، وكانت بعض السلال المجدولة ممتلئة بثمر (الجمري) من التمر غير الناضج بعد، وكذلك بعض أوراق العنب، وعناقيد العنب الأخضر غير الناضج والتي يسمى (الحصرم). وعند منتصف السوق تقريباً وبانعطافه نحو اليسار، حيث زقاق يقع في

نهايته اليمنى تحديداً كنيس شيخ إسحق، هي محلة التوراة المكان الذي ضم بين جنبيه ابناء طائفتي.

يقع بيت منشي خضوري بجوار كنيس الشيخ إسحاق، الذي هو مقبرة اتخذ عليها ابناء طائفتي معبداً يسمى دفينها الشيخ إسحق وتعرف بـ(توراة شيخ إسحق) وهو معبد قديم يقع ضمن محلة التوراة قرب سوق حنون، ويحتوي على المغتسل والمعبد ومكتبة ضمت مئات المخطوطات مكتوبة بالعبرية القديمة، وفي جانب آخر مخطوطات على شكل لفائف يظهر أنها نسخٌ أثرية من التوراة.

لم يكن بيت خضوري يختلف طراز بيته عن طرز البيوت الكربلائية وبالخصوص الكبيرة منها في المساحة، فأغلبها من الخارج مغلق البناء حيث يتوسطها باب خشبية مزخرفة ومجرحة بالنقوش، البعض منها يعلوه طابوق منقوش بطريقة إسلامية على شكل ورود أو أزهار وبعضها يحتوي على أشكال هندسية خماسية وسداسية، يحتوي الباب في جهته اليمنى على أشكال مختلفة، يتوسط مساحته الكبيرة شذر وان مغلفة ببلاطات صخرية حليبية اللون صممت بطريقة هندسية رائعة، وعلى اليمين حديقة مسيجة بسياج خشبي من الصاج، ومثلها على اليسار التي كان مغلف الجزء القريب للطارمة بعريش عنب وفي أقصاه قن الدجاج الكبير المحاط بمشبك حديدي.

ومن ثم ثلاث درجات حتى يستقل القادم إلى طارمة البيت التي تتقدم الطابق الثاني وباب خشبية كبيرة تتوسط البيت الداخلي، شبابيك الحُجْرَة المطلة على الحديقة من الجهتين، تحتوي على زجاج ملون، على طول الطارمة تتكئ الكراسي المصنوعة من جريد النخل على الجدار، تتقدمها

مناضد مصنوعة من المادة نفسها، ومن جهة اليسار كرسي متحرك أو هزاز على ما يبدو انه للسيد منشي، وسرير مصنوع أيضا من جريد النخل وقد لف الفراش الذي كان ممدودا عليه.

جلست ريم ويسع في حجرة السلامليك، تتوزع الأرائك فيها بصورة مستطيلة وسط الصالة، وقد نجدت بالجلد الطبيعي ومغطاة بشراشف بيضاء، وأستأذنهما منشي ليعطي خبر لأهل بيته، وبعدها جاء وخلفه زوجته وابنته سارة، كانت قنقنة الدجاج مسموعة للجميع، وزقزقة العصافير وهي تملأ الحديقة بجنبيها تعطي حياة للمكان، لم يشأ منشي أن تذهب ريم إلى حجرة الحريم، بل أصر أن يجلس الجميع في حجرة السلامليك، سارة جميلة وصغيرة العمر، شعرها الأسود الفاحم مثل رذاذ خفيف هابط من السماء بهدوء قد سال على وجهها وبلل كتفيها ورقبتها، عمرها قارب السادسة عشرة، عيناها حبشيتان، نهداها ناتئان، شفتاها بلون الكرز الناضج، يغشاها الحياء، مثل فرخ نسر يهفهف بجناحيه خوفا من الطيران، جلست قرب امها التي تجاوزت الستين من عمرها، التجاعيد ظاهرة على وجهها وهي تضغط على نظارتها من الوسط بين الحين والآخر وبالخصوص أثناء الكلام، لثتها السفلى مزرقة من التدخين، وقد قدمت سيجارة لريم، إلا أنها اعتذرت عن التدخين، جسدها مترهل، وكأنه شجرة متهدلة الأغصان، وشعرها الذي حاولت ان تخفي لونه الأبيض بصفار الحناء مفروق من وسطه الذي بدى أكبر من المعتاد.

نهضت ريم من مكانها وجلست قرب زوجة منشي وابنته، محاولة أن تختلق موضوعا تشترك فيه معهما، وغايتها أن تتكلم مع الفتاة، وترى تصرفاتها، ومن ثم طلبت زوجته منها الذهاب للمطبخ لإعداد العشاء،

بينما بقي يسع ومنشي في الحُجْرَة، يتجاذبان أطراف الحديث في التجارة، وهجرة بعض اليهود إلى أوروبا واسرائيل.

بعد الانتهاء من وجبة العشاء، وشرب الشاي فضلت ريم ويسع الاستئذان، لم يمانع منشي من ذلك، بينما حاولت زوجته التمسك بهما وان يبيتا ليلتهما معهم، لكن ريم فضلت الذهاب آملة العودة واللقاء من جديد، خرج معهما حتى بداية السوق، وأستأجر لهما ربلا ودفع أجرته رغما عن يسع، ومن ثم ودعهما راجعا، لم تطق ريم الانتظار وهي من عادتها ان لا تتكلم بخصوصياتها أمام الغرباء أو في الشارع، ولكن الموضوع كان مُلحا، فأخبرت يسع بأن سارة فتاة مناسبة له، فوافقها الرأي ولكن أشترط على أمه، عندما تعود في المرة الثانية بعد أن يحدد موعدا لها مع منشي بأن تسكن سارة معهم في كربلاء، لأنه إعتاد عليها ولا يستطيع مغادرتها فهي كل شبابه والأهم ان عمله وأهله فيها، فوافقته أمه على ذلك، وطلبت منه تحديد موعد لاحق مع منشي كي تأتي مع بعض أقاربها من النساء لتخطبها بعد ان اخذت موافقتي على الموضوع.

* * *

باتت ريم ويسع ليلتهما عند أختها مائير فرحة، وقد أخبرتها بالذي جرى، وعند الصباح عادا إلى كربلاء، سعُدت ريم بخطوة أبنها واختياره، وفي الحقيقة فإن السيد منشي هو من اختار شابا لأبنته وكأنه يطبق المثل الشعبي (أخطب لبنتك ولا تخطب لأبنك) لم يكن اسم منشي افندي غريبا على أسماع ريم، لأنه يتردد على لساني كثيرا، وكنت احدثها باستمرار عن الأشخاص الذين اتعامل معهم، ومن ثم تبعني أبني، ولكن

ما ينقصها هو رؤيته والتعرف عليه بالتحديد كونه شهبندر التجار، وقد حصل الذي كانت تتمناه، بل وأكثر في اننا سنصبح أقرباء.

عندما وصلا إلى كربلاء، كانت ريم سعيدة متبسمة، حتى أنها أجزلت العطاء لبعض المتسولين عند رأس الزقاق الذي يتقدم السوق، وعندما وصلت إلى البيت طلبت مني ان التقيها في حُجْرة الحرم، فلم تطق الانتظار والاستراحة من وعثاء السفر حتى تخبرني بالأحداث التي جرت في بغداد بكل التفاصيل، وأكدت ان يسع موافق على الفتاة، ولم يبق سوى تحديد موعد الخطوبة للبدء بمراسيم الزواج، وكان يسع حاضر الجلسة ويؤكد كل ما تقوله، عندها سألته ان كانت لديه سفرة قريبة إلى بغداد، فأجابني في منتصف الأسبوع المقبل، فطلبت منه أن يذهب إلى منشي افندي ليحدد معه موعد الخطوبة في نهاية الأسبوع بالنسبة لخطبة النساء، وبعدها بأسبوع بالنسبة للرجال حتى يتحول الموضوع من شفهي إلى رسمي.

اخذت ريم بعض نساء اليهود في (عگد اليهود) بعد ان استأجرت لهن سيارة خاصة، ومن ثم مرت على أختها مائير، وبعض النسوة من اقربائي وكذلك زوجة سليمان شريكي السابق، وتمت الخطوبة، وبعدها ذهبت وثلة من اليهود الأصدقاء والأقرباء، لأطلب الفتاة بشكل رسمي، وبدأ يسع يذهب إلى بيت عمه، ويتودد لخطيبته ويغدق عليها الهدايا، وبالخصوص أقراط الذهب والخواتم، أصبح يشعر بالحب اتجاهها وقد بادلته الشعور نفسه.

تم عقد الزواج في كنيس توراة شيخ إسحق المجاور لبيت السيد منشي، وزف يسع مع زوجته إلى أفخم فندق، بعد حفلة كبيرة ومزيقة أعلمت الحاضر والغائب، زُينت سارة بالذهب بمختلف أنواعه

وأشكاله، الأقراط تتدلى من أذنيها، والقلائد تطرز رقبتها وتتدلى على صدرها وبعضها يصل حتى سرتها، وأصابعها مملؤة بالخواتم.

كانت سارة سعيدة بهذه الزيجة رغم مغادرتها لحياتها في بغداد إلى حيث مدينة كربلاء البعيدة عن كل العادات والتقاليد التي فطرت عليها، فقد كان لزاما عليها أن ترتدي العباءة أثناء خروجها من البيت، وان لا تؤدي طقوس العبادة إلا اثناء زيارتها لأهلها فلا كنيس في كربلاء.

يقابلها يسع المشاعر نفسها، فسارة بنت شهبندر التجار، لا ينقصها المال أو الجمال، لا تنقصها الفتوة والشباب، هي أرض بكر وقارورة إلهية لم يتم ملؤها بعد، بانتظار من يوقد أرضها، لتخضر بزرعها وتورق بأشجارها.

دبت في البيت حياة جديدة ونفس جديد، ولم يكن البيت فيه من الواجبات الكبيرة، فقد كانت أم أموري تقوم بأغلب شؤونه، كما ان يسع لم يكن متواجدا في البيت إلا في الليل، فهو بين إدارة دكان الأقمشة وتوريد الذهب إلى دكان أبيه، وبين خروجه وجلساته مع أصدقائه في القهوخانة.

أولمت بمناسبة زواج أبني يسع وليمة كبيرة دعوت إليها تجار الأقمشة والذهب من المسلمين واليهود، لكن أغلب التجار المسلمين والصاغة لم يلبوا الدعوة، عندها تذكرت وليمتي الأولى عند شرائي للبيت، وكيف ان جميع من دعوتهم للوليمة قد حضر، بل ان بعضهم عاتبوني لأنهم تفاجؤوا بخبر بالخبر، وكان الأولى بهم أن يحضروا معهم هدايا تليق بالمناسبة.

VIII

زيارة النبي حزقيال

لم يكن العقد الثالث من القرن العشرين بأفضل من الذي سبقه، فقد زاد عدد اليهود إلى مائة وعشرين ألف نسمة، وهم موزعون على خارطة العراق إلا ان الأحداث السياسية تعصف بالعرب المسلمين في مختلف تواجدهم وبالخصوص في فلسطين وكان للعراقيين مواقف خاصة، بل يموج الشارع بالمظاهرات والاحتجاجات والاجتماعات تعقد عند كل يوم جمعة بعد الصلاة في الجوامع، ومنسوب الهيجان ينعكس طرديا مع الأحداث التي تقع في فلسطين وتنشر عن طريق الراديو والصحف العربية وآخرها الذي حدث في نهاية شهر آب من السنة الأخيرة للعقد الثالث من القرن العشرين.

فقد وقعت في فلسطين حوادث دموية خطيرة أريقت بسببها دماء، وزهقت النفوس. وكان لهذه الحوادث الأليمة أسوأ وقع في نفوس العراقيين فأقفلوا مخازنهم وعطلوا اشغالهم وعقدوا الاجتماعات المختلفة لإعلان احتجاجهم على سياسة الإنكليز، واتخاذ فلسطين وطنا لليهود. فعقد في الشهر نفسه اجتماع في جامع الحيدرخانة حضره نحو عشرة آلاف نسمة وتليت فيه الخطب والقصائد وقرئت الفاتحة

على أرواح الذين قتلوا في الحوادث المذكورة، وممن خطب في هذا الاجتماع التاريخي، محمد أبو التمن وياسين الهاشمي ومحمود رامز، ومشى المجتمعون بشكل مظاهرة سلمية فزاروا البلاط الملكي، ودار الاعتماد البريطاني وبعض القنصليات الأجنبية ولم تمكنهم الشرطة من الاسترسال في المظاهرة، ووقعت بعض الحوادث المؤلمة في هذه المظاهرات، وكانت قوة الأمن العام مدججة بالسلاح وبقيت مخازن اليهود في بغداد مدة أسبوعين مغلقة، والحركة التجارية العامة معطلة والأسواق كاسدة، وقامت الشرطة على حماية امن المدينة طوال هذه المدة، وبقي أفرادها المدججون بأنواع السلاح يحافظون مفترقات الطرق المؤدية إلى منازل اليهود بمختلف أنواع المحافظة.

لكن أهم الأحداث التي وقعت في بداية عقد الثلاثينات هو حصول العراق على استقلاله، لكنه لم يكن ليهنأ بذلك حتى ودع الملك فيصل البلاد في أيلول من عام 1933، فأن الوطنية والتطرف قد تزايدا، كما ان مجيء الملك غازي وهو صغير السن دفع البلاد إلى حالة مؤسفة من عدم الاستقرار كانت من نتيجتها حدوث سبعة انقلابات في أقل من خمس سنوات، وقد ساعد ضعف نظام الحكم الدعاية النازية على التسلل في العراق، والتأثير في شبابه الذي نجح بعضه في الحصول على مناصب مهمة في دواوين الحكومة والمفاصل العسكرية العليا.

اما كربلاء البعيدة عن الاضطرابات السياسية في هذا الوقت، فقد بان على حلتها بعض التغيير، فقد قامت بلدية كربلاء، بتبليط الشارع الممتد من باب قبلة صحن الإمام الحسين حتى شارع تجمع السيارات وبعد عام من ذلك التاريخ انجزت تبليط شارع بغداد حتى خان العطيشي بعد

ان كان طريقا تكثر فيه التعرجات ويتوقف عند سقوط الأمطار، الطريق يتلوى مثل الأفعى في سيرها، يحدّه من جهة اليسار عند المجيء من بغداد نهر الحسينية ومن اليمين البساتين غير المسيجة جيدا، وبعكسه عندما تكون السيارة مغادرة من كربلاء إلى بغداد، وكثيرا ما وقعت حوادث بسبب الحيوانات السائبة أو الهاربة.

* * *

وجاءت بعض العوائل اليهودية إلى كربلاء تسأل عن حمام اليهودي كعلامة بارزة ودالة ليصلوا اليّ والاختباء عندي لفترة، وكنت سعيدا بزيارتهم وأخذتهم برحلة داخل أروقة المدينة وأزقتها، وكانت محط إعجابهم، فالحياة نشيطة والعمل على أشده، وفي المقابل كانت المقاهي أيضا ممتلئة بالعاطلين عن العمل، وعندها بارك بعضهم مجيئي لكربلاء، بينما بقي البعض الآخر متحفظا على ذلك، بل قالها بوجهي، من أنني مهما بقيت في هذه المدينة المتسامحة والأمينة فأن مصيري الرجوع أما لبغداد أو لإسرائيل؟

من ضمن العوائل التي سكنت بيتي، ماشير وجيرانها، ويدعى بيت بنيامين، عائلته تتكون من أربعة أفراد، كبيرهم شاؤول، ويتبعه ساسون، ومن ثم فتاتان هما صباح ونجاح، كانت أعمارهم متقاربة، أكبرهم يبلغ عمره ثمانية عشر، نزولا حتى الثانية عشرة وهو عمر نجاح، غمر دانيال شعور مختلف، وأصبح أكثر اجتماعية في الحديث بلغته الأم، وكأنه كان يشعر باغتراب دون أن يعلن عن ذلك من قبل، وأصبح يخرج مع الأولاد صباحا، ليطوف حول المراقد المقدسة، ليعود إلى (عگد اليهود) ويتكلم

بلغته العبرية معهم، كانوا قد اعتادوا لبس البدلة، لذلك كانوا مميزين بأعمارهم الفتية وهم يتبخترون في مشيهم وسط الزقاق، أشترى شاؤول قنينة عطر من أحد دكاكينها، بعد ان جرب أكثر من نوع، بينما أكتفى ساسون بالفرجة، بينما تقصد دانيال الحديث معه بالعبرية، دون ان يثير ذلك حفيظة بائع العطور اليهودي، فهو يتقن أكثر من لغة، ولم يكن يعر أهمية للزبون التكلم بأية لغة قدر اهتمامه ببيع بضاعته، التي يصنع بعضها في بيته، وكانت زوجته تساعد في تقطيرها، بعد شرائها موادها الخام.

كان أغلب اليهود ينتجون بضاعتهم في بيوتهم، فإسحاق يصنع العرق في بيته، ومثله زوجة عزرا صاحب دكان العطور، هي من تصنعه، بعد شرائها القناني الفارغة من بغداد، وكذلك الفارغة من بعض الزبائن.

لكن الحياة لم تكن لتطيب لعائلة بنيامين في كربلاء، فأولاده وزوجته لم يعتادوا هذا الانغلاق في حياتهم، كما لم يعتادوا عدم ارتياد الأندية الاجتماعية والحفلات الليلية، فكربلاء عبارة عن ورشة عمل، يدور فيها الرجل من الصباح ليستكين في الليل في بيته، دون ان تكون هناك أي مظاهر للترف والسهر، وسرعان ما نقل دانيال تذمر أصدقائه إلى أبيه الذي فكر ان يقوم بسفرة إلى حيث النبي حزقيال، والذي يسمى عند المسلمين بذي الكفل.

يقع مرقد النبي ذي الكفل في قضاء الكفل التابع لمتصرفية الديوانية - منتصف الطريق بين الكوفة والحلة، على الضفة الشرقية لنهر الفرات، وله حرم وأروقة سميكة البناء مرتفعة الدعائم قديمة الإنشاء، وعلى قبره قبة مخروطية من الطراز السلجوقي والى جانب المشهد يقع مسجد

النخيلة، ومنارته مع شرفات المسجد الإسلامي القديم، والى جانب مرقد النبي ذي الكفل وتحت نفس البناء يرقد خمسة من الحواريين أصحاب النبي ذي الكفل متجاورين في قبورهم وهم يوسف الربان ويوشع وخون ناقل التوراة ويوحنا الديملجي وباروخ وقيل بأن هؤلاء هم الذين كتبوا التلمود البابلي القديم.

في المساء، اجتمعنا حول مائدة العشاء، ومن ثم اقترحت ريم ان نقوم بسفرة سياحية وزيارة للنبي حزقيال في مدينة الحلة بعد ان ابلغتها بذلك، فوافق الجميع على ذلك، وأخذت النساء الإعداد لها في اليوم الثاني، بينما ذهبت إلى مرآب السيارات القريب من مرقد صحن العباس لأتفق مع احد أصحاب السيارات، في اليوم الثالث انطلقنا في سفرتنا، جلست قرب بنيامين نتقلب أمور الحياة، بينما جلس يسع وزوجته معا، وجلست ريم وأستر زوجة بنيامين، بينما جلس كل من شاؤول وساسون معا، وجلست نجاح ومسعودة، ليبقى كل من صباح ودانيال، فلم يكن منهما إلا الجلوس سوية.

كان دانيال انطوائيا، وربما خجولا، أو يشعر بالاغتراب، يحب القراءة وكثيرا ما يستعير الكتب التي اشتريها ليقرأها، قليل الكلام كثير التأمل، يهتم بموضوعة الأديان والاختلاف العقائدي والفقهي، كما يجذبه التشابه الكبير في بعض طقوسه، فكما ان ذا الكفل أحد أنبياء اليهود، هو كذلك أحد الأنبياء الصالحين عند المسلمين، وكما انه وسيلة للتقرب إلى رب موسى هو كذلك لرب المسلمين، كنا من قبل قد زرناه أكثر من مرّة في عيد الفصح وكذلك في عيد المظال، بعد ان بقينا ثمانية أيام في المكان نستظل بظلال سعف النخيل وأغصان الزيتون تخليدا

لإظلال رب موسى لأجدادنا في أيام التيه، كنا نقرأ الأناشيد ونؤدي الصلاة بحضور رئيس طائفتنا مع كبار الحاخامات والشخصيات المهمة من يهود العراق، حتى أنني التقيت بمنشي خضوري دون سابق موعد فيه، واشترينا قطعة أرض مشتركة في المقبرة، وأحطناها بسياج، وطلبنا من الحارس أن يخط اسم عائلتينا عليها، بدأت المراسيم بدق الطبول والغناء والجلوس طوال النهار تحت ظلال أغصان الأشجار، ونبيت ليلتنا في خانٍ ومضيف آل دانيال.

لم يحاول دانيال، ان يحتك بصباح أو يخلق مشتركات حديث، بل أكتفى بالصمت والتأمل وهو يسرح مرة في ملكوت السماء فيخترق بعقله الباطن الظواهر الطبيعية التي تحدث بسبب وبدون سبب، ومرّة يسرح بالسكون الذي يظلل به النخيل على الأنهار، وعطر البساتين، بيوت الطين البريئة من غير أبواب، وأفواه التنانير وهي تسجر نارا لتطرح أرغفة للكبار، وحنونة للصغار يتنازعون حيازتها، بعض الجواميس الآمنة في النهر، والدجاج السارح يبحث عن الديدان، الحياة في الأرياف مثل فلم سينمائي وثائقي، كل شيء فيه هو جزء من الحقيقة تحول إلى خيال، كما هي الأحلام عندما تتحول إلى واقع وحقيقة، لكن صباح حاولت أن تفتح معه موضوعا ربما محض جدال بين أبناء ملتنا كلها عندما سألته:

- ما رأيك بهجرة اليهود إلى إسرائيل؟
- البحث عن الوجود مشكلة أزلية تعاني منها الشعوب العريقة، كما يعاني منها الأفراد غير المنتمين للواقع.

كانت إجابة دانيال غامضة وصادمة لم تفهم صباح منها شيئا، ولكنها حاولت معه مرة ثانية، من خلال توجيه سؤال مباشر لا يمنحه المراوغة أو التنصل.

- هل بودك الهجرة إلى اورشليم، حيث تظمأ افئدة اليهود إليها؟
- الأماكن الدينية حاجات ملحة ووقتية، سرعان ما تزول رغبتها، ويعود الإنسان لمزاولة حياته الطبيعية، بعيدا عن طقسية العبادة والتوحد مع الذات الإلهية.
- ماذا تقصد؟ فأنا لا أفهم من كلامك أي شيء؟
- الفرق بين أن تعيش وسط أناس تحبهم ويحبونك، رغم اختلاف الدين، أفضل من أن تعيش وسط أناس يشبهونك، دون أن تكون هناك أي رابط إنساني بينكم.
- وهل تربطك علاقات إنسانية، مع من تعيش وسطهم؟
- نعم... أشعر برغبة عارمة للتشبث بالمكان الذي ولدت فيه، ولي فيه جذور تمتد لآلاف السنين، وفي الوقت نفسه، أشعر بعدم الانتماء إليه، لأنني ما شعرت يوما أنني جزء منه، وهناك أطياف تحملني كل مساء إلى حيث الأمان البعيد.
- هل تشعر أنك متناقض فيما تقول؟
- أشعر أنني جزء ينتمي إلى غير هذا الواقع أو إلى ذلك الحلم، فكثير من اليهود، يعيشون عقدة الاضطهاد والأسر، دون أن يكون جزءا منها، ولكنها جزء من تاريخه، وفي الوقت نفسه، يحن إلى ان يعود إلى ذلك الحلم، ولكنه يعاني من صعوبة التخلص من الواقع الذي يعيش فيه.
- يعني أنت مع أو ضد؟
- لا تحاولين انتزاع إجابة واضحة وصريحة مني، فالوجود مركب صعب تفتيت عناصره ومعرفة الجاذبة منه من النافرة، وبالتالي من

مثلي، يفضل الصمت، ويترك الزمن هو من يجيب على مثل هذه الأسئلة.

- ألم تحب يوما فتاة يهودية من مدينة كربلاء، أو من بغداد، أو حتى أثناء مجيئكم إلى مرقد النبي حزقيال؟
- الحب أحد أوجه البحث عن الوجود، ربما صادفتني بعض الفتيات ونلن إعجابي، ولكن لم تصل إلى حد ان تستميلني، فأنا أخاف الحب، كما أخاف التمسك بالعراق، كما أخاف التفكير بموضوع الهجرة إلى اسرائيل.
- والى ما سيفضي هذا الذي أنت فيه؟
- تقصدين القلق؟
- سمِهِ كما شأت؟
- هذه الأشياء، لا يشتريها الإنسان من السوق، أو يتصنعها ليجلب انتباه الآخرين، بل هي وليدة الظروف، ونحن كيهود، أو أبناء اليهود، ولدنا دائما في بيئات غير مستقرة، ما ينعكس سلبيا على أوضاعنا النفسية، وإلا ما هو السبب الذي يهاجر فيها بعض اليهود إلى أوربا دون إسرائيل؟
- ربما هم لا يأمنون على أنفسهم في اسرائيل، بينما يجدون الأمان في أوربا؟
- هذا يعني ان إسرائيل لم تكن يوما مكانا تهوى إليها أفئدة الناس؟
- ربما العكس من ذلك؟
- أنا أخبرك بالسبب الذي أرى من ورائه يقصد اليهود اوربا على إسرائيل أو أورشليم.

- تفضل.
- اسرائيل او فلسطين أو القدس أو أورشليم، هذا المكان الموبوء بتعدد الأديان والأجناس والأزياء والكنائس والأديرة والجوامع، والصخر والحجر والقرميد والطابوق والسلالم الصاعدة والنازلة، والأسوار العالية، والقداسة والدناسة والخيانة والدماء المعلقة في السماء، كل هذه الأشياء وغيرها جزء من نسيج الوطن العربي، وهي لم ولن تستقر يوما، فالزمان لا يلد مثل اليسوع أو صلاح الدين مرتين؟
- هل تقصد ان لا حياة لنا في اسرائيل.
- ولا حياة لنا في العراق، أو المغرب أو مصر، أو أية دولة عربية أخرى.
- بمعنى انك تقول أوربا هي الملجأ الصحيح لنا؟
- لأنها بلاد خبرت الطائفية من قبل، كما خبرت الحرب من بعد، وتيقنت، ان الدين هو آخر شيء يمكن للإنسان أن يقتتل من أجله، كيف يمكن أن يقتتل الإنسان من أجل دين إله يقطن السماء، وينظر من خلف عيون غائمة لخلقه، دون أن يكون له أي دور في حياتهم ومماتهم.
- هل انت ملحد؟
- وهذا الغباء بعينه، عندما تتكلم مع أي شخص فيما يخص وجودك، ستجد التهمة حاضرة ضدك.

غضبت صباح من قوله باتهامها بالغباء، واستأذنته بالذهاب بعد ان نهضت من مقعدها قرب شباك السيارة، وجلست قرب الأغراض في

الخلف، لكن دانيال لم يكلف نفسه، بالذهاب إليها ومراضاتها، بل زحف بجسده إلى مقعدها الذي لازال يحتفظ بحرارة جسدها، وراح يتأمل السماء.

صباح تصغر دانيال بسنتين، ولكن طولها الفارع، يوهم من يراها أنها تبلغ سنا أكبر من عمرها الحقيقي، لم تعتد وضع الإيشارب على رأسها بل حاسرة الرأس في بغداد، واضطرت إلى ذلك عندما جاءت إلى كربلاء، وسرعان ما كان يقع على كتفيها دون أن ترجعه، عندما عبرنا نهر الفرات الذي يقسم طويريج إلى قسمين، أطلت غابات النخيل على مدى البصر من الجانبين، والدجاج والبط على أطراف النهر، بعض الرجال الذيين يحرثون الأرض بالنير على الأبقار الهزيلة، وبعض النسوة الرشيقات محدودبات الظهور في الحقول، بينما تقف الفزاعة وحيدة منبوذة، اما الشوارع غير المعبدة فكانت بين غدو ومجيء للعربات، والسيارات الخشبية، والربلات، وعربات الحمل.

كان الجميع مشغولا بالحديث، باستثناء دانيال الذي شعر براحة كبيرة عندما غادرته صباح، التي انطوت على نفسها دون ان تلفت الانتباه إليها، وراحت تكفكف دموعها، وتضع على وجهها منديلا لتكبت حزنها، بينما خيم الحزن على البعض، كانت السيارة تخضهم باستمرار مثل سرير أطفال متحرك.

اما بنيامين فلم يكن ليغادر بغداد ابدا، ولكن الظروف اضطرته في هذه المرّة، ولذلك هو يفكر بالهجرة إلى إسرائيل، لكنني حاولت تخفيف الوطأ عنه، ومن ان العرب المسلمين هم أيضا كثيرا ما تعرضوا

إلى الحوادث والضغوطات، وربما يضطرهم ذلك إلى الانتقال من مكان إلى آخر ولكن ليس الهجرة، ثم سألني عن اليهود في بابل، وكنت على معرفة بهم، بل كان لي بعض التعاملات البسيطة معهم، عندها قلت:

- لقد عاش اليهود في مدينة الحلة والأقضية التابعة لها مثل المسيب والنواحي التابعة له (السدة والإسكندرية)، وطويريج والنواحي التابعة لها (أبو غرق والكفل والجدول الغربي) والهاشمية والنواحي التابعة لها (القاسم والمدحتية)، فضلا عن قضاء الحلة والناحية التابعة لها (المحاويل)، وبذلك يكون يهود الحلة قد سكنوا جميع أقضية ونواحي الحلة دون تمييز طائفي.
- هذا يعني، ان ليس لديهم كما في كربلاء، زقاق خاص بهم؟
- بل يوجد عندهم زقاق وفي مركز المدينة يدعى (عگد اليهود) أو بوابة اليهود.
- وهل أعمالهم محصورة في هذا الزقاق؟
- بل منتشرة على خريطة مدينة الحلة ونواحيها بحسب مصالحهم الاقتصادية والتجارية.
- وكيف يقيمون صلواتهم وعباداتهم، هل يأتون إلى النبي حزقيال في كل مناسبة؟ أو سمحوا لهم ببناء كنيس؟
- على العكس، فاليهود من كل يوم سبت يحرصون على إقامة صلاتهم في كنيس (التوراة) في محلة التعيس، والآخر في محلة الجباويين، باستثناء الأعياد التي يأتون بسببها إلى النبي حزقيال، ويحضر رئيس الطائفة اليهودية في بغداد إليه.

عندما وصلوا إلى المكان ظهرا، وقد بانت منارته المخروطية من

بعيد، شعر بنيامين براحة غير طبيعية، وهرعت زوجته أستر من السيارة، وكأنها تختزن الخوف، ووجدت في المكان ملاذا آمنا، وتبعتها صباح، بينما بقيت سارة، ونجاح، ومسعودة تعطي الأغراض ليسع، وشاؤول وساسون، بعد ان وقفت وبنيامين أمام مرقد النبي.

انتبهت استر لأبنتها وقد أحمرت عيناها من البكاء، وعندما سألتها عن السبب لم توضح لها ذلك، وإنما أخبرتها ان بعض الأوساخ دخلت فيها، دخلا المرقد، وانكبت على مرقد النبي وهي تبكي بحرقة، وكأن اتهامها لدانيال بالإلحاد لم يكن ذنبا اقترفته بحقه، ولكن عندما اتهمها بالغباء كانت الواقعة الكبرى.

بينما رفع السائق غطاء المحرك ليتفقده، نزل دانيال من السيارة، واتجه إلى داخل المرقد، سمع أنين صباح وامها التي تعاطفت مع ابنتها دون ان تعلم السبب من وراء بكائها، يوحي المكان بروحانية ورهبنة تقطع الزائر عن عالمه الخارجي، لم يكن الزوار من اليهود فحسب، بل خليطا من المسلمين البسطاء والأثرياء، وبالخصوص النساء، اللاتي يلجأن إلى مقام النبي خضر بعد زيارة مرقد النبي حزقيال.

وقف دانيال عند مرقد الحواري يوسف الربان، وغرق في عالمه وكأنه يرجع إلى زمنه الأول من السبي، وأنتقل إلى مرقد الحواري الثاني والثالث التي كانت قبورهم متجاورة، حتى أطال الوقوف عند مقام النبي خضر، وتذكر المحاورة التي دارت بينه والنبي موسى، وكيف ان كثير من علل الحياة ليس لها إجابة منطقية، وبعضها تخرق العادة والقوانين الطبيعية، ثم أصابته رجفة، أجلسته من وقوف، اتكأ على الجدار الضخم

من خلفه، وراح يسبح في ملكوت هذا المكان المقدس، استعاد قدرته ونشاطه من جديد، وعاد إلى مراقد الحواريين الذين كتبوا التلمود البابلي القديم، وبدأ يسأل نفسه، عن معاناتهم، وتسخير حياتهم من اجل الحفاظ على دينهم وتعاليمه السامية، وكيف انهم فضلوا الدين على حياتهم، شعر برعشة غريبة تخترقه، وهو يرى الزائرين من اليهود والمسلمين، يطوفون حول المكان، بل ان كثير من المسلمين يرفعون احدى ايديهم بالدعاء، بينما الأخرى على مرقد الحواري الأول، ومثله الآخرون تباعا، بعد ان يتموا زيارة النبي. ثم جلس وسطها ينظر إلى مرقد النبي متأملا.

لم يكن يصل إلى جواب شاف، من ان سبب الوجود، هو ان يكون هناك رب خلق الإنسان من أجل عبادته، أو حياة، خلق ليكون في صراع دائم كي تنتصر، أو يعيش نكرة، منزويا تائها ضعيفا في ثناياها؟

- يا دانيال، لا تضيع عمرك، بالسؤال؟ فالحياة أكبر جواب لكل الأسئلة التي ولدت، والتي ستولد في قابل الأزمان. عش حياتك مثل أبناء دينك، بخيرها وشرها، بحلوها ومرها، بنسائها، وأموالها.

لكن دانيال، بعد ان بحث عن مصدر الصوت بخوف وترقب، ولم يجده، رد عليه، دون ان يميزه ان كان حوار داخلي يدور بينه وبين نفسه، ام ان مصدر الصوت جاء من مكان آخر.

- حري بالإنسان ان يبحث عن سبب وجوده، وعن الأديان التي كانت ولازالت سبب فنائه، بعد ان كانت سبب وجوده.

- الأديان، وجدت لتكون سببا لاستمرار الناس، وإعطاء معنى للحياة،

ولم تكن يوما ما سببا في إيجاد الحياة. الأديان تشبه كتاب التاريخ، في ذكر ما مضى، وهي خليط من الأساطير والعبادات والعقائد.

- ولكن كيف نبحث عن حقيقة الإنسان والموت؟
- الموت هو الحقيقة الساطعة في الحياة، وليس للإنسان أن يهرب من قدره، وهو يموت حتف أنفه صاغرا، ان كان الوجود كذبة أو حقيقة، فليس من شأن الإنسان السعي إلى ذلك.

انتبه دانيال لنفسه، فوجد انه يكلم نفسه، بينما المكان يزدحم بالآخرين، لم يبق من أهله ومن جاء معهم، إلا صباح واقفة قرب المرقد، بينما ظل بعض الزائرين من الرجال والنساء يتدافعون قربها، ذهب نحوها، وأخذ بيدها دون أن تعارض ذلك، وخرج بها إلى حيث مضيف مناحيم الذي قد إعتاد أهله الجلوس والمبيت فيه.

لقد حرص أثرياء اليهود في مدينة الحلة على مساعدة الفقراء، أو المعوزين من أبناء دينهم، حيث أقام مناحيم صالح دانيال مضيفا له في ناحية الكفل لنزول الزائرين فيه اثناء زياراتهم لمرقد النبي حزقيال فضلا عن بناء خان لمبيت الزوار، وبعض فقراء اليهود، ومناحيم من وجهاء مدينة الحلة، والذي عين عضوا لولاية بغداد، ثم انتخب نائبا في مجلس المبعوثان العثماني، ثم انتخب نائبا في المجلس التأسيسي العراقي، وعضوا في مجلس الأعيان.

بدأت النساء بإعداد الغداء، بعد ان أوقدوا الحطب لتسخين الأكل في أواني النحاس، وإخراج الفاكهة وارغفة الخبز، والصحون والملاعق، بينما أكتفى الرجال بالفرجة على المضيف، والأحاديث الجانبية فيما

بينهم، أخذ يسع كل من شاؤول وساسون إلى نهر الفرات، لاكتشاف المكان، وظلت صباح مكسورة الخاطر والحزن ظاهر على وجهها، أما دانيال فذهب إلى مسجد النخيلة الذي يحتوي على محراب في الموضع الذي صلى فيه الامام علي بن ابي طالب عند خروجه إلى صفين مرة، وعندما بلغه قتل عامله على الانبار مرة ثانية، وثالثة عند خروجه لحرب الخوارج في النهروان مارا ببابل.

عندما سجى الليل وهدأ المكان، اضيئت القناديل التي تعمل على الشحم والزيت، ولم تكن الكهرباء قد وصلت بعد إلى المرقد والمناطق المحيطة به، بل بقيت حكرا على مركز قضاء الحلة، بعد ان انشأتها اسرة سوسة قبل عقد من الزمان. انعزلت النساء في غرفة والرجال في الغرفة المجاورة لها، بينما فضل الشباب ان يناموا في وسط الخان المكشوف، بعد ان مدت لهم الفرش على الأسرة الخشبية المصنوعة من جريد النخيل، وشيئا فشيئا بدأ الحديث يتقطع، ومن ثم ذاب كل منهم في ملكوت السماء الصافية، وراح يتأمل في ملكوتها.

عند الصباح، عاد السائق لنا، وبدا الجميع سعيدا بهذه الرحلة، والتي سرعان ما تحولت إلى ماضي نجتره من جديد، بل ان بنيامين كانت شهيته للكلام مفتوحة، مثل طفل جائع لحليب أمه حين قال:

- أغبطك على راحة البال التي تتمتع بها وعائلتك، وأنت بعيد عن بغداد والمشاكل السياسية، والتنافرات، والتناقضات التي تعصف بالساسة وأحزابهم.
- اليهود جزء من المشكلة السياسية، ونكراننا لجميل الدولة

العثمانية عندما عاملونا كرعايا أسوة بباقي رعاياها متساويين في الحقوق والواجبات فضلا عن السماح لنا بتأسيس مدارس خاصة بنا، واشراكنا في العملية السياسية من خلال ممثلين في مجلس المبعوثان العثماني، واعطائنا بعض الوظائف الحكومية المرموقة مثل صراف باشي. عاد وسيعود علينا بمشاكل جمة.

- هذا حق مكتسب لنا كجزء أساسي من المجتمع العراقي؟ والمشاكل هي جزء من مراهقات ساسة العراق.
- وهل يبيح لنا هذا الحق ان نكون أكثر الناس فرحا بالإحتلال البريطاني، حتى يخرج أغلب اليهود يهتفون ويصفقون للجنود البريطانيين، ويبذلون أقصى جهودهم من أجل خدمة المحتل البريطاني والتعاون معه.

صمت بنيامين، وقد تصورني قد نسيت التاريخ القريب، الذي كان السبب الرئيس في هجرتي من بغداد إلى متصرفية كربلاء، بل ان فشل مشروع الحمام، ظلَّ مثل جرح ينكأه هذا التاريخ، كنت اود غرس جذوري في هذه المدينة الآمنة والطيبة بأهلها، ولا اريد نكوصا في حياتي العملية، يجعل ميزان رجوعي اليها يصعد منسوبه أبدا، ثم اتم حديثه بالقول:

- بل لم يكتف اليهود بكل هذا، حتى أشاعوا بين الناس (أيش ما يقول لك الصاحب، قل له يس)، وهم الذين أطلقوا على البريطانيين الكنية التي عرفوا بها في العراق (أبو ناجي)، وكانوا يقصدون من ورائها، ان البريطانيين هم من نجاهم من ظلم العثمانيين.
- صحيح.

- بل ان الدولة العثمانية لم تفرق في ظلمها بين العراقيين، عندما كانت تعلن السفربرلك، ولولا البرطيل الذي يدفعه الميسورون منا، في الوقت الذي كان فقراء اليهود يتجمدون من البرد عند حدود القفقاس أسوة بأخوتهم المسلمين، وهي بذلك تعلن عن عدالة ظلمها، دون ان تفرق بين رعاياها، لكنا من الأموات.
- كلامك صحيح، لم نكن جزءا من العراق كجغرافية، أو من الشعب كتاريخ، بل كنا طائفيين ننتمي للدين، ونعتز بيهوديتنا، سرعان ما نصطف مع القوي، وهذا عاد علينا بالبلاء الكبير.
- ليس هذا فحسب، بل تجمع اليهود على طول الطريق المؤدي إلى السراي وأخذوا يرمون الورود فوق رؤوس الجنود البريطانيين، وجاء صراف باشي يخلع بيعة الدولة العثمانية، ليلبس طوق الاحتلال البريطاني.
- يكفي هذا، تبدو متحاملا على أبناء دينك أكثر من المسلمين.
- المسلمون ليسوا متحاملين علينا، بل نحن نتصيد بالماء العكر، أتذكر عندما انهزم الإنكليز في معركة الكوت، وكيف جيء بقائدهم طوزند أسيرا إلى بغداد، كيف حزن اليهود والمسيح، بينما فرح المسلمون بذلك، كانت كلها بوادر على انشقاق أهل البلد إلى أقسام ستتناحر في المستقبل القريب.

كانت الأحداث ساخنة ومتسارعة بين الرجال كما هي بين النساء، لم يشعر اي منا بطول الطريق، كما في قدومنا، فقد أسرّت أستر زوجتي بأنهم سيهاجرون إلى خارج العراق، دون ان تحدد وجهتها إلى ايران ومنها إلى اوربا، أم إلى سوريا ومنها إلى اسرائيل، بمجرد ان تستقر الأمور

في بغداد، ويرجعون إليها، ليبيعوا أملاكهم، بعد ان يصفي تجارته، فقد كان ثالث ثلاثة من اليهود في بيع الزجاج والمرايا.

عندما وصلنا إلى مدينة كربلاء، وقد شعر الجميع بشوق كبير إليها، وذهب يسع مباشرة إلى دكان الأقمشة، بينما جلست في محل الصياغة بعد ان فتحت بابه، اما ريم، فكانت تشعر باغتراب خارج بيتها، وراحت تشتم عبقه بأنف المحروم الذي فقد شيئا عزيزا عليه، بينما انتاب عائلة بنيامين، شعور بالطمأنينة، دون ان يكون ذلك عبارة عن شعور بالانتماء للمكان، وفي صباح اليوم التالي قرر بنيامين العودة إلى بغداد ليتحرى الأمور ان كانت قد هدأت أم لازال التوتر هو السائد على الشارع البغدادي.

أختص دانيال بي، وطلب مني الزواج من صباح، لم امانع في ذلك، وطلبت منه وقتا كي اخبر أمه بذلك، لتعرف رأي الفتاة في الطلب، ولم يكن دانيال متسرعا في أمره، بل ترك الأمر لنا، في حسم الأمر مع أهل صباح، بينما كان في قرارة نفسه، متأكدا من ان صباح لم تمانع في ذلك، أو تضع أي شرط كمعوق لمشروع الزواج.

لم اكن اعرف برغبة أستر في الهجرة، وعندما فاتحتها ريم بطلب أبنها، أخبرتها بموضوع الهجرة، وكانت بمثابة الصدمة لي، ففي قرارة نفسي، كنت اشعر بانزواء ابني عن المجتمع، ومثل هذا الطلب، يعني شروعه بحياة جديدة، ليكون جزءا فاعلا بالمحيطين به، ومع ذلك قررت ريم ان تفاتح أستر بالأمر، عسى ان تغير رأيها، فلم ترد الأم، وانما ردت صباح، بالقول: انها توافق عليه بشرط ان يقبل الهجرة معها إلى خارج العراق، لكن ريم رفضت طلبها مقدما، ومن ثم استدركت بالقول في أن تفاتحني وأبنها بالأمر، وليكون لأبنها القول الفصل في زواجه واختياره.

IX

العود أحمد

على غير العادة دخل جاسم العلي الرجل الذي اشترى الحمام مني مكسورا، إلى دكان الصياغة، وجلس صامتا حزينا، لم اعره أية أهمية، بل أهملته، وقد بدا شكله للوهلة الأولى ليس بغريب عليّ، حتى إذا ما تبحرت في شكله، تذكرت أنه من أشترى الحمام، سألته عما يريد، كان الحرج باديا عليه، فتلعثم أول الكلام، وعلى مضض ذكرني بنفسه، ومن ثم طلب مني استرجاع ماله، لأنه لا يستطيع العيش في المدينة، ليس هذا فحسب، بل المفروض على صاحب البيت ان يشتري حتى البيضة من السوق ومثلها الخضروات، وام البيت تتكاسل عن الخبز، وتطلب مني شراءه جاهزا من حلومة الخبازة.

ضحكت كثيرا، من أسباب إرجاع الحمام، وكأنه لعبة أو كرسي حلاق تتغير زبائنه مع ثباته، ثم قلت في نفسي، تعددت الأسباب وحمام اليهودي واحد، أردت ازاحة الهم الذي ركب قلبي، وما ترك موضوع زواج دانيال من صباح وجوم على البيت، فقلت لجاسم العلي، هل يجوز أن تبطل البيعة بعد مرور أكثر من ستة أشهر على ذلك، لم يكن من العلي إلا ان غط في ملابسه بعد ان ضاعت اية حجة يقارعني بها، ولكنه

توسل بشكل محرج، من أن رأس ماله كله وضعه في شراء الحمام، وليس له ان يعود إلى منطقته دونه، وإلا سيرتكب جريمة بحق عائلته، لم اهتم لكلامه، وأخذت بمراوغته، ووافقت على إرجاع الحمام ولكن بنصف سعره، لكن العلي، رفض ذلك، مدعيا ان الحمام يعمل بشكل جيد، ولكن السبب في كونه لا يستطيع التأقلم في المدينة، ويقوم بخدمة الزبائن، بالرغم من تنابز اليرمازية بالكلام البذيء، وبعضهم يجدف، والسباب يكاد يكون عاديا بينهم، ليس هذا فحسب، بل مطلوب منه تقديم خدمات لم يعتد عليها مثل تنظيف الحمام، وشراء الصابون، ودواء حمام، وغيرها من الطلبات التي يصعب عليه تنفيذها، رغم محاولته استيعابها.

ثم وصلت إلى اتفاق معه، ان تكون الفترة الماضية بمثابة إيجار للحمام، استقطعها من المبلغ، وكان أتفاق وسط ارتضاه الطرفان، وهكذا عاد الحمام من جديد لي وكنت جذلا بذلك، لكن إعادته أصابت البيت بتصدع، إذ يعتقد يسع ان وضع عائلته يجب ان تتقدم إلى الأمام ولا ترجع إلى الوراء، بل ان إعادته تعد انتكاسة اجتماعية، اما دانيال، فقد ازداد تعلقه بحبيبته بعد ان أصرت على شرطها بقبول الزواج إذا هاجر معها. ولم يهتم بموضوع إرجاع الحمام من عدمه، بينما كانت ريم تحترم رغبتي، وتعرف مدى تعلقي به، ومع ذلك أخذت موقف الحياد من بيعه أو بقائه.

أرسلت بطلب أحمد خان، وشرحت له الموقف الذي كان من ورائه اعاد جاسم العلي الحمام، وبذلك رجعت الأمور إلى وضعها السابق، في ان يدير الحمام، وعند كل مساء يأتي بوارده اليه. شعرت بسعادة

غامرة، بعد استعادتي الحمام، وكنت من قبل امر قربه واشمُّ ريحه، بينما الألم يعتصرني، ومع كل هذه الراحة النفسية التي غلبتني، اضطرني يسع ان اعرضه من جديد للبيع، وقد خبر السوق، فراح يذيع امر بيعه، كان عمل الحمام جيدا، وأصبح له زبائن يرتادونه، وبالخصوص ان الحركة التجارية والاقتصادية جيدة في المدينة.

* * *

عند الليل اجتمعت بعائلتي، لكي يدلوا بآرائهم في موضوعة زواج دانيال من صباح، أبدت ريم رأيها في ان يترك هذه الزيجة، وانها ستبحث له عن زوجة تليق به وبأسم العائلة، أما يسع، فترك أمر تحديد زواجه لأخيه، لأنه هو من سيقرر ذلك في الهجرة أو البقاء، ومن الممكن الوصول إلى حل وسط هي بالهجرة إلى شمال العراق أو العودة إلى بغداد، أما انا، فرفضت رفضا قاطعا هجرته إلى الخارج، دون ان يكون هذا الرفض ملزما له، ولم يكن لمسعودة من رأي، ففضلت الصمت وسماع رأينا بموضوع يمس أحد أفراد أسرتها، ومن ثم اتجهت الأنظار إلى دانيال ليبدي رأيه، الذي لم يطل السكوت، وسرعان ما صرح بذلك، من أنه لا ينتمي لأي مكان حتى لو كان العراق أو إسرائيل أو أوربا، وان الانتماء الحقيقي للإنسان في علاقاته الإنسانية مع الآخرين، ومتى ما وجد تلك العلاقة كان حريا به اتباعها دون التواني في ذلك.

* * *

مضى على عرض الحمّام للبيع ستة أشهر، لم يأل يسع جهدا دون ان يبذله من أجل بيعه، لكنه يأبى ان يخرج عن حوزتهم، كما ان دانيال

لم يتخذ أية خطوة فعلية اتجاه موضوع زواجه، ومثله أهل شاؤول في بيع ممتلكاتهم، فقد كانت أملاك كثير من اليهود معروضة للبيع، وكل منهم يرفض بيعها دون قيمتها الحقيقية، كما بلغت مسعودة الثالثة عشرة من عمرها، فعاد شاؤول وأمه استر لخطبتها، لكن ريم رفضت ذلك بحجة صغر عمرها، الذي لم يكن مانعا حقيقيا في أعراف اليهود، إذ يجوز تزويج الفتاة بمجرد ان تتحول من فتاة إلى سيدة، وانما لقطع أي حبل الوصال بين العائلتين، الذي سيعزز رغبة ابنها في الزواج من أبنتهم والتي تنوي الهجرة به إلى خارج العراق.

* * *

نازل الطلق سارة، كانت خائفة، طلبت من يسع الذهاب بها إلى أهلها كي تلد عندهم، لكنه رفض ذلك، وذكرها بالاتفاق المبرم بينهما، وتدخلت ريم وطمأنتها من أنها أمها الثانية هنا، وستشرف على رعايتها، أرسلت بطلب (الجدة) اليهودية التي تسكن في العباسية الشرقية بعد ان علمت بوفاة (الجدة) التي أشرفت على ولادة مسعودة، كانت ريم تؤمن بالفأل الحسن، وبعكسه السيء، ولكن الموت لم يجعل لها حق الاختيار.

افاضت السماء عليهما، بطفل جميل، اتفقا على ان يكون اسمه نورائيل، فرح كثيرا يسع به، وكان من قبل قد اشترى له جهازا صغيرا هو عبارة عن سرير صغير خشبي من جريد النخل مع فراش ولحاف، و(حجلة) يتوكأ عليها عندما يشرع بالمشي، بينما أهديته ميدالية هي عبارة عن خرزة زرقاء علقتها بثوبه الأبيض عند صدره.

القسم الثالث

I

موت حلومة الخبازة وبيع الحمام

جئنا أسرى، مرغمين، خائفين، مقيدين، مكسورين، مفلسين. وعدنا، هاربين، مرهوبين، مخذولين، مطرودين.

* * *

كان يسع أثناء تردده على بغداد، يذهب بزيارة إلى بيت عمه الذي لم يبق فيه سوى زوجة مناحيم الأبن الأكبر لمنشي خضوري الذي توفى لكبر سنه، ولحقته زوجته حزنا عليه، بينما فضل أخوه الهجرة مع زوجته إلى اسرائيل، ومثله أخته التي هاجرت مع زوجها إلى أوربا.

يقضي يسع ومناحيم يوم السبت في الكنيس وعند العصر يذهبان إلى النادي لقضاء بعض الوقت، تدور جل الأحاديث حول الوضع السياسي المضطرب، والهجرة إلى خارج العراق، كان النادي مكتظا بمختلف الطبقات الاجتماعية والاقتصادية، من أعضاء غرفة تجارة بغداد، وتجار السكر والشاي والبن والحلويات، والأدوات الكهربائية، ومكائن الخياطة إلى تجار الأقمشة ووكلاء العمولة (القمسيون)، وتجار المواد الانشائية للإسمنت والحديد والأخشاب، كما يلتقي في الأندية

الأخرى موظفو الدوائر الحكومية، ومتوسطو الدخل من اليهود من العمال والباعة المتجولين وأصحاب الحرف والمعامل الصغيرة.

نهض يسع إلى المراحيض ليريق المائية، لم يمض على تأخره دقائق حتى سمع دوي انفجار رج المكان وتشظى زجاج الواجهة الأمامية إلى شظايا نبت في اجساد بعض الجالسين داخل النادي والمارين أمامه، وقد ملأه الدخان، وتبين له فيما بعد ان قنبلة يدوية بدائية الصنع قد رميت داخل النادي ما تسببت بقتل من وقعت قربهم وجرحت المحيطين بهم، اما مناحيم فلم يصب بأذى جسدي، باستثناء الاختناق، اذ ان من حسن حظه انه كان يجلس في أقصى النادي بعيدا عن باب الدخول وواجهته الزجاجية.

كما قتل النادل الذي يقف خلف المنضدة لتلبية طلبات الزبائن، بعد ان أنهارت عليه الرفوف التي تحمل قناني المشروبات بمختلف أنواعها، فطوحته على الأرض، ونزف من رأسه دما كثيرا وهو فاقد للوعي، حتى لقي حتفه.

تدافع الجميع للخروج من النادي واستنشاق هواء نقي، بينما خرج مناحيم والقريبون عليه، من الباب المؤدية إلى الحديقة الخلفية التي يعقد النادي جلساته في الصيف عليها، مثل هذا الانفجار قد حصل في أكثر من مكان يتجمع فيه اليهود، كان هذا انذارا كافيا لمناحيم كي يصفي تجارته ويعرض بيته للبيع رغم محاولات يسع مواساته وتخفيف وطأ ما حدث لهما، لكن اصراره على الهجرة لم يترك بدا ليسع إلا مسايرته.

لم يخبر يسع زوجته بما وقع لأخيها وقراره بالهجرة، لا سيما ان

الحزن يخيم عليها بعد هجرة أخويها، لكن الاخبار التي تناقلت عن طريق الإذاعة والصحف والمجلات، جعلتها تشك ان هناك خطبا كبيرا يقع على بني ملتها، فكثير من الذين يسكنون كربلاء، أصبحوا يتجنبون الذهاب إلى بغداد للعبادة والتسوق وزيارة الأقرباء، فقد أصبح ضرب اليهود وقتلهم أحداثا شائعة في بغداد.

* * *

كانت السلوة الوحيدة لسارة بعد ان انقطعت أخبار أهلها بوفاة أبويها، وهجرة أخويها، هو أبنها نورائيل، وسماعها للموسيقى والأغاني التي تبثها الإذاعة العراقية، بعد شيوع أجهزة الراديو في العراق، بعيد انتشار البث الإذاعي في العالم بسنوات قليلة، ويعود السبب من وراء ذلك إلى البريطانيين من خلال وجود معسكرات جيوشهم في العراق، هم الذين ادخلوا أجهزة الراديو اليه، ولكن عملية ترويج الراديو بشكل واسع تمت في بداية الثلاثينات حيث نشر إعلان في مجلة الحاصد يشير إلى كثيرين ممن اقتنوا الراديو(ماركة فيليبس) (يتنعمون الآن بسماع اشجي الأنغام وأحلى الموسيقى التي تعزف في لندن، شلمسفورد، برلين، روما، بخارست، استنبول، وغيرها من أشهر مراكز الموسيقى في أنحاء اوربا) ثم يذكر الإعلان انه بعد ان ورد الراديو إلى العراق أصبح بإمكانك ان تشنف مسامعك وأنت بين أقاربك وأصدقائك بما يزيل عنك هموم الحياة: موسيقى رقص، قطع كلاسيكية لأشهر الجوقات وأعظم المغنين، بإمكانك ان تستخدم مكبرة الصوت «الملحقة بالراديو» في غرامفونك في أي وقت شئت، فتحصل على أنغام مكبرة لا تضاهيها أنغام الجوقات الكبرى) وكانت الشركة الأفريقية والشرقية هي الموزع الوحيد للراديو.

سمعت سارة من خلال الراديو ان بعض الأندية اليهودية قد تعرضت لأعمال إرهابية وعدوانية، تسبب في مقتل وجرح بعض مرتاديها.

فكر يسع ان ينشر إعلانا في الصحف المحلية، عن بيع الحمام وكتب مواصفاته، من انه حديث البناء، يحتوي على خزانات جديدة، وأرضيته مبلطة بالحصى الخشن، يقع في موقع تجاري مميز وسط (عگد اليهود)، والسبب هو عدم التفرغ. لكنني رفضت ذلك، وطلبت منه ان يترك الأمر حتى تأتي ساعته.

* * *

لم تفض تحقيقات الحكومة إلى شيء مقنع، كما لم تفلح بمسك الجناة الذين اقترفوا هذا الفعل، لكنها استشعرت وجود أيدٍ خفية هي من تقوم بمثل هذه الأعمال دون ان تعلن ذلك إلى الملأ، فبعد ان يئست الحركة الصهيونية من اقناع اليهود بالهجرة إلى فلسطين، عمدت إلى ترهيبهم، وفي المقابل فأن اللاجئين الفلسطينيين الذين دخلوا العراق، عملوا على انشاء نوادٍ ومجاميع كشفية باسم الجوال العربي، إضافة إلى المد القومي الذي اجتاح الوطن العربي والعراق بالخصوص، كانت اغلبها وراء الأحداث التي أدت إلى تهجير يهود بغداد إلى خارج العراق.

اما في كربلاء، فلم تكن هناك أي أعمال عدوانية ضد اليهود، على العكس كان التفاعل بين أبناء المتصرفية ايجابيا، فقد ماتت حلومة الخبازة بعد ان فقدت بصرها، وتورمت قدمها اليمنى، وأصبح المعيل الوحيد لها هو أسحاق، بعد ان أفتقدها لأكثر من يومين، تجاوز عمر حلومة الخامسة والأربعين، هي قصيرة وسمينة وعندما تمشي كأنها كتلة

لحمية كبيرة، تتكئ على قدم لتنقل الأخرى، وعندما تفترش الأرض، وتضع تل الخبز أمامها، كأنها سلحفاة، تلف رأسها بفوطة سوداء، تعشق أكل الخبز بعد ان تغمسه بالشاي الحلو جدا، وفي أحد الصباحات ذهب اسحاق كعادته إليها، فوجدها قد فارقت الحياة، فحزن عليها حزنا شديدا، وأقام لها العزاء في بيته، وأفرد مجلسا لليهود، ومثله للمسلمين، بعد أن افرد موزع القهوة لليهود، ومثله للمسلمين تجنبا للإحراج، كما شغل الراديو على القرآن ترحما على روحها.

أعتكف اسحاق الحياة، ولم يعد يهتم بعمله، وكثيرا ما كان مخزنه مغلقا، كبرت لحيته، وتوشحت عيناه بالسواد، حتى أشار عليه أحد اليهود من كبار السوق، ان يهاجر إلى اسرائيل، وقصده من وراء ذلك، أن يهجر كل تاريخه وذكرياته، التي تذكره بحبيبته حلومة الخبازة، إذ لم تكن له من علاقة نسائية مع سواها، وكثيرا ما يقضي وقته قربها، يجلسان قرب الراديو ويسمعان الأغاني، بينما تعمل حلومة له الخيار باللبن، وتعد له كل مستلزمات الجلسة الشاعرية التي تشعره بالوجود.

لكن الشعور القومي، وإحياء ذكرى ثورة العشرين كان يتفاعل في نفوس أهالي كربلاء، وقد اعتادت الوفود الذهاب إلى الرميثة لأحياء ذكرى شهداء الثورة، وعندما ترجع إلى المتصرفية يستقبلهم الناس عند المرقدين الشريفين بالأناشيد والتصفيق والهتاف، وهي ترفع رسم شيخ شهداء الثورة محمد تقي الشيرازي، فيما تحصل بعض المضايقات من قبل مدير الشرطة صالح حمام، باعتقال بعض الشباب العائد وزجهم بالسجون بعد تعنيفهم وتحقيرهم، ومن ثم يطلق سراحهم.

* * *

كانت متصرفية كربلاء على عكس المتصرفيات والأقضية الأخرى، يتسارع النمو والإعمار فيها، والسبب وجود المراكز الدينية، وهي الأماكن التي يقصدها الزائرون من كل بقاع العالم، وتحظى بالتبرعات من بعضهم، إضافة إلى الانتباه والاهتمام من قبل المتصرف والحكومة في بغداد. بدأت معالم المدنية تأخذ حيزها في المدينة، فالكهرباء وبعدها الماء، بعد ان قام أحد التجار الايرانيين ويدعى رئيس بجلب ماكنة ضخمة لنقل الماء من نهر الحسينية عبر الأنابيب إلى المرقدين والى بعض الدور ولا سيما دور ذوي النفوذ في المدينة، ومن ضمنهم بيتي، بعد تنقيته من الشوائب.

ومن ثم تعبيد الشوارع الرئيسة جعلتها قبلة للأفئدة الملتاعة لزيارة مراقدها الدينية، أجريَّ كثير من الإعمار والتطوير على العتبات المقدسة في المدينة، وبدأت بعض أزقتها تتسع لتتحول إلى شوارع فرعية ورئيسة توصل أطراف المدينة ببعضها. فقد عملت مديرية البريد والبرق العامة على تشجيع الأهالي على نصب الهواتف في مساكنهم، فأصدر أرشد العمري، المدير العام للبريد والبرق منشوراً قرر فيه منح مبلغ نقدي مقداره عشرة روبيات كمكافأة لكل موظف بريدي يقنع مواطنا على نصب هاتف في مسكنه أو محله. ليصبح عدد الهواتف المركبة في عموم العراق عند بداية العقد الثالث من القرن العشرين قد لامس الفي هاتف وحدث تطور في مدّ خدمة الهاتف إلى الألوية، والمدن العراقية المهمة، ونظراً لأهمية الهاتف فقد سعت الدائرة إلى مدّ خدمة الهاتف إلى الدول المجاورة للعراق.

* * *

جعل هذا التطور والإعمار في المتصرفية كثيرا من الإيرانيين يقيمون فيها، بعد ان جاؤوا في أول الأمر من أجل الزيارة، والحصول على لقب الحاج، ليستوطنوا بعد ذلك فيها، ومن ضمن الزائرين كان رضا التبريزي، الذي جاء مع زوجته وأبنيه قاسم وهاشم، وسكن في المسافرخانة للحاج حسن عبد الأمير، والذي تربطه مع والد أكبر صادقي علاقة طيبة، وكثيرا ما كانا يأتيان بمفردهما للزيارة، وهو السبب من وراء شراء صادقي للبيت الذي اسكنه الآن.

في صباح اليوم التالي، قرر ان يعود صديقه أكبر صادقي، عندما وصل إلى البيت، وجد انه قد تغير كليا، وقف أمام الدكان، ينظر من خلف زجاج عارضته، لم يكن من عادتي ان اعير الزبون أية أهمية حتى يدخل اليه، وعندها يكون قد عزم على الشراء، اخرج له بعض الأطقم الخفيفة الوزن، ذات الثمن القليل، حتى يطلب مني بعض المصوغات الثقيلة الوزن، فأخرجها له.

- عفوا هل هذا بيت الحاج صادقي وابنه أكبر؟
- سابقا، بل قبل أكثر من عشر سنوات.
- آها... لكنني تصورت ان أكبر سكن كربلاء، بعد وفاة والده، لأنه هجر تبريز دون أن أعرف وجهته.
- أنا أعلم، انه هاجر إلى خراسان، حيث الإمام الرضا، لأنه لا يستطيع العيش بعيدا عن المراقد الدينية الشيعية.
- أنا صديق والده، وعندي علاقة طيبة بأبنه، وتصورت انني سألتقيه، لأنني كنت السبب في شرائه، وجئت أمس من تبريز.

تركت الكتاب الذي كنت قد طويته، بعد ان عرفت انه قادم من منطقة

بعيدة، وكنت قد اعتدت الترحيب والاحتفاء بالغرباء، وكأنني باللاوعي، اواسي نفسي وأقراني الذين يهاجرون من مكان لآخر دون رغبة. ثم قلت:

- على الرحب والسعة. وطلبت من دانيال ان يأتينا بالشاي.
- شكرا لحسن استقبالك.
- وكيف هي تبريز، وايران، اتمنى ان تكون وأهلها بخير.
- والله أفكر ان أسكن كربلاء، بالرغم من أنني زرتها غير مرة، ولكن ما يستوقفني هو العمل الذي أحبه.
- وما هو نوع العمل الذي تحبه؟
- أنا صاحب حمام عمومي في تبريز، ربما انت تعرف ان تبريز منطقة شمالية، وأكثر وقتها بارد وفي الشتاء تكون الثلوج. وأريد ان أشتري حماما عموميا هنا، لأنني لا أعرف عملا غيره، لأكون قريبا من المراقد المقدسة.

انتابني شعور مختلط من الفرح والحزن، من الفرح، في أنني سأبيع الحمام بسعر جيد، وبالخصوص بعد ان تغيرت الأحوال وأصبح الدينار العراقي الجديد الذي طبعه الملك غازي يعادل ما قيمته أربعة دولارات وأكثر، ومن انه من الممكن أن احول مبلغ الحمّام في عمل آخر. ومن الحزن، في أنني سأفارق مشروع عمري، فقد أصبحت أعرف قيمة التاريخ، وما لأسم الحمام وموقعه من أهمية في متصرفية كربلاء. لكنني لم أبين له رغبتي في ذلك، وفضلت الصمت على ابلاغه بأنني أريد بيع الحمام.

خرج الحاج رضا من دكاني، بعد ان أصريت على بقائه حتى الغداء، ومن ثم أخذ يتجول في المدينة، بعد فراق كبير لها، وقد تغيرت كثيرا عما عهده عن قبل، حتى بدا بعض التحول في اللغة الدارجة عند الناس، بعد

ان كانت أغلب الأعمال تتبع بكلمة خانة، بدأت الأشياء والأسماء تكتفي بذاتها، كما كان هناك بعض التحول في الأزياء، فقد انزاح الطربوش الأحمر، واستبدل بالسدارة، بعد ان تلبس العراق الملكية، كما أنخفض منسوب العمامة، بعد شيوعها في المراكز الدينية والمدنية، وأصبح كثير من المثقفين حاسري الرأس، ويرتدون البدلة الأوربية، أو المدنية.

بينما ظلت الهجرة مستمرة من أطراف المتصرفية والأقضية المجاورة لها، كما بدأت المدينة بالانفتاح إلى العباسية الشرقية والغربية، حيث أفتتح احد اليهود الذي استسلم كما أشيع عنه، وأصبح يسمى المسلماني خانا كبيرا لبيع وشراء الحبوب والتمور، وأفتتح قهوخانة في أقصاها لسيد مجيد الإيراني، في مقابل خان كبير للحوذية، وهم متعهدو نقل الناس إلى خان النخيلة، لتستلمهم جماعة أخرى إلى خان النصف وصولا إلى النجف وبالعكس. ونزحت بعض العوائل من مدينة شثاثة إلى المدينة ومنهم آل منيدح وبيت الكلكاوي، وقطنوا المدينة. ومثلها هجرة بعض أصحاب الحرف من ايران إلى متصرفية كربلاء، مع ازدياد نفوس أهلها بشكل طبيعي.

كما بنيت بعض الحمامات في العباسية الشرقية والغربية ومنها حمام المشروطة والنمرة، وبدأ بعض اليهود ينتقلون اليها، لأن شوارعها عريضة، كل ذلك خلق فرص عمل جديدة، بينما ظل اليهود يبيعون القماش على الأهالي بالآجل، يمترون الطفل بالياردة ويقصون القماش له، ويأخذون قسطا بسيطا من مبلغه، بينما كانت بعض اليهوديات يعملن خياطات على مكائن الصنكر.

* * *

عاد الحاج رضا تبريزي معاتبا لي، من أنني امتلك حماما عموميا وقد عرضته للبيع، وبأنني اعلم من قبل بحاجته لشرائه، لكنني استقبلت عتابه دون امتعاض، وأكدت له، انني لا اريد اخبارك بذلك حتى تكتشفه بنفسك، وتقيمه دون ان يكون هناك تأثير للمجاملة بيننا، لم يطل العتاب والاختلاف، وسرعان ما اتفقنا على سعره، وتم تحويل ملكيته، وكأن هذا النزاع الطويل، مثل عمر الإنسان سرعان ما ينطفئ دون سابق إنذار، لينبت مكانه إنسان جديد في مكان جديد.

II

خطوبة جماعية

ذات جمعة قررنا الذهاب إلى بغداد برحلة قصيرة، فكل فرد من أفراد عائلتي يريد الهروب من واقعه، يراوده شعور بقرب إطلاق سراحه من السبي الطوعي الذي أجبرنا أنفسنا على البقاء خلف قضبانه، طلبت سارة من يسع ان تزور أخاها، وهي تهجس خوفا عليه، بل ونمت داخلها رغبة جامحة بالهجرة، ان لم تكن لبغداد فلخارج العراق، بعد ان شعرت بانقطاع نسل عائلتها، بعد ان عزم أخوها مناحيم الهجرة، وارسل بطلبها ليعطيها حقها من أرثها، وهذا ما أكد هواجسها، ولأن المرأة هي الجذر الأساسي للأسرة اليهودية تأسيا بسارة زوجة ابراهيم، فكان لزاما أو طوعا من يسع ان يتبعها بعد ان وضعته بين اختيارين، أما الهجرة معها، أو التفريق وأخذ نورائيل معها بعد ان عزفت عن الإنجاب لعدم استقرارها النفسي.

واما دانيال، فقد حاولت امه ان تخطب له أكثر من فتاة يهودية من سكنة كربلاء، إلا ان الإنسان راغب في ما منع عنه، وأصر على الارتباط بصباح، وظل يتواصل معها عن طريق زياراته المتقطعة لخالته مائير، ومن ثم لقاءها، ومثله شاؤول الذي رفض الهجرة مع أهله حتى ارتباطه

بمسعودة، وقد رضخ أهله لرغبته على أمل موافقة ريم على إتمام زواجهما.

اما أنا فكنت أعد بيع الحمّام انتكاسة نفسية لم أطق تحملها، فقررت السفر إلى بغداد من أجل تغيير الأجواء التي أصابها الكدر والكرب والهم، إضافة إلى تقصي اخبار أصدقائي واقربائي، بعد ان اضحت بغداد مدينة غير متسامحة يكثر فيها القتل والتهجير والتفجير، وكنت أقرأ ذلك في بعض الصحف التي يأتيني بها يسع ومنها الاستقلال والنهضة، إضافة إلى سماعي الأخبار المحلية والعربية والعالمية.

وما أكد تلك الأخبار خارجيا هو عودة إسحاق من فلسطين بعد مكوثه لأكثر من ستة أشهر، حيث ألتقى شريكي سليمان فيها، وبمجرد ان عرف انه قادم من كربلاء سأله ان كان يعرفني، فأجابه بالنعم، ودارت أحاديث كثيرة بينهما، لكن اسحاق لم يستطع العيش هناك، لأنه لم يجد العمل المناسب له، والأهم انه لم يستطع ان يفارق كربلاء التي أتاها صغيرا مع والديه، ولم يستطع مفارقتها بعد وفاتهما، حتى عاش احلى أيامه مع حلومة الخبازة، فآثر الرجوع ليموت فيها.

حول اسحاق عمله إلى عطارية لبيع البقوليات، واستقدم عاملا يهوديا يساعده في ذلك، بعد ان أصبح لا يطيق الجلوس كثيرا داخل حيطان المحل الصماء، في الصباح يذهب إلى صديقه عزره الساعاتي، وفي بعض الأحيان يذهب إلى صديقه زليخا وهو مختص بتصليح أوعية الفافون، يشعر بارتياح غريب، وهو يراه يلحم تلك الكسور، ويطرق بعضها ومن ثم يعمل على تصفيتها، وكان يقول له، يمكنك ان تعيد

الحياة للأشياء المكسورة، ولكن من يعيد لروحي سلوتها، وعند العصر يقضي بعض وقته عندي، حيث تشاركنا ريم في بعض الأحيان جلستنا، حتى سألته في أحدى الجلسات:

- اسحاق افندي لماذا لم تتزوج حتى الآن؟
- يبدو انك لم تعرفي قصة حبي مع حلومة الخبازة؟
- بل أعرف كل تفاصيل حياتك، وانما أقصد بعد وفاتها.
- أي امرأة تقبل برجل مثلي لا يملك أي شيء، ومحطم نفسيا؟
- وان أخبرتك أن هناك من تقبل بك، ولكن شرطها ان تسكن بغداد؟
- أوافق على شرط ان لا أهاجر إلى خارج العراق؟
- أصبحت تضع شروطا، وقبل قليل تقول لا توجد امرأة تقبل بالزواج مني.
- اريد ان أعيش جسدا وروحا مع من تقبل الزواج مني، وانت تعلمين ان أكثر اليهوديات يرغبن بالهجرة من العراق بسبب الأوضاع الاجتماعية والسياسية المضطربة في بغداد، وهو ينعكس سلبا على اليهود في مختلف ألوية العراق.
- في هذا الكلام انت أصبت.

عندها تدخلت في حوارهما وقلت:

- إذا أقبلي بزواج شاؤول من مسعودة، ودانيال من صباح، إذ كيف لك تقبلين شرط اسحاق وترفضين طلبات الآخرين.

عندها صمتت ريم، دون أي جواب، وأطرقت برأسها.

نزلنا في داري، وكان البيت من قبل تشرف على تنظيفه إحدى

الخادمات اليهوديات يوم الجمعة من كل أسبوع، لتبعث فيه الحياة، بينما يوزع يسع مبيته بينه وبين بيت مناحيم، وكثيرا ما يقيم الحفلات والسهرات فيه، ليودع بعض أصدقائه من الذين قرروا ترك العراق إلى غير رجعة.

ارسلت ريم أبنها دانيال بطلب خالته، من أجل مفاتحتها بزواجها من اسحاق، لم تكن لتمانع بذلك، وبالخصوص انها تأمل في زواجها ان تحصل على طفل، لأنها قد قاربت النصف من الأربعين، وقد اخبرتها ريم بكل تفاصيل حياته، في كونه نبت صحراوي لا عائلة ولا مال ولا شهادة، وانما رجل يمتلك الخلق والأمانة والأهم الوفاء.

وقد استغل دانيال هذه الفرصة، فأخبر صباح بتواجدهم في بغداد، وطلب من أبيها ان يقيموا وليمة لأبيه، كي ترجع المياه إلى مجاريها وتتقوى علاقة العائلتين، وبالفعل، تمت الدعوة، بدت ريم أكثر انفتاحا من قبل، فلم تمانع من تلبية الدعوة، كما انها لم تحرج على ابنيها بعدم الاحتكاك بأبناء بنيامين، بينما فضلت سارة الذهاب إلى بيت أخيها مناحيم لتعرف أخباره.

جهد بنيامين من أجل ان يكون على مستوى اللقاء والوليمة، واستعدت زوجته وأولاده لذلك ايضا، وسعى إلى ان تكون الوليمة فيها من كل اصناف اللحوم والفاكهة والحلويات، حتى انه أشترى بعض الأطقم الجديدة من ابلام الفرفوري المذهبة، كما اشترى ملاءات جديدة لطقم القنفات الذي يمتد على طول حجرة الاستقبال الكبيرة والطويلة، وأبدل ستائر النوافذ التي تطل على الحديقة الداخلية، وكحل جدرانها الخالية ببعض اللوحات الفنية وكلام التوراة.

كانت تلبية الدعوة إيذانا بالموافقة واعادة العلاقة بين العائلتين، وسرعان ما تم تبادل الدعوة من قبل ريم، وقد أولمت لهم، بما يقابل دعوتهم، حضرت سارة في هذه المرة، وساهمت في ترطيب الأجواء، وتقريب المسافات البعيدة بين الشباب الذين يريدون الارتباط والانطلاق نحو الهجرة إلى اسرائيل.

كان همي الوحيد ان اتفقد أصدقائي وأقربائي، وان اخرج من أجواء الشحن العائلي الذي سببته ريم، عندما وصلت شارع النهر وجدت سليمان قد هاجر من العراق، وقد أعيد لدكانه حلّته، ولكن هذه المرّة على يد عراقي صابئي، بينما كانت كثير من الدكاكين مغلقة ومعروضة للبيع، وكذلك أسواق الشورجة الأقمشة، حتى بدت بغداد مثل جبل يركد على بركان يتفاعل في داخله وينتظر لحظة الانفجار.

كنت أعتقد ان المشكلة الحقيقية عند أغلب العراقيين، هو عدم إيمانهم بالآخرين في قرارة أنفسهم، ولذلك هم يتحينون الفرص للانقضاض عليهم، فلا المواطن مقتنع بالموظف المدني، والذي بدوره غير مقتنع بالشرطي الذي يحميه، وهو غير مقتنع بالجندي الذي يسهر ويحمي حدود البلد، والأخير غير مقتنع بالسياسي الذي يدير شؤون البلاد، ولذلك عند حدوث أي خلل أو فراغ في أي من هذه المراكز ينقض أحدهما على الآخر، وقد تجلى هذا صارخا عندما أصبح العراق دولة ومملكة، سعى الفرد العراقي إلى جعل الحكومة بديلا لعشيرته ويريدها ان تناصره في كل تفاصيل حياته، ولما لم يتحقق له ذلك تراه يتحين الفرص للنيل منها.

اصبحت بغداد موحشة، بشوارعها وانفاسها وسياراتها وحدائقها

وأسواقها، والانقسام النفسي والمعنوي والاحتقان القومي، والمد العروبي يجتاح الأنفس قبل ان يجتاح الشوارع، والصحف والمجلات والإذاعات العربية والعراقية، كلها تغذي هذا الوليد الذي بدأ ينمو داخل الذات العربية والعراقية، وأصبح كل تصرف يفسر بالضد أو مع جهة معينة من طوائف الشعب وبالخصوص الطائفة اليهودية.

كانت القضية الفلسطينية مركزية للشعب العربي، ولكن القرار بريطاني فرنسي، وكانا يناصران الصهاينة في إقامة كيان لهم في فلسطين، بينما الشعب العراقي بمسلميه ويهوده هما الضحية في هذا التناحر، الذي اصبح رافضا للوجود البريطاني على أرضه، رغم إعلان العراق دولة مستقلة وانهاء الانتداب، لكن الواقع لم يكن ليبشر بخير، فسيل هجرة اليهود من كل بقاع العالم إلى فلسطين، في مقابل تهجير العرب الفلسطينيين إلى الدول العربية يزيد من الاحتقان عندهم، وكذلك الاضطهاد الفرنسي للسوريين، فمثلما كان العراق جاذبا للغرباء، كان نافرا لأبناء بلده، وبالرغم من محاولات بعض الأقلام الواعية من ان العراقيين يعادون الصهيونية ورجالها، وليس اليهود، ولكن من يستطيع الفرز بينهم، ففي الوقت الذي تعلن فيه الصهيونية العداء وتهدد البلاد العربية بسيول من الدم، كان يهود العراق ممتحنين بوطنيتهم وأدميتهم وانتمائهم.

فعندما عين أرشد العمري وزيرا للاقتصاد والمواصلات، طرد يوسف شاؤول كنائب المدير العام لمصلحة البريد، قبل موعد إحالته على المعاش بخمسة أشهر، كما طرد تيسون زلخة مساعد المدير العام لمصلحة الطرق، وتبعهم كثير من الموظفين اليهود الصغار، فتسبب

برد فعل كبير عن يهود بغداد، وقرروا تعطيل اشغالهم ومتاجرهم لمدة ثلاثة أيام احتجاجا، فارتاعت الوزارة لهذا القرار، فأعلنت الوزارة انتهاء التنسيقيات وليس في النية إخراج أحد من اليهود من الوزارة.

أرشد العمري أحد وزراء كابينة رئيس الوزراء ياسين الهاشمي ذو ميول قومية عربية شديدة، وقد حارب الهاشمي في فلسطين وشرق الأردن، وجرح وهو يحارب مع الأتراك، ولذلك يتهم من قبل بعض اليهود بالتآمر عليهم، وهو السبب في تنظيم المظاهرات التي عملت على تحطيم المحال التجارية اليهودية وسرقتها، كما ألقيت القنابل في النوادي الليلية وقتل عدد من اليهود في الشوارع العامة، كل ذلك خلق أجواء من الخوف، ما جعل بعض الجماعات اليهودية تنظم إضرابا كاحتجاج على الأوضاع، فأغلقت كل المحلات وتعطلت جميع الأعمال التجارية اليهودية، ليس هذا فحسب بل منع قيام الشيعة بطقوسهم الدينية، ما ولد استياءً كبيرا لديهم.

هرب إلى العراق كثير من العرب ومعظمهم من الفلسطينيين والسوريين وقد عين بعضهم في مؤسسات الدولة، وقد لعب هؤلاء دورا كبيرا في انشاء وتنظيم عدد من النوادي والجمعيات ومن أشهرها نادي المثنى ومن أشهر أعضائها الفلسطيني درويش المقدادي، وهو عضو في لجنة الدفاع عن فلسطين، الذي كون بدوره مجموعة كشفية سميت باسم الجوال العربي التي أصبحت نواة الفتوة لمنظمة أصبحت قانونية من قبل الحكومة، بعد ان عممت على المدارس الثانوية، كمادة إجبارية، لتتحول بعد ذلك إلى كتائب الشباب للكبار.

استمر بقاؤنا في بغداد لأكثر من عشرة أيام، وكنت اخرج في كل

صباح لأتفقد أحياء وشوارع وأزقة بغداد، من الشورجة، إلى عگد التوراة، وسوق دانيال، وسوق حنون، وأبو دوْدو، وابو سيفين، وسوق مونشي، كنت اجلس في المقاهي، استمع إلى الآخرين، واشتري الصحف والمجلات، واشاهد بعض المظاهرات المؤيدة لفلسطين، والمنددة بالتواجد البريطاني في العراق، في مقابل انزواء اليهود على أنفسهم، وكأن الخوف يتخطفهم من القادم المجهول، رغم انهم ليسوا طرفا في كل هذا التجاذب، لكنه يزيد من احتقان الناس اتجاه اليهود.

عدت إلى بيتي مخذولا مضطربا، بعد ان وجدت الأسواق خائفة، وموشحة بعضها بعبارات البيع، ومثلها البيوت، كنت اسمع هسيس الناس وعداءها اتجاه اليهود، دون ان يفرق بعضهم بين اليهود كمواطنين عراقيين، وبين الصهاينة أصحاب الفكر الاستيطاني التوسعي على حساب عرب فلسطين، حتى الصحف التي كنت قد اعتدت على قراءتها أصبحت صفراء في أخبارها، ومثلها الإذاعة التي تنقل الأخبار، والأغاني الثورية التي تحض على الانتقام والثأر.

لن اخفي اضطرابي عن ريم، التي كانت بالنسبة لي أكثر من زوجة، عكست لها احتقان الشارع البغدادي واحتمال إفرازاته غير المحمودة اتجاه اليهود دون الأديان الأخرى من المسيح والصابئة، وان هجرة اليهود من العراق ربما هي في صالحهم، وبالخصوص الشباب الذين لم تنبت بعد جذورهم في الأرض وتتشرب أجسادهم بماء دجلة والفرات، وطين أرضها، وغضارة زرعها، وحناء عبقها، لم أكن اتصور هذا الواقع المريع بهجرة اليهود وغلق بيوتهم، وبيعهم لمتاجرهم ودكاكينهم وخاناتهم.

طرد هذا الكلام داخل نفسية ريم بقايا شوائب رفض لإتمام زواج أبنائها، بل وأثار فيها بعض الريبة أتجاه بقاء أختها وحيدة مع اسحاق وبني ملتها، لذلك سرّعت بإتمام مراسيم عقد الزواج، وقد أرسلت يسع لإحضار اسحاق من مدينة كربلاء، وما ان حضر حتى كان الجميع قد ذهب إلى كنيس مسعودة، للمباشرة بإجراءات الزواج.

عدت وزوجتي ويسع إلى متصرفية كربلاء، بعد ان تركت خلفي بيت بنيامين يعد العدة للهجرة بمجرد انقضاء عسل الزواج، بينما ذهب اسحاق يبحث له عن مخزن لبيع المشروبات الروحية في شارع الرشيد، وقرب الحيدرخانة، أما سارة فرضت الرجوع معنا، وتركت الخيار ليسع اللحاق بها أو الانفصال عنها، وبدوره فضل الرجوع معنا، بعد ان شرح لها وضعنا الجديد، في هجرة دانيال ومسعودة بمعية بيت بنيامين.

III

اسحاق والوداع الأخير

خيم الحزن على بيتي ومدينتي كربلاء، وأصبحت عيناي لا ترى الألوان، بل تنظرها بعتمة شديدة، تغيرت أحوال يسع، الذي اخذ يتأخر ليلا، وكثيرا ما يعود سكران، ومثله ريم التي أصيبت بمرض الصمت ولم تعد تجري بيننا أي حوارات، وكأننا نعيش فلما صامتا كل يعرف دوره ويؤديه بإتقان محترف.

جاءني فاضل لينقل لي أوضاع الدكان وقلة الأقمشة ورداءة نوعها، ما اضطرني الذهاب إليه، وجدت حالته مزرية، فأكثر الرفوف فارغة، بينما الدكاكين الأخرى مزدهرة ورائجة بمختلف الأنواع، اجتمعت بيسع ليلا بعد أن انتظرته كثيرا، وجدت رائحة الخمر تفوح من فمه وقد امتلئ بالمرارة، يشعر بإحباط كبير، إذ ان كل اختيار تخلي، وهو من قبل قد إعتاد السكينة والاستقرار، يؤنب نفسه كثيرا على الظروف التي وضعته في هذا المفترق، لقد خذلته زوجته، وخالفت شرطه الأساسي في عدم مغادرتها المتصرفية، ولكنه يعود ويعطيها العذر في ان الظرف الجديد هو من وضعها في هذا الامتحان.

خالفت سارة طموح واحلام يسع، كان يتمناها ان تكون مثل أمه

صابرة محتسبة، ولكنها انهارت وضعفت، لم تكن لتقنع نفسها ان يسع كل حياتها، هكذا هي اكثر النساء رغم زواجها، لكن عينها تبقى على بيت أبيها وأخوتها وذويها، وشعورها بضعف جذورها كثيرا ما يجعلها مضطربة، لم تكن لتنتمي للمكان بأي شكل من الأشكال على العكس من زوجتي ريم، التي سرعان ما انخرطت في المجتمع الكربلائي، وأقامت العلاقات الاجتماعية، ومدت جذور الصداقة مع من يحيطها.

لم يكن الخلل في يسع، وانما في تركيبتها النفسية الميّالة للانعزال، ربما هو جذر ورثته من اجدادها اليهود، منذ اسرائيل وعائلته، وحتى عندما انتقلوا إلى مصر، كونوا حيا خاصا بهم، وبعدها ليهجروا مصر منعزلين، ويتيهوا في صحراء سيناء، ليموت هارون ومن ثم موسى، ويقودهم يوشع إلى فلسطين.

لم أستطع أن أُنّبهُ على وضعه الجديد، كما لم أكن لأؤيده كذلك، ولكني حاولت نصحه، وعلمي انه عندما يستكين الليل، ويرى مهد نورائيل خاليا، وفراشه باردا كصقيع شتاء شمالي، يتبخر كلامي مثل مياه البحر في صيف قائض، ولكن كان لزاما ان أبدي بعض النصح له.

كان يسع رجلا مطيعا هادئا، يحب العمل والتجارة، ويميل إلى أسرته، ويخلص في وفائه لها، لم يكن يعتقد في قرارة نفسه، ان علاقاته الهامشية مع نساء طارئات من الممكن أن تؤثر على بيته، أسوة بكثير من أقرانه، ولم يكن مني أن أعير تلك التصرفات أية أهمية، ما زال في نهاية اليوم ينام في حضن زوجته، سألته عن وضعه الجديد، وتغيره المفاجئ في تصرفاته، وإهماله لدكانه، أطرق برأسه ولم يجب، وكأنه يقول انت

تعرف الظرف الذي وضعني في مفترق طرق، وأنا لا أستطيع التفريط بأي من الاختيارين، ثم قال بعد أن تنهد بحسرة:

- أنا أحبكم أنتم عائلتي، وأحب مدينتي كربلاء، وأحب زوجتي وأبني، ولو كنت مكاني، فكيف تستطيع المفاضلة بينهما؟

فتحت فمي دهشة، وانا أسمع كلامه المدوي، والفرق كبير، بين أن تحس الأشياء، وقد يكون هذا الإحساس خادعا، وبين أن تصرخ به لتعلنه للجميع. كان يتكلم دون ان يرفع رأسه، وكأنه يخاف مواجهة الاختيار.

- لك أن تقرر الاختيار الذي تراه مناسبا، وسأكون داعما له.
- أنا لا أستطيع اختيار زوجتي وأبني، لأن ذلك يعني الهجرة، وهذا يعني انني سأتخلى عن كل حياتي السابقة، ويصعب عليّ اختيار المدينة وعملي، لأن ذلك يعني ان أتخلى عن أسرتي، وهو الموت البطيء، انظر اسحاق وكيف فعلت به حلومة الخبازة، ولم تكن تربطه بها سوى علاقة حب، فكيف بي وأنا تربطني كل وشائج الحياة بحبيبتي وزوجتي وأم أبني.

لم يجرؤ يسع، على القول انه يفكر بالتخلي عنا أنا أبيه وأمه، وانما ظل يحوم حول العبارة، دون ان ينطقها، وكنت أعذره، ولو كنت مكانه لعشت في الدوامة نفسها، دون ان أستطيع أخذ القرار المناسب. ثم شجعته بالقول:

- لك أن تختار زوجتك، أفعل كما فعلت أنا، عندما أخترت المتصرفية وتركت بغداد وأهلي وأقاربي، دون أن اتنكر لهم، بل كنت في وصال مستمر معهم.

- الاختيار صعب جدا، كيف تطلب مني التخلي عنكم، ومن يبقى لكم من بعدنا، لا يمكن. ان هذا يعني الانتحار وليس الاختيار.
- ولكن حياتك تتجه نحو الانتحار دون ان تعلم بها، أو ربما تعلم، فمن الصعب ان يتجه الإنسان إلى حتفه بعلمه.

كانت ريم جالسة وسطنا، دون أن تنبس ببنت شفة، بينما تنهمر دموعها وهي ترى حيرة ابنها، فهو في مفترق طرق، يصعب على أي الإنسان اتخاذ القرار فيه، فاختيار أي طرف فيه، يعني قتل الطرف الآخر، وكأن يسع ينتظر من امه التدخل بالموضوع دون أن يطلب منها ذلك، وعندما كفكفت دموعها، قالت:

- ولكنك يجب ان تختار أسرتك الجديدة، لتعيش حياتك مثل الآخرين، وفيما يخصنا أنا وأباك، فأن حملنا خفيف، وسنبيع دكان الأقمشة، ونكتفي بدكان الصياغة، بل ويفيض علينا.

زرع هذا الكلام في نفس يسع الأمل، بعد ان وجدنا نشجعه على اللحاق بزوجته، والانضمام إلى القافلة التي ستهاجر إلى إسرائيل بمعية بيت بنيامين، ولكنه باغتنا بسؤال لم يطرق اسماعنا من قبل، ومن دون سابق إنذار:

- لماذا لا تأتيان معنا، لنبدأ من جديد؟ فأنت يا أبي لك القدرة والشجاعة على الغوص في عالم المجهول، كما فعلت في رحلتك السابقة عندما جئت إلى متصرفية كربلاء ولم يكن لك فيها أي عمل أو قريب.

كان هذا الشعور الجديد الذي فاجأني فيه يسع، من أنه يخاف المجهول، أو هكذا بدا لي، قد صعب المسألة على نفسي، ولكني كنت

في قرارتي، أقول ان الحياة كلها عبارة عن سر كبير يفك أسرارها الإنسان شيئا فشيئا، ودون أن أبين له ذلك، قلت:

- أهم شيء في الحياة هو العمل، الذي يجلب البيت والمال والاستقرار النفسي والمادي، وإسرائيل كبلد وليد، الناس فيه كلهم غرباء، ويمكن لأي وافد ان يؤسس لحياته بينهم، ولكني لا يمكن أن أغادر ليس العراق، بل متصرفية كربلاء، فأنا جزء منها وهي جزء مني، وانت تعلم، انني اشتريت قطعة أرض في مدفن حزقيال، وسأدفن قرب عمك منشي خضوري، فهذه أرضنا، وهذا بلدنا ولا يمكن أن نتخلى عنها مهما كانت الظروف.

كانت ريم مؤيدة لكلامي، فقد انصهرت بالمجتمع الكربلائي، ولا تستطيع مغادرته، والأهم أنها تحبني بشكل جنوني، هي بمثابة قبطان السفينة، فكل شيء بيدها، القيادة والحل والعقد، والعلاقات الاجتماعية ولكن من خلف حجاب، ولم أكن لأعصي لها أمرا، بل أميرة تأمر فتطاع، ثم قالت:

- أبني العزيز، ربما وضعنا يختلف عنكم أنتم الشباب، فأنا عشت قصة حب عاصفة مع أبيك، وأعتز به وأحبه حتى الآن، وعندما أتينا إلى متصرفية كربلاء، كان دليلا صارخا على تمسكنا بهذه الأرض، ولم نفكر بالهجرة إلى خارجها، ولم يبق في العمر بقية، حتى نعيش في مكان آخر، وحتى لو توفر هذا المكان، فلا يمكن أن نغادر كربلاء، أو العراق، انتم شباب وربما جذوركم بيضاء يمكن أن تنبت في غيرها، ولكن وضعنا يختلف، فهذه المدينة التي منحتنا الأمان والحب، لا يمكن أن نخذلها ابدا.

لم يكن يسع يستوعب عمق كلامنا، ولو تذكر قليلا ما عانيته، عندما بعت الحمام، الذي يمثل كل وجودي، لما طرح مثل هذا المقترح، وأعلم انه قاله بنية صادقة وعاطفة أسرية جياشة من أجل أن لا يفقد أي طرف من عائلته الصغيرة أو الكبيرة.

* * *

كان الحاج رضا التبريزي، على علاقة طيبة معي، وقد عمل مجلس للحسين داخل الحمام، ودعا له روضخون ليفتتح المجلس، واستطاع من خلاله أن يعلن عن شرائه للحمام، وكنت أحد المدعوين للمجلس، وباركت له أسوة بالآخرين.

قرر الحاج رضا الاستقرار في كربلاء بعد شرائه للحمام وكأنه يعيد سيرتي الأولى، مع اختلاف اعتقاد كل منا، فهو يشعر بأنه جزء من المكان والطقوس والعبادات والأعياد والأحزان، جزء من تراث هذه المدينة منذ أكثر من ألف عام، بل وساعده في ذلك أبناه، فهما بالغان ومنتجان، يعمل قاسم بزازا في السوق الكبير في مدينة تبريز، أما هاشم فيميل إلى الوظيفة، فهو يعشق الروتين مثل ميل الساعة.

* * *

جاء بنيامين وعائلته وكذلك سارة لوداعنا، ومن ثم تبعهم اسحاق ومائير، كانت مفاجأة كبيرة، ان تعود العائلة تتجمع من جديد في بيتنا، فرحت ريم كثيرا بهذا الجمع، وعبرت مثل أية أم تلتقي أبناءها بعد غياب بشوق فياض ودموع منهمرة، وقابلها دانيال بلهفة كبيرة، فهو لأول مرة يغيب عن البيت بهذه الفترة الطويلة، بينما بدت مسعودة

امرأة ناضجة مكتملة الأنوثة، وأكثر استقرارا، بعد ان بدت ملامح الزواج ظاهرة عليها.

بينما اتجهت سارة نحو يسع، وهي حزينة مكسورة، لم تشعر بقيمة زوجها، إلا بعد ان غادرت دفأه، وبدا نورائيل أكثر حيوية وهو يبتسم بوجه أبيه، الذي أنساه حزنه، ذهبت به إلى غرفتهما، وكأنها تقدم اعتذارها أمام الجميع، لم تكن لتتراجع عن خطوتها بالهجرة، ولكنها تأسف لتصرفها القاسي والمتسرع اتجاه زوجها، وحري بها تيسير الموضوع عليه، وان تجد الطريقة المناسبة لأقناعه بالهجرة، بدل هجره ووضعه أمام الأمر الواقع.

اجتمعت العائلتان في غرفة الحرم، واستغرقت ريم مع مائير ومسعودة في حوار دافئ، ودانيال مع يسع، بينما اكتفيا شاؤول وساسون بالفرجة على الجميع، بعد ان تحولت الغرفة إلى ما يشبه سوق في قمة نشاطه. وجلس قربي بنيامين واسحاق الذي تكور على نفسه مثل ضوء شمعة خافت. ومثله كانت استر ونجاح، يتقطع الحديث بينهما.

سألت بنيامين عن الأوضاع العامة في بغداد، وكان رده حزينا مثل ليل شتاء يمر ثقيلا على عائلة فقيرة، عندما قال: لقد انتقل قادة النضال الفلسطيني من فلسطين إلى سوريا ولبنان هربا من الاضطهاد البريطاني والفرنسي، ومن ثم انتقلوا إلى بغداد، ومن أبرزهم مفتي القدس أمين الحسيني، مع قيادات كثيرة وكبيرة من لبنان. وهو بارع في تهييج الناس وتأليبهم ضدنا، والأهم هو دخول ضباط الجيش على مسار العملية السياسة، من خلال جمع المال والسلاح وارسالها بالسر إلى فلسطين،

كل هذه العوامل تقلق وجودنا في بغداد، حتى ان نظرة الغضب والشر تراها في عيون اغلبهم وهم يمرون في أسواقنا، يحملونا تبعات ما يعمله الصهاينة في فلسطين من قتل وتشريد للمسلمين.

وفي مقابل كل هذا التوتر، سعت مديرية البريد والبرق العامة إلى مدّ خدمة الهاتف إلى الدول المجاورة للعراق، فقد مدت أسلاك بين العراق، وسوريا، ولبنان، وفلسطين، وشرق الأردن، ومصر. وأصبح في متناول أيدينا الاتصال ببعض أصدقائنا في فلسطين وسؤالهم عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فيها، وكانت إجاباتهم مطمئنة، رغم أن البعض يفضل الهجرة إلى أوربا على أمل ان تستقر إسرائيل ومن ثم يعودون فيهاجرون إليها من جديد.

عندما اتم الجميع وليمة العشاء، عادت الأحاديث شهيتها من جديد، مع تغير المواقع، وكانت ريم راعية الجلسة بامتياز، وانتقلت بجلستها مع استر وابنتها نجاح، وكذلك سارة، ودارت الأحاديث بين أفواههن، وكأنهن عطشى منذ آلاف السنين لهذا اللقاء، بينما زاد حديث بنيامين الحزن على قلبي، فلم أكن أتصور ان الأمور تسير نحو الأسوء وكنت أمل ان تستتب، ولكن دخول العسكر على خط السياسي جعل للحياة السياسية لون الدم، فعادة الساسة في اختلافهم ان يلجؤوا للصحف أو السباب والشتم، بينما عادة العسكر ان يلجؤوا للسلاح ما يعني القتل والانقلاب.

نهضت مائير وجلست قرب ريم، وطلبت منها، ان تقنع اسحاق بالهجرة معها بمعية الجميع، فقد أتفقوا على ان يسكنوا في مكان قريب

على بعض داخل اسرائيل حتى يخففوا وطأة الغربة وما يصادفهم من مشاكل محتملة، لكن ريم نهرتها، وقد ذكرتها بالشرط الذي فرضه إسحاق قبل الارتباط بها، وكان زوجا صالحا ومخلصا، ورمى كل تاريخه وماضيه خلف ظهره، وألمحت إلى سارة في ذلك، ولكن على ما يبدو ان المرأة تتمسكن حتى تتمكن، في البدء كنت تريدين أي زوج، وبعدها أصبحت تريدين الهجرة، إذا لم وافقت على شرطه في البدء، والآن تريدين أن تغيري رأيك، عمَّ مجلسهن الصمت، حتى بدا حديثنا هو الطاغي على المكان.

* * *

في صباح اليوم التالي، خرج الرجال إلى الأسواق والأعمال، وخرجت ريم ومسعودة للتسوق، فقد اتفق الجميع على ان يقضوا اليوم كله في المتصرفية ليغادروا في صباح اليوم التالي إلى بغداد ومنها إلى سوريا ثم فلسطين، ومنها إلى اسرائيل.

بينما أنفرد اسحاق في خروجه، ربما ذهب إلى قبر حبيبته حلومة الخبازة، وربما راح يشتم ريح مقعدها القديم وهي تفترش الأرض لتبيع الخبز، ومن ثم إلى دكانه، الذي فضل ان يدخل صانعه اليهودي كوهين كشريك فيه على بيعه، وكان شريكه الجديد قد جهزه بالبضاعة ومن مختلف الأنواع ما جعل دخله يزداد عن ذي قبل.

خرج دانيال وشاؤول وساسون مع يسع، لوداع كربلاء الأخير، فقد تغير دانيال كثيرا، عما كان يحمله من تشاؤم وعدم الانتماء للمكان، أصبح الآن أكثر تمسكا بالحياة، ولكن لازالت ميوله بالانتماء للإنسان

هو الطاغي، وقد وجد في صباح ضالته، وكأن زواجه بمثابة تفريغ احتقانه الذي يؤثر على تفكيره ومزاجه وانعكس جليا في انزوائه وعدم مخالطته الآخرين، بينما فضل بنيامين البقاء معي صباحا في دكان الصياغة ونحن نتداول أمر تحويل أمواله عن طريق الصيرفة من بغداد أو الحلة إلى فلسطين أو سوريا ومنها إلى إسرائيل، بينما ترك مفتاح بيته عند أحد أقاربه بعد ان عرضه للبيع.

أنقضى اليوم سريعا، ولم تهنأ ريم بأولادها، ولم يعد اسحاق عند الغداء، فشعرت مائير بحزن عميق، كانت حائرة بين رغبتها بالأمان كما تتصوره في الـ(هناك)، ورغبة زوجها العارمة في الـ(هنا)، طلبت من دانيال أن يخرج ليبحث عنه دون أن يعلمه بذلك، وقد تمكن القلق منها أيما تمكن، وكان اسحاق على علم مسبق بسفر عائلة بنيامين في صباح اليوم التالي.

ذهب دانيال إلى دكان اسحاق، ولم يجده بعد ان سأل شريكه عنه، فأخبره، أنه أتاه صباحا وغادره دون أن يترك عنده أي خبر عن رجوعه، ثم دخل إلى (عگد اليهود) وراح يطيل النظر في الدكاكين وعند أصدقائه ومن يجلس عندهم، لكنه لم يجد له أي أثر، ذهب باتجاه القهوخانة الرئيسة عند (عگد الهنود) ولم يجده، ثم عرج على سوق التجار، وعاد من جديد إلى (عگد اليهود) ولم يجده أيضا، وكان دانيال، يعرف لهفة خالته على زوجها، بعد ان فاتها قطار الزواج، وكانت تعشقه، فقد كان رجلا في تصرفاته، وذكرا في بيته، يعشق الجنس بموازاة عشقه للخمر.

لم يحضر اسحاق عند المساء، وانتقل القلق من مائير إلى العائلة كلها، وبدأت ريم بأنظارها تؤنب أختها، واتجهت الأنظار نحوها، ولم

يكن لها من مواجهة كل هذه العيون التي حملتها ذنب غياب زوجها، وهل من جريمة أن يحلم الإنسان بحياة كريمة وأفضل مما هو عليها كما يعتقدها أو يظنها، حتى لو كانت في الحلم.

لم أكن لأتجرأ وأطلب من بنيامين، أن يؤجل سفره صباح اليوم التالي خوفا من تفسير طلبي على انني أمانع في سفرهم، لنتبين أمر إسحاق، وبالخصوص بعد ان قرر يسع الهجرة معهم، فقد أستطاعت سارة ان تقنعه بذلك، وكان شعورا مختلطا يخالجني وامه، ولكننا تركنا له القرار في الهجرة.

لم يفقد الجميع الأمل في عودة إسحاق، وكانت آذانهم صاغية إلى الباب، وأنظارهم متوجهة نحوه، على أمل أن يطرقه في أية دقيقة، ليكتمل شمل العائلة وتنطلق في رحلتها الأخيرة، تلك الرحلات التي لم تنقطع منذ يعقوب أو أسرائيل إلى مصر والعودة إلى سيناء والتيه وصولا إلى فلسطين، لم يكن ذلك الكابوس ليفارق الأسرة اليهودية، فهم حتى في إستقرارهم المنشود في فلسطين، ظل القلق يراودهم، كما تسربت الأنباء من بعض الذين هاجروا إليها وقرروا العودة من جديد إلى أماكنهم ومنهم إسحاق.

طرقت الباب، فنهضت مائير من مكانها وكأنها فتاة بالرابعة عشرة من عمرها ولكن كان طرقا زائفا فعادت خائبة، وكانت كلها آذانا صاغية للباب لا تنتظر أو تسمع غير الطرقات المنتظرة عليها، طرقت الباب مرة أخرى، وهبت بنفس الحيوية التي تحفها اللهفة والشوق، وكان إسحاق، مثل زهرة تفتحت للتو، حليق الذقن يضوع برائحة عطر فواحة تخالطها

رائحة الخمر، شعر رأسه حليق ومصفف، يرتدي بذلة جديدة تسبقه النية الحازمة، أخذته زوجته بالحضن والدموع، وتذكرت ريم مثل إلى هذا الموقف، عندما تأخرت في شهر محرم بعد خروجي مع موكب عزاء التجار، قرأت ذلك في عينها وتبسمتُ، وتبسمت هي أيضا، لم تتكلم مائير أية كلمة، كانت الدموع كفيلة بأن تكفر عن خطأها، لكن اسحاق فاجأ الجميع بقراره الهجرة معهم.

صمت الجميع وتلاقت العيون، دون أن يوجه أي شخص من الموجودين في البيت أي سؤال له، عن سبب تغيير قراره، لكنني سألته عن سبب غيابه، والقلق الذي سببه من وراء ذلك للجميع عندها أجاب:

- ذهبت إلى قبر حلومة الخبازة، لأودعها الوداع الأخير.
- هذا كان في الصباح، وأين قضيت باقي الوقت.
- ذهبت إلى غرفتها التي كنت أدفع أيجارها باستمرار، لتبقى أشياؤها كما كانت، وبكيت كثيرا.
- وبعدها.
- بقيت وقت الظهر في غرفتها، وبعدها طلبت من صاحب المسافرخانة، ان يعطي أغراضها وأشياءها لمن يحتاجها من الفقراء.
- ولماذا لم تعد مباشرة للبيت بعد ذلك.
- لقد دعيت من بعض الأصدقاء إلى جلسة أنس وطرب وخمر، ولم أشعر بالوقت حتى غافلني النوم، ولم أفق إلا والليل قد استوطن المكان.

كانت ريم قد سربت لي، ان مائير، قد اقترحت على أسحاق الهجرة، وأغرته بأن تفتح له دكانا لبيع المشروبات الروحية، وان تشتري لهما بيتا،

وان لم تعجبه الحياة هناك يعودان معا، وان سبب فشل هجرته الأولى هو عدم وجود زوجة معه، تؤنس وحدته، وتزيل غمته، وتخفف وطأة الغربة عليه، لكن اسحاق لم يكن ليطاوعها، لأنه كثيرا ما كان يتحدث لي عن انتمائه إلى العراق، وانه لم يشعر يوما بانتمائه إلى إسرائيل أو أي بلد آخر، بل ويتعجب شعور البعض برغبة الهجرة إلى الوطن الحلم، او الحلم الوطن.

ألتأم شمل الجميع حول مائدة الطعام العامرة بألوان مختلفة من الطعام والفاكهة والحلويات، كما كانت عامرة بعصير البرتقال والنارنج والرمان ولبن الخاثر، وأخرجت ريم ملاعق الفضة والصحون الموشحة بالخطوط الذهبية، وهي ترسم رحلة آدم نحو الأرض، وعلى جنب كانت قناني الويسكي والعرق، والبيرة، وجنبها كؤوس عارية برقبة طويلة وكؤوس بأفواه مفتوحة دون رقاب.

عند الليل، أخرجت مائير مفتاح بيتها وقدمته إلى ريم، لتكون هي الوصية على بيعه، ففي الوقت الذي أصابني وريم الحزن، أصاب الفرح الجميع، في ان خالتهم ستكون بمقام أمهم، التي يرجعون إليها في مشاكلهم واشتياقهم، في عوزهم وحزنهم وفرحهم، كانت مائير هي السبب في تقارب، ومن ثم زواج دانيال من صباح، وهي من سعت إلى زواج شاؤول من مسعودة، وبذلك كان الجميع يكن لها جزيل الامتنان.

IV

تبادل الأدوار

كانت لعبة تغيير الأشخاص مع ثبات الأمكنة لازالت مستمرة، فقد طلبت من فاضل ان يعلق اعلان بيع الدكان بأقمشته، ولأن موقعه حيوي فقد تنافس كثير عليّ من أجل شرائه، لكن الحاج رضا، كان أكثرهم إلحاحا في شرائه، وبالسعر الذي أريده، لأنه يريده لأبنه قاسم، الذي كان يعمل بزازا في تبريز من قبل.

كما سعى إلى توظيف ابنه هاشم في دائرة البلدية، وقد نجح في ذلك، لما للإيرانيين من نفوذ بالمتصرفية، وهكذا أصبح الحاج رضا مواطنا كربلائيا من الدرجة الأولى، واصبح همه الوحيد هو البحث عن السكن اللائق، بعد ان باع أملاكه في تبريز باستثناء البيت وحول رأس ماله إلى المتصرفية.

* * *

ضاقت كربلاء بنا، بل ضاق العراق بما رحب، فقد هاجر الجميع، مثلما رحل بعض الأصدقاء ومنهم الحاج جودي وأم أموري، ولم يعد من بقايا فرح، اضحت ريم يأكلها الفراغ مثل شجرة عارية في مكان

فسيح يتلقفها البرد والحر في آن واحد، ولم يكن الحزن ليفارقني رغم محاولاتي المستمرة في إشغال نفسي بالعمل وانهماكي بالمال، كنت أسيح بزوجتي إلى النبي حزقيال وأعود بها إلى بغداد التي كانت تذكرها بمرافئ طفولتها وصباها، إلى بيتنا الأول وطفولة أبنائها، أذهب إلى كنيس مسعودة، ولكن مرارة الفراق لم تزل ندية تحت لسانها.

بعد مرور سنة وانا متتبع للأخبار السياسية وما يجول في العاصمة من خواطر وعواصف تكاد تعصف بالبلد، قام بكر صدقي، بانقلاب عسكري على ياسين الهاشمي الذي فر إلى سوريا وتوفى فيها بعد شهرين، ودفن بجانب قبر صلاح الدين الأيوبي حسب وصيته في الجامع الأموي.

اصيبت بغداد بالهرج والمرج، وماج اليرمازية بالفقراء وسطو على بعض المحلات والبيوت، وأصاب الناس الذعر فيما ستؤول إليه الأمور، فقد كانت حماسة العراقيين وتهييج شعورهم ضد اليهود يرجع إلى عدة سنوات، أي منذ ان أعلنت الحكومة الإنكليزية بوساطة بعض رجالها المسؤولين جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود، وان الذي غذى هذه الحركة ضد اليهود هم الفلسطينيون من لاجئين ومدرسين وصحفيين وأطباء والبسطاء الذين سكنوا العراق، وقد أثروا على العوام من جهة دينية إذ أخذوا يشيعون بأن اليهود والإنكليز يقتلون العرب والمسلمين في فلسطين ويعتدون على الحرمات والأماكن المقدسة ويمثلون بالمسلمين وغيرها من الدعايات.

كانت هذه الأخبار تشعرني بالحزن والقلق، لما ستؤول إليه أمور اليهود في بغداد، لأن الألوية والأقضية، لم تكن لتهتم لمثل هذه الأخبار،

وكنا نعيش وسطهم بوئام، وفي الوقت نفسه كنت أحمد رب موسى على هجرة أولادي إلى خارج بغداد وبعكسه فربما كان سيصيبهم مكروه، فقد كنت أذهب إلى بغداد وأجري بعض الاتصالات معهم، كما وكنت أتتبع أخبارهم من بعض الغادين والراجعين إلى العراق.

بعض الأخبار التي تبثها الإذاعات والصحف صحيحة، فقد عمد الصهاينة إلى التقتيل والتهجير بالفلسطينيين المسلمين، كما عمدت إلى مصادرة أملاكهم، بينما كانت الأخبار الأخرى في الاعتداء على أماكنهم المقدسة فيها كثير من التضخيم.

أصابني وريم نوع من الاستقرار النفسي، من أننا وأبنائنا في مأمن من أي تغيرات وتطورات سلبية تعصف ببغداد، وان الأمور كانت محملة بأشياء يصعب التنبؤ بها، إذ لا زلت أتذكر جيدا عندما هرب الأتراك من بغداد بعد احتلال الإنكليز لها فأن رعاع الناس أخلّوا بالأمن ونهبوا الأسواق والمتاجر.

الفهرس

نطلق رواية حمّام اليهودي من أرضية الأقليات الدينية في العراق التي توجهت اليها معظم روايات ما بعد 2003 وهذه المرة يسعى المؤلف الى معاينة الواقع اليهودي في مدينة كربلاء ما قبل سنة 1920 عبر شخصية مركزية ساردة لكل الأحداث التي تناولتها الرواية .. حمام اليهودي حكاية رجل عراقي يهودي استوطن كربلاء وأحبّ المدينة وعاش في كل تفصيلاتها اليومية والاجتماعية وطقوسها الدينية وتشبّع بها كلياً من دون أن يترك يهوديته ، وتمكن عبر فترة قصيرة من أن يشتري بيتاً لأسرته ومن ثم يفتح محلاً لصياغة الذهب وبالتالي يكبر طموحه ليبني حمّاماً عاماً في المدينة ، غير أن الحمّام لم يُكتب له النجاح بسبب طابع المدينة الديني المقدس واعتبار اليهود أنجاساً فلا يجوز للمسلمين أن يتحمموا به..! الرواية سيرة ذاتية ليهودي عاش أحداث كربلاء وبغداد والعراق في تلك الحقبة التي شهدت تقلبات سياسية كثيرة هدّدت الوجود اليهودي في البلاد على نحو مباشر منذ احتلال العراق من قبل القوات البريطانية وما رافقها من دعوات تبشيرية ليهود العراق بالذهاب الى فلسطين كأرض لميعاد اليهود ..!

الروائي العراقي
وارد بدر السالم



دار سطور للنشر والتوزيع
بغداد - شارع المتنبي - مدخل جديد حسن باشا
هاتف: 07711002790
07700492576 - 07711002790
e.mail: bal_alame@yahoo.com


ISBN 978-1-7732228-3-7